
الكسى تولستوى
طفولة نيكيتا
ترجمة خيرى الضامن

الكسي تولستوي

الأمير الأعرج

رواية

طفولة نيكيتا

قصة

✱

ترجمة خيري الضامن

دار «رادوغا»
موسكو



ترجمة خيرى الضامن
رسوم ف. كوناشيفيتش

А. Толстой

ХРОМОЙ БАРИН.
ДЕТСТВО НИКИТЫ.

На арабском языке

ИБ № 4564. Редактор русского текста Н. Качарова. Контрольный редактор С. Чуканов. Художники В. Канашевич, Х. Марон. Художественный редактор С. Барабаш. Технический редактор А. Агафошина. Сдано в набор 29.03.88. Подписано в печать 20.10.88. Формат $70\times90\,^{1}/_{32}$. Бумага типографская. Гарнитура арабская. Печать офсетная. Условн. печ. л. 14,04. Усл. кр.-отт. 14,11. Уч.-изд. л. 15,72. Тираж 10.000 экз. Заказ № 889. Цена 2 руб. Изд. № 5539. Издательство «Радуга» В/О «Совэкспорткнига» Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. 119859, Москва, ГСП-3, Зубовский бульвар, 17. Ордена Трудового Красного Знамени Московская типография № 7 «Искра революции» В/О «Совэкспорткнига» Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. 121019, Москва, пер. Аксакова, 13.

طبع فى الاتحاد السوفييتى

الطبعة الثانية

Т $\frac{4702010201-83}{031(01)-89}$ 098-89 ISBN 5-05-002027-1

الامير الاعرج

رواية

من عرش الجليـــد في اعالي الجبال يغزل
الناسك الطليق شلالا عارما . يخترق حجب
الظلام ويحطم كل القيود . وتعود السحابة
الى الجبـــل على هدى الحب كقربان الدم
على مذبح ملفع بالثلوج .

(ف . ايفانوف «نجوم الهدى»)

ضوء القمر

١

أطل القمر على كوليفان في منتصف الليل فانار من جهة الشمال الزجاج المتموج على نوافذ المنازل وراح يطارد من اليمين الظلال الكثيفة على اعشاب الحماض المدعوكة في درب القرية ، ثم اختفى وراء سحابة هائمة في سماء الليل . آنذاك كانت تنهب الدرب على طول القرية ثلاثـــة جياد تجر عربة بسقف مطوى ويتهادى من جرسها رنين خفيف .

لم تبدأ الديكة ، بعد ، صياحها المعتاد ، بينما كفت الكلاب عن النباح . لا شيء سوى بصيص أصفر ينبعث من شق نافذة موصدة في منـزل على طرف القرية .

أمام هذا المنزل تنتصب على سقف البوابة المقوس صارية في اعلاها حلقة ملفوفة بالقش تقول لعابر السبيل من بعيد ان المنزل خان للمسافرين . وراء الخان ينبسط سهب شاسع مستو بدا رمادى اللون في ضوء القمر . الجياد تسرع لاهثة نحو السهب بعدو مجلجل رتيب في سكون الليل . التقط الرجل الجالس في العربة عصاه ومس بها كتف الحوذى . فتماهلت العربة ثم توقفت عند الخان .

رفع الرجل البطانية عن قدميه ونزل مستندا الى ضلع العربة ، ثم خطا على العشب ، وهو يعرج ، وتوجه نحو المدخل الواطئ . وعندما بلغه التفت الى الحوذى وامره بصوت خافت :

— اذهب . وعد الى هنا في الفجر .

ارخى الحوذى العنان فانطلقت الجياد الى السهب ، بينما امسك الرجل بمقبض الباب وراح يهزه ، ثم مال الى ضلع المدخل البالي وكانه غارق في تاملاته . كان وجهه النحيف شاحبا ، وتحت عينيه المستطيلتين خطوط عميقة ، وتلوح اسفل ذقنه بقعة عارية بين شعر لحيته القصيرة الجعداء . خلع قفازه الايمن على مهل وطرق الباب من جديد .

تهادت خطوات اقدام حافية وانبعث صرير من ارضية المدخل الخشبية ، وفتح الباب قليلا في البداية ، ثم فتح على مصراعيه بسرعة ، وظهرت على العتبة امراة شابة ، هتفت بفرح وانفعال :

— الكسي ! لم اتوقع مجيئك .

ولمست يديه بتهيب وقبلت كتفه .

— اتسمحين بالدخول يا ساشا ؟ سابقى عندك حتى الصباح — قال الرجل وهز رأسه ثم ولج المدخل المغمور بضوء القمر .

سارت ساشا امامه متلفتة ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة فلاحت اسنانها البيضاء منضدة على محيا عاطر مليح .

— رايتك ظهرا عندما اجتزت القرية وظننت انك ذاهب الى ضيعة فولكوفو وستقضي الليلة هناك ، لكنك ، يا سيدى ، عرجت علي . . .

— هل عندك احد من المسافرين ؟

— كلا . — اجابت ساشا وهي تدخل غرفة صيفية ذات جدران ملبسة بالواح خشبية . — توقف عندنا فلاحون بعرباتهم ، لكنهم فضلوا المبيت في العراء — وجلست على سرير عريض مغطى ببطانية مضربة وابتسمت بحنان .

ضوء القمر يتسرب الى الغرفة عبر نافذة صغيرة ، وقد استقر على محيا ساشا ، على الشفتين المرتفعتين بعض الشيء في زاويتيهما ، على الجيد الطويل البارز من فتحة الفستان الاسود ، على الصدر الذى تتململ فوقه قلادة كهرمان رفيعة .

وقال الرجل :

— احضرى نبيذا .

وقف في الظل وبيده قبعته وعصاه . نهضت ساشا برشاقة وخرجت . بينما ارتمى هو على السرير وشبك يديه تحت رأسه . بدا وجهه ينكمش

ويلتوى . استدار على جنبه واحتضن الوسادة ودس راسه فيها .

عادت ساشا تحمل طبليـــة مغطاة بشرشف . وضعت عليها قنينة نبيذ وقنينة خمر سكرى ، ثم صعدت السلم الى الرف العلوى واحضرت طبقا من الجوز والحلوى والزبيب . كانت تتحرك بخفة ورشاقة وهي تنتقل من ضوء القمر الى الظل . اعتدل الرجل متكئا على مرفقه وقال :

— تعالي يا ساشا . — جلست على السرير في الحال من جهة القدمين . — خبريني : لو اهنتك ، لو اهنتك اهانة لا تغتفر فهل ستسامحينني ؟

— تحت امرك يا الكسي بتروفيتش — اجابتـه بصوت مرتعش بعد صمت قصير — لكنني ممتنة لك كل الامتنـــان على حبك لي . — اشاحت بوجههـــا وتنهدت .

ظل الاميـر الكسي بتروفيتش كراسنوبولسكي يتفرس في وجه ساشا في الظلام . وبعد برهة قال بصوت خافت متكاسل :

— لن تفهمي شيئا على اية حال . فرحت لمجيئي دون ان تسالي من اين جئت ولماذا ارقـــد عندك الآن ؟ . في حين ان وجودى عندك في هذه اللحظة امر فظيع . . . اجل ، يا ساشا ، فظيع وشنيع .

— ماذا بك ؟ ! — تمتمت مرتعبة — كيف تقول هذا الكلام وانا استقبلك بكل حب ورغبة ؟ !

— اقتربـي مني . هكذا . . . . — واصل الامير كلامه واحتضن ساشا من كتفيهـــا المكتنزتين . —

قلت انك لن تفهمي ، فلا تتعبي نفسك . هذا المساء تحدثت حتى التخمة مع احد الاشخاص . وكان الحديث ذا شجون .

— مع الاميرة فولكوفا ، اليس كذلك ؟

— بلى . بالضبط . جلست قربها فاخذ راسي يدور باشد من نبيذك . اتذكرها كما في حلم لذيذ . جئت الان قادما منها وخيل الي ان كل شيء لدى على احسن ما يرام . وعندما دخلت كوليفان فكرت : حالمـا اتوقف عند بابك ستسوء حالي . هل فهمت الآن ؟ لم تفهمـي ؟ لا يجوز لي ان اعـرج عليك . حبذا لو فعلت شيئا كيلا آتي اليك .

تهاوت يدا ساشا خائرتين ، واطرقت براسها .

— انت متالمة علي ، يا ساشا ، أليس كذلك ؟

— سألها الامير وجذبها نحوه وطبع قبلة على وجهها ، لكنها ظلت متجمدة كالصخر دون ان تنفتح جفونها اوَ تنفرج شفتاها . فهمس في اذنها — كفاك ، انا امزح .

وعند ذاك تكلمت بيأس وقنوط :

— اعرف بانك تمـــزح ، ومع ذلك اثق بك ، فلماذا تعذبني ؟ لماذا تمزق فؤادى ؟ اعرف انك تتصدق علي بالحب . انـــا امراة فات اوانها ، فاية سعادة تنتظرني ؟ !

في تلك اللحظة اطلق ديك صيحة عالية وراء الجدار . ورفس حصان ناعس خشبة ما ، وفي ضوء الفجر الخافت أخذت تتراءى شيئا فشيئا ملامح وجه الامير النحيف الوسيـــم الموشى بالظلال . عيناه

الواسعتان تسلطان نظرات كئيبة جادة ، وعلى شفتيه تجمدت ابتسامة مريرة .

تطلعت ساشا الى الامير طويلا ، ثم انهالت بالقبل على يديه وكتفيه ووجهه ورقدت جنبه لتدفئه بجسدها المكتنز المنتفض .

٢

على الطرف الآخر من القرية رقد الدكتور غريغورى ايفانوفيتش زابوتكين على تخت فوق رف منصوب عند السقف ، بين الجدار والفرن ، في منزل جديد وسط حوش مهمل مسيج باغصان الصفصاف تكسو ارضه حشائش طفيلية عالية .

ولا يرى من الطبيب ، من تحت ، سوى رأسه . فقد اسند بقبضتيه ذقنا نبت عليه شعر سبط اشقر . وانتشر مثل هذا الشعر في كل جهات الرأس ، ابتداءً من اليافوخ ، واستقر على الجبين والعينين . لم يكن الطبيب قد غسل بعد وجهه المنتفخ من النوم .

ضيق الدكتور زابوتكين جفونه وراح يبصق من التخت الى اسفل محاولا اصابة شرخ في الارضية .

وفي الفسحة بين النافذتين جلس قبالته على مصطبة تحت قنديل من الصفيح قس قميء هادئ تلوح عليه امارات الرضا والقناعة ، وقد وخط الشيب شعره المتهدل الفاحم على العموم . ردنا غفارته يلمعان مما تراكم عليهما من دهون واوساخ ،

ونشأت عليهما طيات كطيات الاكورديون . دس الاب فاسيلي اصابع يده في كم الاخرى وانكمش وجهه وراح يتطلع صامتا الى الطبيب الذى واصل البصاق .

وقال الاب فاسيلي اخيرا :

— الى اى حال وصل هذا الرجل في ثلاث سنوات ؟!

— ماذا ؟ الا يعجبك ؟ — اجابه الطبيب متكاسلا . — أنا متعود على البصاق منذ الطفولة . عندما يشتد الضجر اتسلق مكانا منزويا وابصق من هناك . لا تنظر الي اذا كان ذلك لا يعجبك . واقول لك انه كان عندى مكان محبب ، قرب المستودع ، على العشب الطرى . كانت كلبتنا تلد جراءها هناك . والجراء دافئة تفوح منها رائحة اللبن . الكلبة تلعقها الواحد بعد الاخر والجراء تصأصئ . والله ، ما احسن حياة الكلاب !

— احمق انت يا غريغورى ايفانوفيتش — قال الاب فاسيلي بعد صمت قصير — الافضل ان اذهب .

— لا يحق لك ، يا ابانا فاسيلي ، ان تذهب قبل ان تبعث السلوى في نفسي ، فالحكومة تدفع لك اجرا مقابل ذلك .

— كم عمرك ؟

— ثمانية وعشرون .

— تخرجت من الجامعة ، ولا تزال في ريعان الشباب ، ولديك مهنة محترمة . لو كنت مكانك لصرت اضحك وامرح ليل نهار . اما انت . . . اسفي

عليك . ما فائدتك بافكارك هذه ؟ ما نفع رقادك وبصاقك ؟

– كانت عندى ، يا ابانا فاسيلي ، افكار رائعة – انقلب الطبيب فرقد على ظهره ومد يديه من التخت وطقطق باصابعه وتثاءب – لكن الفودكا . . . لم اتعود عليها .

– اسفي عليك – قال الاب فاسيلي واخرج من عب الغفارة بعناية حافظة سجائر معدنية واشعل ثقابا وطوق اللهيب براحتيه على عادته عندما يشعل الثقاب في العراء ودخن ثم القى بعود الثقاب تحت المصطبة . – صدقني ، لو كان في القرية مثقفون غيرك لما جئت اليك ابدا .

هذا الحوار كثيرا ما يتكرر بين الطبيب والاب فاسيلي منذ ان شب الحريق في مستشفى كوليفان في الربيع . آنذاك سلم الدكتور زابوتكين زمام الامور الى المضمد وقبع في المنزل الذى استاجرته البلدية له موقتا حتى يتم بناء المستشفى الجديد .

كان غريغورى ايفانوفيتش قد باشر عمله قبل ثلاثة اعوام منذ ان عين طبيبا في كوليفان . استولت عليه حماسة العمل آنذاك فاخذ يجوب القرى ويعالج المرضى ، بل ويساعدهم ماديا . كان يخوض الدروب التي يبقبق عليها الروث في فيضانات الربيع او يجوبها في ليالي يناير عندما تنخر الريح الجليدية العظام ويتجمد القمر ميتا فوق ثلوج موات ، ويعرج على الاكواخ الضيقة التي يتصايح فيها الصبيان الجرب ، ويكاد يختنق في الحمامات السوداء – على

السفح – من صراخ الحوامل اثناء المخاض ومن الدخان الخانق ، ويبعث رسائل الاستغاثة الى البلدية طالبا الادوية والاسعافات والنقود ، ويرى ان كل ما يبذله من جهود خارقة يغوص في قعر سحيق من خراب القرى والفاقة والفوضى . ومن خلال ذلك ادرك الطبيب اخيرا انه وحيد مع قنينة من زيت الخروع في قطاع يمتد ستين كيلومترا ، حيث تلتهم الحمى القرمزية الصغار ويبتلع التيفوئيد الكبار ، وانه لن يفعل شيئا بقنينته هذه على اية حال ، فالقضية غير متوقفة عليها . في تلك الاثناء احترق المستشفى ، فحطم الطبيب قنينة الخروع على الارض وتسلق تخته .

كان الاب فاسيلي متألما جدا للدكتور زابوتكين بعد ان شهد ، على هذه الصورة ، عذاب ثالث طبيب في القرية . فصار يعرج عليه كل يوم تقريبا ويسعى على قدر الامكان – بسيجارة او نكتة طريفة – ليس الى بث السلوى في نفسه ، (فكيف تجد السلوى سبيلها الى انسان لم يبق منه الا السخام ؟) ، بل الى تسليته بعض الوقت على الاقل . فقد يبتسم رغم كل شيء .

كف الطبيب عن التثاؤب وانقلب من جديد على بطنه وارخى يده وطلب سيجارة . فرد عليه الاب فاسيلي قائلا بانه اشترى التبغ اليوم من كوربينيف ، ووقف على اطراف اصابعه تحت التخت ورفع حافظة السجائر وضغط على زنبرك خفي فيها .

تظاهر الطبيب بانه لا يتذكر ان هذه الحافظة

المحيرة ذات جيبين ، ففتح جيبها التمويهي الخالي من السجائر . . .

— ماذا ؟ هل اخذت سيجارة فاخرة ؟ — سأل الاب فاسيلي ضاحكا ، فقد اعجبته النكتة كل الاعجاب . — دخن ، اذن ، دخن . هل تعلم باني كنت اليوم عند فولكوف ؟

— يقال ان صاحبك فولكوف وحش فظيع ، دابة من الدواب .

— ابدا ! لا تلق بالا للاقاويل . انه انسان رائع ، وحياته رائعة . . . ولو انك ، يا غريغورى ايفانوفيتش ، نظرت الى هؤلاء الناس جيدا لما رقدت طوال الوقت على تختك . اما ابنته كاتيا ، فهي ، صدقني ، حسناء رائعة من اجمل خلق الله . . . لو كنت رساما لرسمت صورة ماريا المجدلية عنها وهي تبتسم ساخرة امام خطيبها .

— كيف تبتسم ساخرة امام خطيبها ؟ — قاطعه غريغورى ايفانوفيتش بغتة .

— ماذا ؟ الا تعرف ان الرسامين العظام جسدوا هذه الابتسامة الساخرة دوما في لوحاتهم ؟ فالعذراء قارورة الحب والحياة ، تبتسم دوما ابتسامة ساخرة وكأنها ترى ملاكا يشير باصبعه الى بطنها . لا اقول ذلك مازحا ، فلا تضحك . — رفع الاب فاسيلي حاجبيه وراح يدخن وينفث الدخان من انفه ، ثم قال — تلك اذن . . . — وتنهد ولاذ بالصمت وانصرف .

الا ان غريغورى ايفانوفيتش لم يكن يريد ان

يضحك اطلاقا . سحب رأسه الى داخل التخت ورقد وادعا — اغمض جفونه واصطكت اسنانه ، فهو في الثامنة والعشرين لا غير . ثم ان الكلمات التي قيلت صدفة عن ابتسامات العذارى يمكن ان تصعقه كالرعد في وضح النهار .

٣

ضوء القمر ينساب على السماء الزرقاء القاتمة ، وكأنه سيظل على هذه الحال ابد الابدين . يتسرب عبر الجفون المغمضة وعبر الشقوق الى غرف النوم ، الى حظائر الماشية ، الى جحور الوحوش ، الى قاع البركة الذى تندفع منه سميكات مسحورة فتلامس بشفاهها المستديرة سطح الماء .

في تلك الليلة ظل القمر معلقا على شاطئ البركة الذى داسته السنابك . واطل بجناح منير وضاء من وراء الاجمة على طرف بستان آل فولكوف .

انبطح سائس ملتح عريض المنكبين على معطف فرائي قصير مفروش على العشب قرب الماء ، واسند رأسه الى مرفقه ، وعلى مقربة منه غفا صبي على السرج وراح حصانه الرمادى الناعس يهز رأسه ويطقطق بلجامه . اما الخيول الاخرى فهي تقضم اعشاب راعى الحمام واعواد الشيح العالية في المرج المنخفض ، في حين رقدت المهور وابوازها تلامس قوائمها الامامية الممدودة .

وعلى طول الشاطئ تقدم عجوز يرتدى قفطانا

وسار ببطء قادما من صفصافات السد العالية . وعندما اقترب من السائس توقف وظل على وقفته هذه امدا طويلا وكأنه يتطلع الى شيء او يستمع الى احد . . . وقال اخيرا :

– الليلة دافئة .

وساله السائس بتكاسل :

– لماذا تتجول طول الوقت يا كوندراتي ايفانوفيتش ، هل يقلقك شيء ؟ . .

– لا استطيع ان انام .

– تفكر دوما ؟

– نعم ، افكر . . . كل عمرى قضيته محوما في هذه الاماكن ، في البيت وما حوله كما في دوامة . مسحت الارض حتى تعرت صخورها . . . ولذا تجتذبني آثارى القديمة . فهل قرب الاجل ياترى ؟

– انت بحاجة الى الاستقرار والهدوء يا كوندراتي ايفانوفيتش ، الى المعاش .

وقال كوندراتي بصوت كالهمس :

– ثم ان السيد غضب من جديد مؤخرا . فقد وصل الامير اليوم عند الغروب وترك عربته على الضفة الثانية من البركة وجاء بالقارب خلسة ، كاللص ، الى التعريشة ودار هناك حديث بينه وبين كاتيا . . . يا له من شخص لجوج ، بل وخطر .

– ما العمل ، يا كوندراتي ايفانوفيتش ؟ فهو امير . انا واياك بعنا انفسنا ، وعلينا ان نصمت . اما هو فيفعل ما يشاء . يقال انه يودع ضيوفه باطلاق المدافع .

– لا اعترض على ذلك ، ولكن لماذا يتردد عليها ولا يخطبها . الا ترى كيف تغير حالها ! . .

صمت كوندراتي ايفانوفيتش . ونهض السائس على ركبتيه فوق المعطف المفروش فتطلع حواليه ثم نادى الصبي :

– لا تنم يا ميشكا . الخيول ابتعدت !

افاق الصبى في سرجه ونفض رأسه وتمطق ولوح بسوطه . خطا الحصان الرمادى خطوة ثم توقف وتدلت رقبته . وغفا من جديد ، وغفا الصبى ايضا . فالميل دافئ هادئ .

ظل كوندراتي صامتا ، ثم تلفظ بلهجة ذات دلالة «اجل هكذا اذن» ، وجرجر قدميه عائدا الى البستان .

الصفصافة المعمرة التي دمرتها الصاعقة والسياج المضفور والساقية والقنطرة والمماشي واشباح الاشجار – كل ذلك شيء معتاد ، ولكنه كالمفاتيح التي تفتح اقفال الذكريات القديمة وتستحضر الافراح والاتراح ، مع ان الافراح نادرة في الحقيقة .

كان كوندراتي خادما في عهد فاديم اندرييفيتش وفي عهد اندرى فاديميتش ، وهو يتذكر رب العائلة الاول فاديم فاديميتش فولكوف الذى يخشاه حتى في المنام . فقد كان طويل الشاربين مخيفا لا يعرف ضبط النفس . وكان عنده مهرج وقح اسمه ايفان وكنيته «المنخل» ومهرجة حمقاء يستخدمهما خصيصا للسخرية من النبلاء ذوى الضياع الصغيرة . وكوندراتي هذا هو ابن ذاك المهرج من تلك

المهرجة . وقد رضع مع لبن امه الخوف من كل آل فولكوف والولاء لهم في وقت معا .

كان فاديم اندرييفيتش والد الاقطاعي الحالي الكسندر فاديميتش ، من هواة المطالعة وممارسة الكتابة ، حتى انه اصدر كراسا للفلاحين بعنوان «الكادح الفاضل» ، لكنه كان من اشد معارضي الغاء نظام القنانة . ذات مرة استدعى فاديم اندرييفيتش الراعي الاعور فيودور واجلسه على مقعد حريرى وثير وقدم له سيجارا وقال «ها انت الآن ، يا فيودور ، شخصية مستقلة حرة . احييك ، واخبرك بانك معتوق وتستطيع ان تذهب الى اى مكان تريد ، ولكن اذا كنت ترغب في البقاء للخدمة عندى ، فارجوك ان تأمرهم بان يجلدوك في الاسطبل آخر مرة» . فكر فيودور وقال «موافق» .

في عهد اندرى فاديميتش ، والد فاديم اندريفيتش ، كان كوندراتي «صبيا» من الخدم والحشم . وكان سيده كسولا يعاني من الملل ويحب التردد على الحمام ، وغالبا ما يفرط في الشراب هناك في شلة من الضيوف والغواني حيث يفترشون الاعشاب المحشوشة توا وهم عراة تماما . وهناك ، في الحمام ، احرقه خدمه .

اما الاقطاعي الحالي الكسندر فاديميتش فولكوف فهو يختلف عن اسلافه . انه اقل شأنا منهم ، وقد نشأ في عهد تدهورت فيه احوال النبلاء ولم يبق مجال للبذخ والفخفخة .

ربما ليس صحيحا القول بان كوندراتي ما كان

يخشى الكسندر فاديميتش ، فالاصح انه لم يكن يحترمه بالقدر الكافي . ولكنه كان يميل بكل جوانحه الى كاتيا كريمة الكسندر والحسناء الاولى في القضاء .

اجتاز كوندراتي السد وهبط الى المنخفض وعبر سياج الصفصاف الواطئ ومضى في الممشى المعتم الرطب .

الهدوء يعم البستان ، لا شيء سوى طير يتململ احيانا ثم يغفو من جديد على اغصان الزيزفون ، وضفادع الشجر تنقنق بانين كئيب رقيق والسميكات تلبط في مياه البركة .

طوقت اشجار الصفصاف المعمرة البركة البيضوية ، وهي كثيفة خضراء متهدلة الاغصان لا يتسرب ضوء القمر من خلالها . القمر يلعب بعيدا وسط البركة مع طير ينزلق على سطح الماء الزجاجي المتموج برفق ، لعله بطة برية او زاغ لا يقوى جناحاه المنشوران على حمله بعد ان شرق بالماء .

بلغ كوندراتي نهاية الممشى والتفت الى الشمال ، الى التعريشة المطلة على البركة والمائلة بفعل الزمن ، وهي الآن تسبح في الظل .

حملق في الظلام فميز قامة امراة في وشاح ابيض استندت بمرفقها الى الدرابزون . طقطق غصن يابس تحت قدمي كوندراتي فالتفتت المراة على عجل وتمتمت بانفعال :

— آه ، هذا انت يا امير ؟ عدت اذن .

— كلا ، هذا انا يا كاتيا — قال كوندراتي وسعل وتوجه نحو المرسى .

هبطت كاتيا بخفة ورشاقة على الالواح الخشبية الى الضفة . وكانت متلثمة بالوشاح . وقفت امام كوندراتي وقالت :

– انت ايضا لا تريد ان تنام ؟ هجم علي البعوض في الغرفة فلم انم . رافقني الى البيت .

– فلنترك البعوض وشأنه . ولكن لا يليق بالفتاة ان تجئ الى البركة وحيدة في الليل . . . – قال كوندراتي بلهجة متشددة .

توقفت كاتيا امامه :

– ما هذه اللهجة يا كوندراتي ؟ !

– ما العمل ؟ عاتبني والدك اليوم ، وهو على حق ، فهل يجوز التجول في الليل ؟ احكمي بنفسك . . .

اشاحت كاتيا بوجهها وتنهدت ثم واصلت سيرها واذيال فستانها تلامس العشب البليل .

– لا تخبر بابا بانك رأيتني الليلة ، يا عزيزى – همست فجاة ولمست شفتاها خد كوندراتي المتغضن . . .

رافق الآنسة حتى الشرفة التي تنتصب عليها ستة اعمدة متصدعة في بعض الاماكن وبدت قممها زرقاء على بياض في ضوء القمر . انتظر حتى دخلت كاتيا الدار وسعل وانعطف وراء ركن المبنى متوجها الى مدخل الجناح الصغير الذى يقيم فيه وتطل منه نافذة على الشجيرات .

حالما جلس على الصندوق المغطى ببساط من

اللباد تعالى في الدار صوت سيده غاضبا : – كوندراتي ! . .

رسم كوندراتي ، كعادته ، شارة الصليب وهرع برماحة الشيوخ في الرواق الطويل نحو الباب الذى جاءه صياح فولكوف من ورائه .

حالما ادار كوندراتي مقبض الباب تشمم رائحة الدخان . وعندما دخل رأى وسط الدخان الكثيف على بصيص الشمعة الاصفر السيد فولكوف جالسا على السرير في قميص النوم المفتوح على صدره المتهدل المكسو بالشعر ورأى وجهه المحتقن بلون قرمزى . وقد انحنى على وعاء فخارى ينبعث الدخان من جمر فيه . رفع فولكوف الى كوندراتي عينين جاحظتين ناعستين وقال بصوت اجش :

– نهشني البعوض . اعطني عصيرا . – وعندما استدار كوندراتي نحو الباب ، صاح به – سالقنك درسا يا سافل ! لم لا تغلق النوافذ في الليل ؟

– آسف . – اجاب كوندراتي واسرع الى السرداب لاحضار العصير .

شعور مفاجئ

١

ظل الدكتور زابوتكين ، وهو على تخته عند السقف ، يتفحص طويلا بعض الخرق والنفايات واعقاب السجائر ويستنشق الهواء المثقل بالغبار ،

ثم لمس رأسه الذى ارهقه الصداع ونزل من التخت
ببطء شديد وكان بدنه كله ثقيل بلا عظام . نزل
منكمش الوجه وراح يتلمس درجات الفرن برجليه .

وعندما هبط على الارضية شد شرواله وانحنى
على كسرة المرآة المعلقة تحت القنديل . فحدق فيه
منها وجه اصفر مدهن وعينـــان زرقاوان كابيتان
ناعستان ، وشعر متنافر متطاير في كل الجوانب .

— سحنة فظيعـــة ! — قـال الطبيب وانشب
اصابعه في شعره وصففه الى الوراء ثـم جلس الى
المائدة مسندا ذقنه بيده وغرق في تأملاته .

تصادف عند المرء بقايا من افكار يحتفظ بها لما
يأتي من زمـــان ، وهي بقايا مترسبة كوحـل
المستنقعات وعفنـة كالصديد . واذا استطاع ان
يستحضرها من سراديب الروح وينتزعها من نفسه
متحملا آلامها فسوف يفيق ويتطهر كل شيء فيه .
واذا قلبها وداراها ولمسها كالضرس المريض وتنفس
تلك العفونة مرارا وتكرارا واصيب بالم لذيذ هو
الم القرف والتقزز والاشمئـزاز من النفس فسيغدو
شخصا ميئوسا منه ، لان احب شيء لديه ، والحال
هذه ، هو الخسة والبصقة في الوجه .

لم يكن الطبيب راغبا على الاطلاق في مفارقـة
افكاره المترسبة العفنة . فخلال ثلاثة اعوام ترسب
لديه منها الكثير . زد على ذلك ان من الخطر جدا على
النفس الغضة الا تـرى غير المرضى والتعسـاء
المعذبين . خلال تلك الاعـوام الثلاثة مر امام
غريغوري ايفانوفيتش جمع كبير من الفلاحات اللواتي

مزقهن الوضع والولادة والضرب ، وحشد كبير من
الفلاحين الذين اسودت عروقهـم من الفودكـا ،
والاطفال الجرب الذين يتمرغون في الوحل يتضورون
جوعا ويعانون من داء الزهرى . ولذا يتصور الدكتور
زابوتكين روسيا كلها ممزقة مسودة جرباء . وطالما
الحال هكذا ولا مخرج منهـا فليذهب كل شيء الى
الجحيم . واذا كان الوحل والروائح الكريهة في كل
مكان فذلك يجرى بالضرورة ، ولا موجب للتظاهر
بانك آدمي اذا كنت خنزيرا .

وفكر وهو يلوح بيده الهزيلة «حقا . كل شيء
مكتوب ومقدر . لن انتحر بالطبع ، لكنني لن احرك
ساكنا لتغيير الامور . لماذا ذكرت لي ، يا ابانا
فاسيلي ، ابنـة فولكوف ؟ الاجل ان تواسيني لو
اخذت معي هذه الانسة الى التيفوس الطفحي فهل
«ستبتسم ساخرة امام خطيبها» يا ترى ؟ . .»

ضحك الدكتور زابوتكين ضحكة خبيثة ، لكنه
ادرك بانه ليس محقا تماما . .

«لنفترض ان هذه الانسة لم تر شيئا ولا تعرف
شيئا فهي ثمرة المشاتل الدفيئة . . ربما يشفـع
لهـا ذلك في نظرى . . . ولكن القس يثيرني . . .
فاين هي اعمالكم الطيبة ؟ ارني اياها . يولد الشخص
في الوحل ويعيش حياة الخنازير ويموت مشيعـا
باللعنات . . . ولا بصيص في هذا القاع الموحل .
واذا كنت انسانـا شريفا فعلي ان ابصق بنزاهة
وصراحة على هذه الحقـارة التي تسمى حياة . في

البدايـــة يجب ان ابصـق على نفســـي ، على سحنتي . . .» .

بصق غريغوري ايفانوفيتش بالفعل وسط الغرفة ثم استدار نحو النافذة ورأى بزوغ الفجر .

دهش لانه لم يكن يتوقع ذلك باية حال . ثم نهض وخـرج الى الحوش واستنشق عطر الاعشاب والرطوبة النافذ وانكمشت اساريره حتى لكأن هذا العطر قد شوش افكاره . ثم مضى يجرجر قدميه على طول السياج الى الجدول الذي يتلوى في المرج .

السياج يطوق المنزل والحوش من جهتين ويمتد منحدرا الى حيث تنمو صفصافتـان اقتطعت قمـة احداهما ونتأت بدلا منهـا اغصان متنافرة كثيرة ، وانحنت الاخرى على الجدول الضيق حتى كادت تلامس الماء .

كانت السماء لا تزال موشحة بغلالة الليل ، لكن نورا رقيقا انسكب على طرف الارض من جهة الشرق . وعلى خلفية هذا النور لاحت سطوح القش وقمم الاشجار بتقاطيع اوضح .

تعالى صياح الديكة في القرية . ورد عليها ديك في حوش الطبيب . وداعب الصفصافة نسيم مشبع برائحة الاعشاب النافذة فاهتزت اوراقها كالقوارب الصغيرة وانبعث منها حفيف رقيق .

— كـل هذا خداع لا اهميـة له . — دمدم غريغوري ايفانوفيتش وهو واقف قرب الصفصافة يتطلع طوال الوقت الى نجمة ضخمة تتلألأ على ارتفاع غير كبير في المشرق الذهبي الفاتح الذي جعل سماء

الليل تتحول الى رمادية خضراء ولازوردية كالمـاء الرقراق . ذهل الطبيب لهذا المشهد المدهش حتى فغر فاه .

كانت النجمة تذوب متلألئة في لهيب المشرق . وفجأة انطفأت ، فقد ظهر قرص الشمس الساخن من وراء السهب .

تصاعد البخار محوما على الجدول . وانداحت على العشب الضبابي ظلال مائلة الى الزرقة تطاردهـا الريح . ونعبت الزيغان على الاغصان وراء الجدول وغردت الاطيار مبتهجة في كل مكان ، بين الشجيرات والاعشاب . . . وارتفعت الشمس فوق السهب . . .

الا ان غريغوري ايفانوفيتش عنيد ، فقد ابتسم بسخرية واستهانة وضيق جفونه من الشمس وعاد ادراجه الى منزله العفن.

عندما دخل المنزل رأى قنديل الصفيح يسكب ضوءا اصفر على الجدار . ورائحة الدخان تنبعث من كل الارجاء . فكل شيء مهيأ للصداع .

— تفو . يا للشيطان . الجو خانق . لو علقت فيه فاسا لما سقطت على الارض . — دمدم الطبيب وعاد في الحـال الى الحوش فمسح جبينـه وفكر «سأستحم . لا شك انني متوعك» .

٢

ارتجف الطبيب في الماء البارد عندما نط فيه مرتين نافثا الهواء بشخير . فارتدى ملابسه على عجل

ودس يديه الواحدة في كم الاخرى وجلس على جذع صفصاف املس يتطلع الى الشرق .

تعرجات الجدول اللازوردى تختفي بين البردى ثم تنساب من جديد في المرج الاخضر وتمضي بعيدا الى ما وراء اجمة البتولا .

وفي الجانب المقابل لاحت الاوز بيضاء كنتف الثلج على اعشاب الحماض . وفي الماء الموشى بالبخار سبحت فراخ الاسماك وراحت تتحرش بالاشنات . وفي القاع عند القدمين استقرت قرمة تشبه سمكة الجرى المشوربة التي يخشاها الصبيان لانها تنهش الارجل . وبين البردى تتراقص اطيار رمادية تتناغى من حين لآخر .

كان الدكتور زابوتكين يتطلع الى ذلك كله واسنانه تصطك ، بينما اخذت الشمس تسخن وجهه وقدميه الحافيتين .

وفكر في نفسه «هذا يبعث الارتياح طبعا . ولكنه سينتهي قريبا ، فهو مجرد صدفة» . خفض راسه وتصور هذه الليلة بالذات ككابوس مقيت ، افليس الرقاد على التخت الوسخ والهواء الفاسد والصداع الشديد كابوسا مقيتا ؟

وارتعب فجاة لقوقأة الاوز . فقد اندفعت نحو الضفة وذكرها في مقدمة السرب . نشرت اجنحتها البيضاء وقفزت الى الماء الواحدة تلو الاخرى وراحت تعوم محولة رؤوسها باستعلاء ذات اليمين وذات الشمال . .

سيطر غريغورى ايفانوفيتش على تنهدة كادت

تنفلت من صدره (حتى لكان روحه ارادت ان تطلق صرخة ولا يجوز الصراخ) ، ثم راح يتطلع الى الضباب المنبعث من الجدول وهو يرتفع الى الجو .

الجدول طويل كثير الالتواءات والاخوار . وهذا الضباب الشفاف ينبعث من كل مكان ويتجمع وراء الغابة في غيوم بيضاء .

حالما تشرق الشمس ترتفع الغيمة الاولى من وراء غابة البتولا ، وتعقبها ثانية وثالثة على نفس الطريق . وتحوم الغيوم فوق الغابة وكأنها محصورة في عش . وسرعان ما تمتلئ السماء الزرقاء بها فتسبح ببطء في اتجاه واحد كطيور التم وهي تعرف بان عمرها غير طويل . وتنزلق على السهب ظلالها الباردة . وتتغير اشكالها فتبدو بصورة وحش تارة وبصورة دمية تارة اخرى وتظل تلعب على هذا النحو حتى تلطمها الريح وتجمع اشلاءها في سحابة ثقيلة وتغرز سهام البرق في جسدها كي تحبل بالمطر الذى تسكبه على الارض مدرارا وتتلاشى .

— انني مجرد جرو ، انني عنيد وكسول — تمتم الطبيب . — وعلى كل حال ما اروع ذلك . . .

لم يتمالك نفسه فانساق للفرحة حتى ارتجفت يداه ورمشت عيناه بانفعال ، فتوجه نحو السياج وقفز من فوقه واخذ يتلفت باحثا عن شخص طيب مدهش ليحدثه عن ذلك كله .

في تلك الاثناء لاح في الشارع جنب السياج صبية يتدافعون بالارجل ويثيرون الغبار الخفيف ويتشقلبون على الاذرع في حركات بهلوانية متنوعة .

وخلف الصبية سارت فتيات متشابكات الايدى في فساتين قطنية مزركشة ومناديل مبرقشة . وهن ينشدن اغنية لا تتميز بالجدة والروعة . فهي اغنية غير معروفة .

وتبعهن فتيان راح احدهم ، وهو شاب نحيف فارع القامة في سترة باليـــة ، يعزف على ناى من القصب فتنتفخ شفته العليا كالفقاعة . والى جنبه شاب آخر ، قصير القامة ملتوى الساقين ، يرتدى صديريا وسدارة ، وهو يعزف على الاكورديون .

استدار الصبية والفتيات وراء المنزل الواقع في الركن ووراء السياج ، فابتعدت الاغاني والموسيقى . ثم ظهروا جميعا مرة اخرى وعبروا القنطرة البعيدة واختفوا وراء التلـــة ، خلف اعمدة المستشفـــى المحروقة .

– ما اروع ذلك – تمتم الطبيب – ليس هذا اليوم فريدا من نوعه ؟ ! .

اقترب من السيـــاج فلاح وقور في حلة جديدة جميلة بدون قبعة وقد صفف شعره ودهنه . امسك بعود من عيدان السياج ودس جزمته المطلية بالدهان بين تلك العيدان فقد علق بها قش وغبار ، وسأل :

– ماذا ؟ تتنزه ؟

– مرحبا يا نيكيتا . الى اين هم متوجهون ؟ – سأل الطبيب – هل اليوم عيد ؟

– نعم ، اليـــوم عيد العنصرة – اجابه الفلاح بهدوء – عجبا لك يا غريغورى ايفانوفيتش ، اخذت

تخلط بين الايام . الفتيات توجهن لجدل الاكاليل .

لمس نيكيتا عود السياج ليتأكد من متانته وفجأة تطلع في عيني الطبيب وانفرج فمه الذى نبتت حوله لحية صهباء جعداء .

وادرك الطبيب من هذه النظرة المتفهمة المنبعثة من عيني الفلاح الباهتتين بفعل الشمس ومن وجهه الاسمر وبدنه المتين الذى تفوح منه رائحة طيبة ان نيكيتا جاء اليه يوم العطلة ليرى من اى البشر هو وماذا فيه من خبال ، فالقى عليه نظرة وكأنه عجلة ما ، وحدد فورا هوية الدكتور زابوتكين الذى هو ، نيكيتا ، في غنى عنه باية حال ، لانه ، رغم كونه طبيبا متعلما ، لا يستطيع تحديد هوية نفسه ولا يصلح لشيء .

ادرك الطبيب ذلك وضحك . فقال له نيكيتا :

– لي رجاء عندك . تعال معي الى جدتنا فهي تحتضر من زمان ، لكن الجياد كانت مشغولة طول الوقت ، وانا ايضا كنت مشغولا . . . هل ستأتي ؟ استطيع الان ان اشد الحصان الى العربة بسرعة .

– طيب ! هتـــف غريغورى ايفانوفيتش . – اسرع وشده .

وبالفعل شد نيكيتا الحصان بهمة الى عربة جديدة مليئة بدريس طرى وجاء بها الى باب المنزل .

صعد اليها الطبيب بارتياح ومهد لنفسه فرشة من الدريس وجلس متربعا وقال :

– نيكيتا ، اليوم عيد حقا . انت متزوج ، أليس كذلك ؟ هل تحب زوجتك ؟

رفع نيكيتا حاجبيه مستغربا ، وتمطق للحصان فتحركت العربة . كانت جزمته تتراقص قرب العجلة بفعل الاهتزاز على الدرب . وكان الطبيب يهتز على الدريس الندى وقد انطبعت على وجهه ابتسامة عريضة . وراح يتطلع فيما حواليه بارتياح .

عندما اجتازت العربة الهادرة جسر الناحية قفزت الضفادع من جانبيه الى اعشاب السعد ، وهرع البط من تحت الجسر لتصيدها . . .

— ما اكثر الضفادع — قال نيكيتا وغمز بطرف عينه .

خلف الجدول تنبسط مراع ومرج ، ووراءها غابة البتولا . كان نيكيتا يلتفت الى الطبيب بين حين وآخر ويحدثه عن صغائر الامور . ولما كان هذا الاخير صامتا اكثر الوقت ولا يبادره باسئلة حمقاء طفق نيكيتا يتحدث عن شؤون الفلاحة وعما فكر به طوال الشتاء ، ثم قال فجأة بعد ان قلص عينيه الرماديتين الفطينتين :

— ساءت احوال الفلاحين الان . كل شيء يباع بالنقود . فما قيمة الفلاح اذا قيس بالنقود ؟ لم يبق ما يستحق الجهود . فما نفع . . .

تجهم وجه نيكيتا ، ثم انتبه لنفسه في الحال دون ان ينتظر الجواب واشار بالسوط الى طرف الغابة وانفرجت شفتاه من جديد عن ابتسامة ساخرة .

فقد كانت الفتيات هناك يتجولن بين البتولا

ويضفرن الاكاليل من الاغصان ، وكان الصبية يتسلقون الاشجار ، بينما ارتمى الفتيان على العشب منصتين الى انغام الاكورديون . وقال نيكيتا :

— في المساء سيسكرون جميعا ويرتكبون كل الخطايا . كانت الامور افضل في السابق .

خرجت العربة من الغابة الى درب ضيق بين سنابل القمح المتموجة بفعل الريح الدافئة . وفاحت منها رائحة التربة والعسل . وانتشرت الغيوم بيضاء ملتوية كالصوف في كل ارجاء السماء الزرقاء . وامتد الدرب منحدرا في المنخفض تارة وصاعدا على سفح الجبل المتعرج تارة اخرى . وعلى طرف الارض ربضت اكوام جديدة هائلة من الغيوم البيضاء . فهل فيها ما يثير الدهشة ؟ الا ان الطبيب راح يتطلع اليها وكأنه لم يلاحظ وجودها في السابق . تطلع اليها وكأنه تحسس الان بالذات جمالها لاول مرة . وقال :

— انظر يا نيكيتا ، ما اروع هذه الغيوم !

— حقا ، انها غيوم — اجاب نيكيتا وهو يلتفت صوبها . — ولكنها خالية ، فهي ذاهبة لاحضار الماء ، وحالما تعود محملة بالماء تصبح قاتمة . قبل ايام مرت غيمة محملة بالضفادع . . . وضحكنا كثيرا .

قفز الى الارض وسار ازاء عريش العربة وهو يهز العنان فارتقت العربة كثيبا رمليا .

ومن فوق الكثيب تكشف امام انظار الطبيب سهل فسيح تكسوه مربعات فاتحة وخضراء غامقة وصفراء

من سنابل القمح وجناحان فضيان من البركة التي يطوقها الصفصاف كالاكاليل . القرية على هذا الجانب من البركة ، وعلى الجانب الآخر البستان . ووسط الاشجار الجعداء سطح المنزل المطلي بالاحمر .

وقال نيكيتا وهو يشير اليه بالسوط :

— ضيعة آل فولكوف .

فاحس غريغورى ايفانوفيتش بفرحة الحب الدافئة كالريح تمس شغاف فؤاده . وتمنى ان يطير بجناحين الى السطح الاحمر الواسع وينظر ولو لحظة الى ابنة فولكوف ليرى ابتسامتها الساحرة المدهشة .

٣

جدة نيكيتا المريضة تقيم على الضفة الثانية من نهر الفولغا . بذل الحصان المتعب جهدا كبيرا وهو يجر العربة على رمال الشاطىء بين شجيرات صفصاف تكسرت بعض اغصانها وتلوثت بالقطران . واخيرا لاح السطح الباهت لمبنى دائرة الملاحة النهرية وعلمها الذى نقشت عليه الاحرف الثلاثة الاولى من اسمها .

الجو ساكن فلا ريح هناك . والامواج التي خلفتها الباخرة تزحف ببطء نحو الرمال وتهز زورقين مليئين بالماء ومربوطين الى المرسى . سار الطبيب على رصيف المرسى المتداعى ودخل المبنى وجلس وهو يتطلع الى الضفة الاخرى الخضراء الشديدة

الانحدار . وهناك على تلة بين الاشجار ينتصب منزل ابيض تعلوه قبة وفي واجهته اعمدة ، ونوافذه مغلقة دوما بالواح مسمرة افقيا . تلك هى «ميلويه» ضيعة المرحومة الاميرة كراسنوبولسكايا . كان الطبيب قد تعود على هذا المنزل لكثرة مروره به ، فلم يلاحظ هذه المرة ان كل النوافذ مفتوحة وان اناسا يتحركون بين الاعمدة ويبدون من بعيد صغارا كالذباب .

وفجأة ارتفعت امام المنزل غيمة بيضاء وانداحت اطلاقة مدفع على النهر وبعد لحظات ابتعد عن الضفة قارب مسطح ثقيل .

فقال نيكيتا الواقف قرب درابزون المرسى :

— الامير يودع ضيوفه . كأن مدفعيته تقصف الاتراك .

— نعم . فعلا . لم الاحظ ان المنزل مسكون . منذ متى ؟

— من الربيع . فقد جاء صاحبه الامير الاعرج . لو تعلم ما كان يجرى هنا في الفترة الاولى ! كنا نظن بانهم سيحرقون المنزل . يقال ان الامير ينوى الزواج ، ولذا يستهوى العرائس بمدفعه .

عبر القارب المسطح النهر بخط مائل . وكانت المجاذيف بايدى اربعة بحارة يرتدون قمصانا زرقاء وبدون طاقيات . وتهتز على القارب مظلة حمراء تنعكس ظلالها في الماء .

وبعد برهة تراءت رؤوس البحارة الحليقة ووجه فتاة ورجل بدين يرتدى سترة طويلة ضيقة عند

الخصر وطاقية بيضاء بحافة عريضة . اسند الرجل ذقنه الى عصاه وتدلى على جنبيها شارباه الطويلان الاشقران .

كانت الفتاة الجالسة قربه مسربلة بالبياض ، وقبعتها القش تستقر على ركبتيها . وقد طوقت راسها بضفيرتين من شعرها الاشقر . وسكبت الشمس عبر المظلة ضوءا ورديا على محياها البيضوى الرائع الاشم وفمها الطفولي الصغير .

وقال نيكيتا :

— اقطاعي رزين يتمسك بالارض وبتقاليد الاجداد ، لكنه يريد ان يزوج ابنته من الامير . ذلك هو فولكوف على حقيقته .

«تلك هي اذن !» — فكر الطبيب وابتعد عن درابزون المرسى باستحياء وانزوى وراء اكياس الدقيق واحتقن وجهه عن آخره ، ودمدم : — ما هذا الهراء الصبياني ؟ . . — واخذ ينبش باصبعه في احد الاكياس .

تناهت طبطبة المجاذيف . واقترب محمولا بالتيار . وسرعان ما تعالت من القارب صيحة «امسك» ، واجاب ملاح من الرصيف «حاضر» وركض ليمسك بالحبل الذى القى اليه . وارتطم القارب بالمرسى ، وبعد لحظة سمع غريغورى ايفانوفيتش صوتا كالموسيقى «بابا ، انجدني» ، ثم سمع صرخة وطبطبة على الماء .

نغز رعب بارد صدر الطبيب ، فتشبث بالكيس ، ثم هرع الى الدرابزون . . .

كانت كاتيا واقفة في اسفل سلم المرسى وقد رفعت من الجانبين تنورتها المبللة وهي تضحك . اما فولكوف فقد خاطبها غاضبا :

— هل انت عنزة حتى تقفزى بهذه الصورة ؟ !

وصعد الاب مع ابنته الى الرصيف ومضيا الى الشاطىء بلا استعجال واستقلا العربة التي شدت اليها ثلاثة جياد دهم .

التفتت كاتيا صوب المنزل على الضفة الاخرى فلمسته بنظرة رقيقة من عينيها الرماديتين الواسعتين الجاحظتين بعض الشىء كعيني ابيها . وامر فولكوف : «تحرك» ، وانطلقت الجياد في الجمتها المزركشة واقتادت العربة الصقيلة الى ما وراء شجيرات الصفصاف .

اما غريغورى ايفانوفيتش فقد شيعها بنظراته وظل واقفا امدا طويلا يتطلع صوبها ثم عاد الى المصطبة ورأى على الارضية ازاءها اثرا رطبا لحذاء نسوى فابعد قدمه عنه بحذر .

وبعد حين وصلت الباخرة . فاستقلها الطبيب الى اسفل النهر حيث عاشت جدة نيكيتا وقفل راجعا الى البيت في ساعة متاخرة من الليل . وكان خائر القوى ميالا للصمت .

لم يدخل منزله ، بل رقد على صندوق في الدهليز . واستولى عليه النوم في الحال ، ولكن لامد قصير . فقد ايقظه صياح الديك ، وراح يتطلع الى النجوم عبر مستطيل الباب المفتوح ، ثم انقلب

على جنبه ، ثم على ظهره ، واخذ يتنهد ويبتلع لعابه منقبض الاسارير .

ذكريات خبيثة

١

فتح الامير الكسي بتروفيتش عينيه في مقعد وثير امام طاولة الزينة قرب النافذة العالية المرفوعة الستارة . اما النافذتان الاخريان في غرفة النوم فقد اسدلت ستائرهما وكان رقاص الساعة المعلقة فوق المدفأة الجدارية يتكتك متأنيا في الظلام .

لاحت عبر النافذة قمم اشجار البستان ، وعلى مسافة ابعد يتراءى النهر البنفسجي ووراءه مبنى ادارة الملاحة وخمائل الصفصاف والمروج المغمورة بالمياه وبحيراتها المائلة الى الحمرة . ففي مرآتها البيضوية ينعكس الغروب الحزين وسحبه الرمادية . وفي ذلك الاتجاه ، عبر الهضاب والحقول ، يمتد الدرب كخط ضيق لا تكاد العين تراه .

كانت اطراف السحب مصطبغة بلون احمر ينبعث من ضوء المغيب الخابي ، اما الغيوم المعلقة في اعلاها فقد بدت وردية في سماء بلون مياه البحر ، وفي بقعة اعلى تتدفأ احدى النجوم .

تطلع الامير الى هذه المشاهد ولمس باصابعه الباردة خده النحيف الشاحب .

في موقي عينيه زرقة كثيفة ، وعلى وجنته المستديرة تجعدت شعيرات رفيعة من لحيته الكستنائية القصيرة .

لم ينعكس في مرآة الزينة الا مشط يده الابيض وخده وعينه الجاحظة . كان الامير جالسا بلا حراك ، وهو يلقى على نفسه احيانا نظرة في المرآة .

فهو يعرف ان كل وحل هذه الليلة سيثور في رأسه حالما يتحرك ، فيعكر عليه التأمل الهادئ في كل الاشياء الواضحة الشفافة كما لو صنعت من بلور . وكانت افكاره هي الاخرى شفافة كئيبة . تلك هي كآبة الغروب على الانهار الروسية . ويثير المزيد من الاحزان التطلع الى الدرب المسرع نحو المغيب . فالله وحده يعلم من اين يبدأ هذا الدرب واين ينتهي . وهو يقترب من النهر كانما يريد ان يرتوى . ثم يسرع من جديد . ولكن ماذا هناك ؟ . . اتلك عربة تنهب الدرب ؟ لا فرق ، فهي لا ترى بوضوح من هنا .

في كآبة السماء والارض هذه ترتاح نفس الكسي بتروفيتش . ويخيل اليه ان كل ما مضى لا يعنيه ، وكل ما هو آت سيمر به مر الكرام كشبح لا حاجة اليه . بعد حفلات السكر الصاخبة مع الخلان والاصحاب ، وبعد اللقاءات القلقة مع كاتيا في البستان خلال الامسيات حيث يتوق الى لمس فستانها على الاقل بشفتيه ولا يجرؤ على ذلك ، وبعد المداعبات الرقيقة في احضان ساشا ، بعد الافراح والتوبة ، واخيرا بعد ذكريات بطرسبورغ التي يقشعر

لها البدن ، يمسح الامير الاصباغ من وجهه مرة اخرى كممثل متعب ، ويتمتع دائما وابدا بمنظر هذا الغروب الذى يثلج القلب ، بمنظر هذا الدرب .

ولكن ما ان فكر الكسي بتروفيتش بهذا الهدوء والاطمئنان حتى أخذت الافكار المتناقضة تقلقه خلسة وكأنها السنة تجادله . . .

بادرته احدى الافكار قائلة : «انت بارد وحيد كالميت . لم تفعل شيئا غير تدمير نفسك وتدمير الاخرين . فمن هو بحاجة اليك ، انت المخلوق الصغير في مقعدك هذا ؟ . . ربما انت اكثر الناس كآبة وأسى ، واحوجهم الى المشاطرة والحنان . . .» .

وردت عليها فكرة اخرى : «لا تأتي المشاطرة والحنان مجانا» .

وقالت فكرة ثالثة بلهجة مريرة : «الجميع يأخذون منك ويطالبونك ويدمرونك» .

وقالت الفكرة الاولى من جديد : «لم تكن تحب احدا ، ولذا فانت منبوذ الآن ، وقد جفت عروق قلبك» .

— كلا ، لقد احببت ، واستطيع ان احب ، بل اريد ان احب — همس الامير متململا في مقعده .

واضطرب الاستقرار والاطمئنان . في حين بهت الغروب وخبا وراء النافذة ، وداهمته الظلمة من الجناحين .

— يا الهي ، ما اشد ضجرى — قال الامير وضغط براحة يده على عينيه لحد الالم . فهو يعرف

ان الوقت حان الآن ليشتوى في مقعده كما في المقلاة ويتعذب من الخجل ويفكر في بطرسبورغ . . .

لا مفر من هذه الذكريات ، فهي متنبهة دوما ، ولا يرويها الا الخمر والعربدة والليالي الحمراء .

٢

خدم الكسي بتروفيتش في احد افواج الحرس بعد ان نسب اليه قبل ثماني سنوات ، في عام وفاة والديه .

انفق بدون تقتير المبلغ غير الكبير الذى كان معه ، فهو واثق من ان احدا من اقربائه سيموت او ان شيئا سيحدث لا محالة عندما يصرف آخر ورقة من فئة مائة روبل .

وبسبب هذه الثقة يستبعد ان تجد في بطرسبورغ رجلا خالي البال اكثر من الامير الكسي كراسنوبولسكي . النساء معجبات به اشد الاعجاب . وعلاقاته بهن سطحية قصيرة الامد دوما فلا تترك اثرا في نفسه ما عدا الذكريات الطيبة او المسلية .

قضى ستة اعوام من الخدمة في الفوج . وكانت الايام في تلك الاعوام تمر تباعا الواحد مثل الآخر في حياة عاصفة هائجة . ذات مرة انتبه الامير الى نفسه وخيل اليه انه كان يسير طوال هذه الحقبة في رواق واحد رتيب ، وليس امامه الآن غير رواق

مماثل باهت اصم . اثار هذا الاحساس الجديد بالحياة دهشته وأسفه .

وفي تلك الاثناء قابل في صالون الضيافة بمنزل الاميرة ماتسكايا المضجر الذى لم يكن يتردد عليه كثيرا ، امرأة ايقظت فيه على نحو مفاجىء ، كالرعد ، مشاعره واشواقه الغافية .

كان الامير واقفا مع شاب نحيل من السلك الدبلوماسي يستمع الى ارتجالات ونكات سخيفة معلوكة من زمان ، وقد هم بالانصراف خلسة عندما فتح الوصيف الباب المذهب ودخلت سيدة فارعة القوام بتنورة من جوخ ينبعث منه حفيف وعلى كتفيها فرو بنى اشيب ، فجلست مسرعة على الاريكة .

كانت حركاتها سريعة ، لكنها مقيدة بتنورتها . ومن جبينها الواطىء تحت القبعة لاح شعر بلون النحاس . محياها المخملي بعينيه الرائعتين وجفونه المرتخية وانفه الرقيق ينم عن القلق والاكتئاب .

— من هذه ؟ — سأل الامير على عجل .

— آنا سيميونوفنا موردفينسكايا الذائعة الصيت — اجاب الدبلوماسي وقد سالت القهوة من فنجانه على السجادة .

وكان اللقاء الاول الذى ظل الكسي بتروفيتش يتذكره بادق التفاصيل .

عندما قدموه اليها القت عليه نظرة خاطفة بجفون ضيقة وكأنها تقيس مواصفاته .

أخذ الامير ، وقد رن مهماز جزمته وامسك

قبعته بيده المستقرة جنب فخذه ، يبحث عن الكلمات اليسيرة المعتادة دوما ، ولكنها بدت له الان خالية من المعنى .

استمعت اليه آنا سيميونوفنا مشرئبة ، وانتصبت اذنها الوردية بشكل لا يكاد يلحظ . وعلى تنورتها السوداء استقر منديل ابيض يفوح منه عطر متميز لعله عطر الانوثة ، وربما كان هذا العطر يفوح منها بالذات . ثم ابتسمت وكان اللقاء الرسمي قد انتهى . لم يفطن الامير الى ضرورة الانصراف في الحال ، فنهضت بحفيف واستقام صدرها وحيت بعض معارفها ومضت الى صالون الضيافة الثاني مرفوعة الراس باهرة الجمال .

بعد هذا اللقاء امضى الامير بضعة ايام في عالم عاطر رائع ، لا مكان فيه لاى شيء تختلف رائحته عن عطر المنديل على ركبتي آنا سيميونوفنا . وكان بصر الكسي بتروفيتش يغيم وينتفض قلبه لادنى اشارة او تلميح الى ذلك العطر .

كان يجلس في شقته الخالية بغرفها الثلاث في الدور الارضي في منزل بشارع فونتانكا ، قرب الحديقة الصيفية ، ويتطلع شارد الفكر الى الجدران التي اصابت الطلقات بعض مواضعها في حفلات العزوبة . ثم ينهض ليجلس الى طاولة عليها كثير من صور النساء ، ويضطجع على اريكة جلدية ويدخن ويترنم صافرا بألحان من شوبان ، ومن خلال ذلك كله يرى صفحة ذلك المحيا الشاحب والفم الرقيق والعينين اللتين ينبعث منهما الدفء . ولم

يعد يستثيره حتى الجندى القائم على خدمته والذى ينشد في المطبخ عادة اغاني الجنود بصوت انثوى كاصوات الفلاحات .

وعندما تساقط الثلج نتفا كبيرة وراء النافذة الصق الامير جبينه بزجاجها وتطلع طويلا الى البساط الابيض المتموج الهابط من السماء ، وصاح بخادمه فجأة . «اعطنى معطفي وقبعتي . اسرع» .

تلك هي طبيعة الثلج . فعندما يلفع السماء والارض والمنازل ، وتلف النساء معاطفهن ويدفئن الفرو العاطر بدفء الاكتاف والصدور ، وتنفرج الزوبعة الثلجية عن حصان منطلق وذنبه ملتو بفعل الريح ، ثم تبتلعه من جديد بسرعة يتعذر معها على الرائي ان يلاحظ الشخص الجالس في الزحافة الواطئة التي يجرها الحصان ، عند ذاك يتعين عليك ان تقبع في ركن الشارع وتنتظر : من التي ستاتي بها الزحافة فتلمع عيناها السوداوان من تحت قبعتها المشدودة الى وجهها المتورد ؟ عند ذاك يتعين عليك ان تمتطي الجواد وتنطلق به مخبئا وجهك في ياقة معطفك وتفكر : من التي ستصادفها في هذا المساء وتترك عندها فؤادك ؟

سار الامير الكسي بتروفيتش على الكورنيش بخطى متسارعة وقد فتح ازرار معطفه الفرائي . كان الثلج يذوب على خديه ، ورنين مهمازيه العذب يداعب اذنيه . توقف على جسر الارميتاج وادرك بانه سائر في اتجاه منزل الاميرة ماتسكايا .

هز كتفيه واطلق ضحكة ساخرة وتطلع الى ما حواليه .

حجب الثلج الكثيف نور الفوانيس واستقر على كل الافاريز والتماثيل وغطى الجرانيت القاتم بوسائد بيضاء . كان الشارع خاليا من المارة . ونوافذ القصر معتمة ، والحارس يقف متجمدا عند المدخل وقد التف بمعطف خشن من فرو الضأن ، والتصقت البندقية بجنبه .

وفجأة دوت صيحة ومرق حصان ادهم بقوائم سريعة متباعدة عبر جسر الارميتاج وهو غارق في الزبد والثلج . ووراء ظهر الحوذى العريض في الزحافة الضيقة جلست آنا سيميونوفنا مائلة الى الامام في فرو السمور القاتم . . .

وضع الامير يده على قبعته القندسية العالية وظل على هذه الحال يحدق في الزوبعة التي ابتلعت الزحافة والحصان . انزلق المعطف من على كتفيه فتكشفت الاشرطة الذهبية على بزته .

ونخر البرد عظامه ولسعه حتى الفؤاد . . .

في اليوم التالي قام الامير بزيارة الى آل موردفينسكى . اوضح للزوج متلعثما محمر الوجه بانه يتشرف بتقديم آيات الاحترام الى آنا سيميونوفنا التي التقاها عند الاميرة ، وظل اثناء تلك التوضيحات ينتظر ان تاتي هي من احدى الغرف . استمع موردفينسكى الى الامير ببرود ورفع حاجبيه مستغربا دون ان يتطلع اليه . كان بدينا طويلا محدودب الظهر . القى الامير نظرة على وجه الكالح بانفه النافر

وشاربيــه المتهدلين ، وتصوره منكمش الاسارير
منقبض النفس بعد انصراف الضيف ، لعلمه بضرورة
رد هذه الزيارة التي هو في غنى عنها .

الا ان موردفينسكي لم يرد الزيارة . انتظره الامير
عبثا طوال اسبوع ، وعزم على اهانته في اول مقابلة
واستدراجه للمبارزة . . .

وبعد فترة قابل آنا سيميونوفنا في باب احــد
المنازل عندما كان خارجا منه . سلطت عليه نظرة
من عينيها الزرقاوين وابتسمت ابتسامة ساخرة .
ظل واقفا وكأن قوة جبارة سمرته في مكانه .

ثم بحث عنها طوال شهر ونصف في الصالونات
وصالات الرقص وفي الحفلات وصلوات المغرب في
كنائس المجتمع الراقي . لم يكن يتصور ابدا بانه
يمكن ان يتألم الى هذا الحد . تعود التفكير فيها دوما
وبشكل ممض كما يفكر المرء في المرض . وعندما
يدخل صالات الضيافة كان يعرف مسبقا ، ودون ان
يراها ، هل هي هناك ام لا . وعندما اقتربت منه ذات
مرة من الخلف بصورة مفاجئة ارتجف واستدار على
عجل واتسعت حدقتا عينيه . .

فسألته :

— تخاف مني ، أليس كذلك ؟

كانت تلك هي كلماتها الاولى التي لا تمت بصلة
الى لغة المجتمع الراقي . . .

لعل آنا سيميونوفنا تعيره اهتمامــا اكثر من
الاخرين ، بيد انه كان يحتقر نفسه ويعتقد بانه ليس
اهلا لها . فلم يعد يفرح لمشاعره ، وهي تقيده

وتلسعه وتفتت كيانه . ليس عبثا ان يقول المثل
الشعبي : الحب ثعبان . . .

آنذاك اعترف الامير بكل شيء فجأة (كعادتــه
دوما) لضابط معرفته به قليلــة ، لكنه من الذين
يترددون على آل موردفينسكي . . . استمع اليــه
الضابط باهتمام ، وهو يعض شاربيه ، (وكانــا
جالسين في حانــة يعوى فيهــا الغجر الرومانيون
فيشوشون عليهما الحديث) . وفي اليوم التالي نقل
الضابط كل ما سمعه منه الى آنا سيميونوفنا .

في تلك الامسية المشهودة تقابلا في احدى الحفلات
الراقصة . كان الكسي بتروفيتش الذي غدا نحيفا
رزينا قد اندس بين البزات العسكريــة وبدلات
الحفلات وفساتين النساء وهو ينظر شزرا ويطنطن
بمهمازيه وينحني محييا ليشيح ببصره في الحال ،
ويبحث عنها جادا وكأنه يخشى الا يتعرف عليها او
يخطىء في معرفتها .

وكانت هي واقفــة قرب احد الاعمدة في فستان
بسيط مفتوح من الحرير الاخضر ، وقد نقشت على
اذياله وردة كبيرة وردية اللون .

— لي حديث طويــل معك ، — قالت آنــا
سيميونوفنا للامير عندما لمست شفتاه يدها ، لكنه
لم يسمع شيئا ولم ير شيئا . . . كان الامر صعبا
جدا عليه ، فهو مرتعب وفرح في الوقت ذاته . وتمتم
بصوت خافت .

— لا تغضبي علي .

اجتازا الصالة ومضيا الى الحديقـــة الشتوية .

جلست آنا سيميونوفنا على اريكة صغيرة قرب حائط ملبس بصخور ناتئة . . . الصخور والنتوءات مكسوة باللبلاب ، ومن فوق تتدلى خيوط النباتات المتسلقة . وعلى جانبي الاريكة تنتصب نخلتان حتى السقف الزجاجي . والضوء يتوزع متساويا بلا ظلال في كل الارجاء فينير الخضرة والنافورة التي ينبعث منها خرير ، كما ينير كل بدن آنا سيميونوفنا النحيفة الغاضبة . انطبعت على شفتيها بسمة ساخرة وضربت راحة يدها بالمروحة ثم قالت :

— سمعت انك تكلمت عني بما لا يليق ، فهل صحيح ما سمعته ؟ تنهد الامير واطرق برأسه ، بينما واصلت آنا سيمينوفنا كلامها :

— أنت لا تجيب ، الا يعني ذلك انه صحيح ؟ . .

انفرجت شفتـــاه الجافتان بعسر عن تمتمة غير مفهومة . . .

— ماذا ؟ ماذا ؟ ! — تساءلت واضافت فجأة بصوت خفيض على غير المتوقع : — الا ترى باني لست زعلانة جدا منك ؟ !

خيل اليه ان هذه الكلمات تنطوي على السخرية وعلى المشاطرة الانثوية الخالصة . فبهذه الطريقة يسهل علاج الاكتئـــاب . واختلطت افكاره ، واحس بانه سيخل باللياقة ، وعند ذاك سيضيع كل شيء .

الا ان موردفينسكى دخل الحديقة في تلك اللحظة وراى الامير فانقبضت أساريره وقال لزوجته :

— وصلتني برقية . سارتحل .

فاجابت آنا سيميونوفنا .

— صحيح ؟ لكنني لا أقرأ برقياتك . سيوصلني الامير الى البيت .

انحنى موردفينسكى وانصرف . كان في كلمـــة «الامير» القصيرة وعد . . . تأبطت آنا سيميونوفنا ذراعه ودخلا صالـــة الرقص . وهناك انتشى الامير فجأة فحدثها عن الايام الاخيرة وكيف قضاها . وكانت هي تحرك حاجبيها بعض الشيء عندما يحدق في عينيها باصرار .

غادرا الحفلة في الثالثة بعد منتصف الليـــل . وعندما صعدا الى السيارة رفعت آنـــا سيميونوفنا معطفهـــا الفرائي الرمادي وكشفت عن ساقها حتى الركبة في جورب ابيض لاحت بشرتها من خلاله . . . واغمض الامير عينيه . وعندما جلس ازاءهـــا على المقعد الوثير المتقافز خيل اليه انه رآها كلها من الجورب الابيض حتى عقد الماس على جيدها ، ولاذ بالصمت ومال الى الوراء واحس بان عينيها الباردتين اللامعتين بضوء فانوس الشارع المسرع نحوهمـــا تراقبان كل حركاته وسكناته . . .

واخيرا أثقل الصمت عليهما لدرجة لا تطاق . فدس الامير اصبعه في ياقته الفرائية عند الرقبـــة وسحبها فانفرطت الابزيمات والازرار على بزته .

— لا داعي للانفعال ، — قالت آنا سيميونوفنا ومسحت بيدها في قفازها الابيض الزجاج الذى عتمه البخار ثم اضافت بصوت خافت : — سأسمح لك بكل شيء . . .

هل كان ذلك نزوة من نزوات آنا سيميونوفنا ؟ ام انها تمادت جدا في لعبتها ، لكنهما ظلا حتى الخامسة صباحا ، في السيارة اولا ، ثم في شقة الكسي بتروفيتش ، يلاطفان بعضهما البعض دون توقف . . .

حالما دخلت آنا سيميونوفنا غرفة نومه قالت مندهشة : «ما اضيق هذا السرير» . وكانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي قالتها طيلة ذلك الوقت .

في غرفة النوم المضاءة بقنديل معلق امام الايقونة المذهبة القت على المقاعد والسجادة معطفها وفستانها والبستها الداخلية المعطرة . لمس الامير هذه الالبسة مترنحا كالثمل ثم رقد باستعجال على الوسائد من جديد وهو يتطلع بجد الى المرأة اليافعة التي بدت اكثر بهاءا وروعة في الضوء الخافت ، ولكي يتأكد بان ذلك ليس حلما ، طبع على شفتيها بجفون مغلقة قبلة انسته نفسه .

غيرت تلك الليلة مجرى حياة الامير . فقد ذاق طعم الالم والفرحة المنقطعة النظير وفقد ارادته . وفي كل ساعة من اليوم التالي كان يتوق بمزيد من التعطش الى تكرار ما حدث . . . ولو استدعت الضرورة ان يعمل عندها حوذيا او وصيفا لوافق في الحال . . . ولصار يلمس حاجياتها ويتطلع اليها وينصت الى كلامها ويقبل المقعد الذى تجلس عليه .

بيد ان الامير لم يصبح حوذيا ولا وصيفا . اما آنا سيميونوفنا فلم تحدد مكانا او موعدا للقاء جديد .

انقضى النهار وانقضت ليلة مسهدة ، وتبعها نهار مشبع بالقلق . . .

وفي المساء اقيمت في جمعية النبلاء سوق خيرية . حالما ولج الامير قاعة الجمعية الفسيحة لمح آنا سيميونوفنا في كشك المبيعات .

كانت تبيع مطرزات فلاحية رخيصة . وقد وقف الى يمينها زوجها ، والى شمالها استند الدبلوماسي النحيل الى رف الكشك وبيده نظارته المنفردة .

عندما اقترب الامير من الكشك وانطبعت على محياه ابتسامة عريضة نور كل شيء حواليه وكأن شمسا اشرقت هناك . . . اما آنا سيميونوفنا فقد اكفهر وجهها وتجهم حالما وقع بصرها عليه ، فغضت الطرف واستدارت نحو الفتى النحيل . وتعسرت انفاس الكسي بتروفيتش . . . فانحنى محييا ، لكنها لم تمد يدها اليه . ورد زوجها التحية على مضض .

امضى الامير المساء كله متجولا في السوق الخيرية بين الزحام يشترى حاجيات لا داعي لها ويحملها معه ثم يتركها على رفوف النوافذ ، وبعد كل دورة يقوم بها هناك يتوقف على مسافة من كشك المطرزات . حجبت جمهرة من الضباط آنا سيميونوفنا ، وكانت ضحكاتها تتهادى اليه . وقبل ساعة من اغلاق السوق هبط الى مشجب المعاطف ووجد معطفها . وعندما ظهرت على السلم متأبطة ذراع زوجها اقترب منها دون ان ينظر اليها كيلا يرى عينيها الباردتين وطفق يتحدث عن مبيعات المطرزات . . . لم تجبه بشيء . وضع البواب

جزمتها القصيرة على الارضية واخذ يساعدها في ارتداء معطفها . انحنى الامير على الجزمة الرمادية وراح يساعدها في ارتدائها بعد ان ازاح بحذر طرف معطفها وهو عارف بان تلك فعلة لا تغتفر . كان راسه يقترب اكثر فاكثر من الجورب الشفاف الازرق فلمس ساقها بشفتيه على عجل ونهض محتقن الوجه ورأى موردفينسكى يرتدى معطفه وقبعته ويتطلع الى قدمي زوجته بابتسامة ملتوية غريبة . . .

تلك كانت بداية الكارثة الفظيعة التي ترك الامير الفوج على اثرها وقبع في ضيعة «ميلويه» التي ورثها عن جدته كراسنوبولسكايا بعد ان توفيت هذا الربيع في مصح للمياه المعدنية في المانيا .

بتلك الكارثة انتهى شباب الكسي بتروفيتش ، وهو يتصور الان ان هذه الحياة المملة الوهمية لا مفر منها . ولعل حبا آخر ينقذه ، لكنه يحس بان قلبه ممزق لا يكاد ينبض بالحياة . ولكي يحب مرة اخرى لا بد ان يولد من جديد .

٣

كان الامير يدعو ضيوفا بعينهم كل مساء تهربا من البقاء وحيدا مع تلك الذكريات الخبيثة المسمومة . فيتقاطر عليه في الغسق الاخوان رتيشيف في عربة خفيفة بعجلتين والعجوز اوبرازتسوف في عربة مشبكة السقف باربع عجلات واخيرا سوروبا الذى يصل بعد الجميع في مركبة صغيرة على النمط الانجليزى ، وهو

ابن تاجر كثير الاسفار . اجتمعت هذه الشلة اليوم ايضا .

صعد الوصيف في الموعد المحدد الى غرفة نوم الامير وفتح الباب قليلا فرآه وقد استقر رأسه على رف النافذة .

لم يسمع الامير في الحال وصيفه يدعوه لتناول طعام الغداء ويخبره بوصول الضيوف . عبث التيار المنبعث من الباب المفتوح بشعره ، فالتفت وهو يضيق عينية على نحو مؤلم في ضوء الشمعدان المائل اللهيب بيد الوصيف ، وقال :

ـ فليتناول الضيوف الطعام .

جرت العادة على تناول طعام الغداء المتأخر في الصالة الكبرى . وعلى طول جدرانها الاربعة ينتصب على مسافة معينة من كل جدار صفان من اعمدة مستديرة تشكل ممرا هناك ، ووراءها ست نوافذ تطل على البستان ، اما الجهة المقابلة فعليها نوافذ وهمية بمرايا بدلا من الزجاج . وبين الاعمدة رصفت ارائك صغيرة بدون مساند للظهر . . .

عندما دعا الوصيف الضيوف لتناول الطعام نهض من هذه الارائك الاخوان رتيشيف وسوروبا واوبرازتسوف وهم يتنحنحون ويفركون ايديهم ، ثم جلسوا الى المائدة وازاحوا بمرافقهم الصحون والكؤوس البلورية على السفرة الناصعة البياض . الاخوان رتيشيف يجلسان دوما جنب بعضهما البعض ، وظهراهما العريضان مشدودان في سترتين طويلتين رماديتين ضيقتين عند الخصر بازرار

مستطيلة . وكلاهما بشاربين أشعثين وانف افنط ووجه مكتنز مترهل وعينين مستديرتين واسعتين .

جلس الاخوان خجلين ينتظران حتى يتناول سوروبا اللقمة الاولى ، فقد ارتمى على كرسي رب البيت في آخر المائدة . اما اوبرازتسوف الاصلع فقد دور شفتيه المعسولتين بشكل حلقة وراحت عيناه الشائختان الغائمتان بسبب داء النقرس تنبشان محتويات المائدة .

مطط سوروبا شفته السفلى وامر باحضار شمبانيا من النوع الذى احتسوه بالامس . . . يرتدى سوروبا بدلة سموكن وقد علق على صديريه منديلا احمر كما لو كان اثناء القربان المقدس .

وقال اوبرازتسوف للوصيف :

– نسيت يا عزيزى أن تحضر نبيذ الكرز العسلي ، طلبت منك أن تحضره كما في يوم أمس ، الا تتذكر ؟

– سمعا وطاعة – أجاب الوصيف عابسا .

احضر صبى المطبخ الحساء في تلك اللحظة . وقال ايفان رتيشيف واخوه سيميون متأملين :

– الافضل أن نشرب الفودكا العادية ، فالبطن لا يقرقر منها كما يقرقر من الشمبانيا . . ناولني ، يا سيميون ، الفطر المملح واملأ الكأس . . .

سوروبا يأكل قليلا ، وهو صامت يطرف بجفونه الخالية من الرموش ، فقد احتفظ بنكاته حتى يجيء الامير .

أما اوبرازتسوف فقد علق على صدره فوطة

نظيفة وانهمك في تناول الحساء بشهية ، والغضون المنتفخة تتراقص تحت عينيه . وأومأ برأسه الى الاخوين وقال :

– معهما حق . فالمدعي العام عندنا أصيب بمرض خطير بسبب الشمبانيا ، وانتفخ بطنه لدرجة لا تطاق . ولكن لا يجوز طبعا الافراط في شرب الفودكا وحدها . . .

اطلق سوروبا ضحكة اشبه بالصرير وهو يعجن من الخبز كرية لينة . ووضع الاخوان رتيشيف شوكتيهما وفغرا فميهما واطلقا هما أيضا ضحكة كخرير الماء عندما ينسكب من البرميل .

وواصل اوبرازتسوف كلامه :

– كان اخي منكتا حقا . ويصادف أن يذكر نكات تجعل السيدات ينصرفن . . .

احضر الوصيف والصبي اطباق الطعام والنبيذ . وحومت حول الثريا فراشات اخذت تتساقط على المائدة باجنحة محترقة . أكل الضيوف الطعام صامتين ، وكان ايفان او سيميون يطلقان احيانا زفرات ثقيلة بسبب الافراط .

واخيرا تهادت وراء الجدار الخطوات المتنافرة المعروفة . مسح سوروبا فمه بالفوطة على عجل واخرج من جيب صديريه النظارة المنفردة والصقها فوق محجر عينه المستوى . ودخل الامير . كانت عيناه محتقنتين . وقد سرح شعره الرطب الى الخلف توا . ورأى سوروبا ، ربما للمرة المائة ، في حركاته المتأنية المكبوتة وفي تفصيل بزته اناقة يصعب فهم

سببها . وفي محاولة للاقتداء به اقتنى سوروبا مرايا ثلاثية وطلب بزات والبسة داخلية من لندن ، وطرد جميع اقربائه من التجار السخفاء كيلا يفسدوا عليه اناقته .

وقال الامير وهو يحييهم :

— اوه ، لا تنهضوا يا اصدقائـــي ، لا داعي لذلك . آمل بان الطباخ قد صحح غلطة امس .

اصطفقت اقدام الاخوين رتيشيف تحت المائدة بباعث من حسن التربية . وامتد عنق اوبرازتسوف ليتبادل القبل مع الامير ، أما سوروبا فقد قفز ولم يتمالك نفسه وربت على كتف الامير .

جلس الكسي بتروفيتش عنـــد ركن المائدة وتناول قطعة من الخبز وبدأ يأكل . صبوا له نبيذا احتساه بتعطش ، ثم استند الى مرفقه واصابعـه تلامس وجنته .

— حدثونا عما استجد من امور . ارجوك صب لي نبيذا .

— الجديد الدائــم هم أنت نفسك ، — قال سوروبا . — وبالمناسبة فقد جئت بنادرة . . .

مال على اذن الامير وأخذ يحدثـــه وهو مختنق بقهقهته . ابتسم الامير ، وضحك الاخوان رتيشيف ثم تجعد جبيناهما في محاولة لتذكر شيء ممتع ، ولكن لم يحضرهما شيء غير الكلاب والماشية التي عاثت بالاعشاب في المروج والحصان الذى التوت احدى قوائمه فأخذ يعرج ، اى كل ما لا يصلح لمقام هذا المحفل الرفيع . وقال اوبرازتسوف :

— اذا كان الكلام يدور عن البنات فهـذا من اختصاص اميرنا العزيز . . . فليتحفنا اذن .

— أجل ، أجل ، من كل بد — تصايح الضيوف

— فليحضر لنا الامير بنات مليحات !

الافضل ان نذهب الى كوليفان يا سادة !

— هيا الى الخان ! الى ساشا !

— ما هكذا يفعل الاصدقاء . يتمتع هو بكل شيء من وليس من نصيبنا الا القشور . كلا ، فلنذهب الى كوليفان ، الى الخان !

قطب الامير حاجبيــه ، وأخذ الاخوان رتيشيف يضربان الارضية بجزمتيهمـــا الضخمتين ويصيحان والعرق يتصبب منهمـــا . «الى الخـــان ! . الى الخان ! . .» ومال سوروبا على اذن الامير هامسا . «عيب يا امير ، والله عيب» . ومسح اوبرازتسوف صلعته بالفوطة وتدلى طرف لسانه من فمه فقد ذاب وارتخى لذكر الخان . كانوا ثملين جميعا . اطرق الامير مستندا الى المائدة بمرفقه . فالنبيذ الذى شربه ، اضافة الى سهرة البارحة ، قد خدره كسحابة مسكرة خانقة . وفكر : «ينبغي ان اسكر اليوم اكثر من اى وقت مضى» ، ونهض . اسنده سوروبا من ساعده ، فابتسم وقال :

— فلنذهب الى البستان .

فتح الوصيف ابواب الشرفة في الحال فاندفع الى الصالة نسيم المساء ، وهبط الضيوف على درجات السلم الى البستان الرطب .

الممشى الرملي يمتد من الشرفة حتى المنخفض .

وعلى حافة المنخفض يقوم درابزون يكاد لا يرى من وراء شجيرات العليق الكثيفة ، وقد سلمت مزهرية حجرية واحدة فيه .

ومن نوافذ الصالة الست ينساب الضوء على هذه المزهرية وعلى عدد من قوائم الدرابزون بين الاوراق وعلى الاشجار والممشى . وفى أسفل الضفة العالية لمعت أضـــواء التحذير الحمراء والصفراء على نهر الفولغا العريض الذى لا يكاد يرى من هنا .

– يجب اقناع الاخوين بان يتصارعا ، – همس سوروبا في اذن الامير الذىاسند خده الى المزهرية وراح يتطلع الى الفولغـا ويفكر : «اليـوم ، اليوم بالذات ، هل يعقل ان الشجاعة ستخونني ؟» .

واجاب الامير :

– اقنعهما .

لم يكن السكر يستولى عليه دفعة واحدة . في بادئ الامر يشتد حذره وكانما يتوجس شيئا ، ثم يكتنفه الحزن حتى تكاد الدموع تتفطر من عينيه ، وتغدو كل الاصوات واضحة وكل الامور مفهومة ، وكل شيء يرزح تحت ثقل النهاية المحتومة . ولكن على حين غرة ، وكما يشق البرق الغيوم ، يخزه الم حاد يبدأ من القلب ويخترق الظهـر الى باطن القدمين الباردتين ، فينتفض ، وعند ذاك تبدأ العربدة .

عندما كان الامير واقفا قرب الدرابزون شرع سوروبا ينغز الاخوين بكلمات كالشـوك ليؤلب أحدهما على الآخر . فصار ايفـان رتيشيف ينظر شزرا الى اخيه سيميون .

اشتهر الاخوان رتيشيف في القضاء كله بقوتهما ، وكانا يتحديان في اسواق الخيل بين حين وآخر راعيا من التتر ويستدرجانه للمصارعة بين العربات في جمع من الاقطاعيين والفلاحين . وعندما لا يجد الاخوان احدا يصلح للمصارعة ينازلان بعضهما البعض .

همس سوروبا وهو يستحث ايفان :

– سيميون سيلقيك أرضا .

– طبعا سالقيه رأسا ، – عقّب سيميون ، بينما هم ايفان بالهجوم على اخيه الذى رفع صدره وتثاقلت انفاسه .

– جبناء ! – هتف سوروبا بعد ان سدد دفعة شديدة الى ظهر سيميون ، وغمز لاوبرازتسوف الذى اخذ يدفع ايفان بكتفه .

نخر الاخوان واشتبكا فامسك ايفان بسيميون من ابطيه .

– خلافا للقواعد ، – هتف سيميون وبرك ورفع اخاه الذى فرفر بقدميه . ثم اشتبكا وتلاحمـا واستدارا لاهثين . وكان سوروبا يحوم حولهمـا ويصفـــق . انزلق الاخوان متراجعين حتى طرف المنخفض . ودس سوروبا رجله كي يتعثرا بهـا فاستطاع سيميون ان يقلب ايفان ، وهوى الاثنان على الارض وتدحرجـا نحو المنحدر وهما يزأران ويحطمان الشجيرات في طريقهما .

قهقه الامير وانزاح الهم عن فؤاده . وامسك بطرف المزهرية الباردة وهو يقهقه .

هرع الوصيف والبستاني في الحال واحضرا حبلا ،

وتم سحب الاخوين من المنخفض وهما يلهثان بمرح وفرفشة . واندفعا حالا لاصطياد سوروبا الذى فر منهما بجزمة قصيرة صقيلة على العشب البليل وهو يطلق صيحات حادة بصوته المتخشب . . .

في تلك الاثناء كانت المركبة جاهزة عند المدخل . وضعوا عند الاقدام صندوق النبيذ واجلسوا عليه الاخوين ظهرا لظهر . واندس اوبرازتسوف في المقعد بين الامير وسوروبا . وازاح الامير قبعته على جبينه وصاح سوروبا : «هيا» . وانطلقت الجياد بالمركبة صاعدة في اتجاه كوليفان .

٤

كانت ساشا واقفة وسط الغرفـــة النظيفة ، آنذاك ، والمشبعة بدخان التبغ الان ، وقد وضعت يديها العاريتين حتى المرفقين تحت نهديها الناتئين في أعلى المئزر الاخضر.

التفتت الى الامير بمحياها المليح وحاجبيهـــا المخمليين المستقيمين وغمرته بحب يتدفق من عينيها السوداوين . كانت شفتاهـــا منفرجتين بعد نغم في اغنية انشدتها توا . والان تلاحقت أنفاسها بعض الشيء وتململ عقد الكهرمان على جيدها .

– استمرى يـــا ساشــــا ، غني ! – صاح الضيوف . فابتسمت ساشا واومأت برأسها ثم غنت بصوت خفيض وكأن فؤادها ينتحب في صدرها :

يا شيحا مرا ،
يا عشب العلقم ،
لم ابذر حباتك
لم تزرعك يداى ،
يا عشب الشيطان ،
لم جئت الينا ،
دمرت البستان ؟ . .

استند الامير بمرفقيه الى المائدة غير المطلية وامسك رأسه الثمل بيديه وراح يستمع باهتمام . اخذ اوبرازتسوف يذرع الغرفة جيئة وذهابا قرب ساشا ، ويطقطق باصابعه ، طربا ، وقد اسبـــل جفونه . وجلس الاخوان رتيشيف على المصطبة وفتحا ازرار سترتيهما . اما سوروبا فقد مد ساقيه ودس يديه في جيبي سرواله وأخذ يتمايل .

واختتمت ساشا اغنيتها . فبادرها الامير قائلا بصوت اجش :

– وتلك الاغنية ، هل تذكرين يا ساشا ؟

– تلك اغنية سيئة كاذبة – قالت ساشا . – لا أحبها . واذا كنت ساغنيها فمن أجلكم فقط . . .

اسبلت رموشها وتنهدت وانشدت بصوت كئيب :

المصيبة في بطرسبورغ ،
لا في موسكو ،
في شارع ميشانسكايا
ذبحت الزوجة زوجها
بسكين حادة .

– ساشا ! – صاح الامير مكررا الكلمـــات

الاخيرة من الاغنية – ما افضل هذه الكلمات «الساعد الايمن على رف النافذة ، والدموع الساخنة تتساقط من النافذة» ، وخلاص . أما الحبيب فينتظر هناك ، تحت النافذة ويضحك على الزوج العجوز . انشدينا الآن الاغنية الاخرى التي فيها تفاصيل مدهشة . . .

شدت الحبل
على الرقبة
ومدت طرفه للحبيب
عبر النافذة .

– اغنية تناسب المقام تماما ، خصوصا اليوم ، وكأنها نظمت ولحنت من اجلنا . هيا يا ساشا . . .

وانشدت ساشا مرتعبة بكل جد :

عقدة متينة
لن تنقطع ،
على رقبة العجوز
لن تنقطع .
شخر المسكين
كما في المنام ،
فرفرت قدماه
كما لو داسهما ابليس .
تشنجت يداه
وكشر عن انيابه
كأنه يرقص
ويبتسم .

– الافضل ، يا الكسي بتروفيتش ، ان اغني راقصة ، – قالت ساشا معترضة على عجل .

ازاح الامير الطاولة واخذ يطبطب بقدمه ويصفق وحومت ساشا منشورة اليدين وهي تترنم باهازيج من الشعر الشعبي .

اتسعت تنورتها القطنية الحمراء من الاسفل فصارت كالناقوس وتراقصت قدماها بجوارب بيضاء وجزمة جلدية قصيرة . . .

وراح اوبرازتسوف يحوم حول ساشا بخطوات قصيرة متلاحقة ويصيح : «عظيم ، عظيم !» . أما ايفان رتيشيف فقد اشتد حماسه وفقد هدوءه فامسك جنبه بيده وراح يرقص مقرفصا واذيال سترته تتطاير . وسحب سوروبا المنديل من على راس ساشا مقهقها . فصاح به الامير :

– لا تمسها يا سافل !

كان راس ساشا الصغير بضفائره السوداء يدور على رقبتها المكتنزة ، كما يدور عباد الشمس نحو الشمس . وكان الامير هو الشمس . وكان الامير هو الشمس . جلس على المصطبة شاحبا ثملا بشفتين متحشفتين . وفجأة قامت ساشا بدورة مباغتة وهوت عليه وعانقته وضغطت جسدها الى كتفه . فجأر الاخوان رتيشيف :

– احضروا لنا بنات ، هيا احضروا البنات !

انسحب سوروبا مغتاظا الى الغرفة المطلة على الدهليز . ورقد على سرير ساشا جاهدا كيلا يدعك بدلته السموكن .

وتمتم وهو يمسح وجهه بالمنديل :

– موضوع شيق ، سيكون للحديث عن لهو اميرنا وقـع القنبلـة . . . هذا العريس الذى امتدحوه . . . «سافل» . سأريه من هو السافل . كلكم اوغاد !

في تلك الاثناء فتح الباب على مصراعيه ، ومرق الضوء الى الغرفة ، وظهر اوبرازتسوف وكأنه قد نط من دخان السجائر والصخب الهادر ، وامسك بالضلع العلوى للباب ثـم اندفع الى الخارج وابتلعـه الحوش .

فواصل سوروبا تمتمته .

– ذهب لاحضار البنات . تمهلوا . ساقيم حفلة ساهرة وسالقى اليكم بعظم كالكلاب . ساستدعي جوقة شيشكين من موسكو ، بل سأدعو شاليابين نفسه . . . كلكم تحبون المال رغم الغطرسة .

ظل سوروبا يتأمل طويلا في الملاعيب المثيرة التي سيبتدعها ليسخر من أنفة النبلاء . واخيرا سمـع هسيسا وهمسا من جهة الحوش ، ودخلت الدهليز بتردد أربع من زوجات الجنـود الغائبين يدفعهن اوبرازتسوف هامسا بصوت عال :

– حمقاوات ، مم تخفن . لن نأكلكن ، سنقدم لكن النبيذ الحلو وسنتدفأ .

واغلق الباب بعد دخول النساء . وتعالت من الداخل قهقهة الاخوين رتيشيف التي تشبه الصهيل . في تلك اللحظة دخل الامير وساشا الدهليز وقالت له ساشا :

– الى أين انت ياعزيزى ؟ لا تذهب اليها .

توجه الامير الى باب الخروج دون أن يجيبها . كان هناك غسال فخارى معلق على عمـود . وكان واضحا عبر الباب في الظلام الشفاف كيف صب الامير الماء على راحتيه ورشه على وجهه ثم تنشف . وامسكت ساشا بالعمود الثاني واستمرت على توسلاتها .

– انها فتاة شابة ولن تحبك طويلا . اما انا فلا اريد منك شيئا ، سافرش لك الفراش حتى اذا كنت سكران . لا تذهب . . . ارتحل غدا اذا كان ذلك لازما يا حبيبي .

– أرجوك ، اتركيني لحالي ، ما هذا الكلام . يبدو انك نفسك سكرانة ! – أجابها الامير .

لاذت ساشا بالصمت . التقط الامير أنفاسـه ونادى الحوذى وهبط على السلم ، بينما ظلت ساشا واقفة عند العمود . طبطبت الجياد في الحوش وراح الحوذى يلاطفها . ثم انبعث صرير ثقيل من البوابة وجاء صوت الامير :

– الى فولكوفو . . .

وانطلقت المركبة . ابتعدت ساشا عن العمود وجلست على درجات السلم التي هبط عليها الامير . ورأى سوروبا بوضوح في الظلام الشفاف عبر الباب القاتم شبحها المفتوح الجامد ومرفقيها على ركبتيهـا ورأسها الخفيض العارى ، والخطوط غير المتوازية لسطوح الاحواش وشادوف البئر .

وبدا له ذلك كله شيئا مألوفا كئيبا حتى انكمش وجهه وأخذ يفكر : «هذا المنظر الروسي . . . الى

الشيطان . سارتحل نهائيا الى باريس . حقا ، اليس لدى ما يكفي من نقود ؟ أما هذا الامير الصعلوك فسننقل اخباره كاملة الى من يهمهم الامر . . .»

ووراء الباب اشتد وقع الارجل والصخب والقهقهة ، فالابتهاج على قدم وساق .

كاتيا

١

رسم الكسندر فاديميتش شارة الصليب على ابنته وقبلها ومضى بخفه المنزلي الى الاريكة التي اعدوا له عليها الفراش .

فتحت كاتيا باب المكتب وخرجت الى الصالة بعد ان لفت كتفيها بمنديل وبرى . وعلى خشب الارضية العتيق استقر ضوء القمر مشبكا كزجاج النوافذ . وكانت اركان الصالة ، والارائك قربها ، قابعة في الظل . تطلعت كاتيا الى مربعات ضوء القمر على الارضية ورفعت راحة يدها الى وجنتها وابتسمت فجاة ابتسامة رقيقة جعلت قلبها ينتفض ويتجمد . وفكرت في نفسها : «لم يحن الوقت بعد ! ولكنه ربما ينتظرني ؟ كلا ، يجب ان اتمهل» .

رفعت فستانا من الجانبين ، ووسعت عينيها بشكل مخيف واخذت تدور محومة . . .

في تلك اللحظة اصطفق احد الابواب . فجلست

كاتيا في الحال . ورات كوندراتي يسير على امتداد الجدار حاملا شمعة وبدلة فولكوف .

عندما راى كوندراتي الآنسة جالسة على الارضية توقف واخذ يلوك شفتيه . وقالت كاتيا بصوت خنقته ضحكة :

— ظننت ان جنيا قد جاء . هذا أنت يا كوندراتي ؟ اضعت خاتمي ، تعال نبحث عنه .

اقترب كوندراتي وانحنى بشمعته على الارضية :

— اى خاتم ؟ لا أرى هنا خاتما .

قهقهت كاتيا وركضت الى الرواق . . . ووراء الباب لمظت بلسانها لكوندراتي واخذت تطبطب بقدميها عمدا متظاهرة بانها ذاهبة الى غرفتها ، لكنها اختبأت في تجويف النافذة قبل أن تبلغ نهاية الرواق التي علقت فيها سجادة ، وغطت فمها بيدها كيلا تنفجر ضاحكة .

عندما هدات جلبة كوندراتي المخدوع عادت كاتيا على اطراف أصابعها الى الصالة ومرقت الى البستان عبر باب الشرفة . وتوقفت هناك في عتمة الاشجار ، فقد استولى عليها الحزن فجأة . وفكرت :

«يبدو انه مل مني . واذا لم يكن قد مل بعد فسيمل لا محالة . فما الذى وجده في ؟ وهل استطيع ان اروح عنه ؟ لقد عانى الكثير ، أما أنا فاثقل عليه بالتفاهات . يا لي من بطلة !»

واشتد حزنها حتى جلست على المقعد المعشوشب :

«فالبطلة الحقيقية لا تأكل شيئا ، وفي الليل تنام

طليقة والورود الفواحة على صدرها ، أما أنا فاغرز
انفي في الوسادة . . .»

وضحكت كاتيا فجأة بصوت عال . الا ان حزنها
لم يتبدد بعد . . . ومن بعيـــد نقنقت الضفادع في
البركة . وبدت الاعشاب في ضوء القمر شيباء بيـن
الظلال الطويلة السوداء وراء الاشجار .

اشرأبت كاتيا فجأة وانصتت لحظة ثم ركضت في
الممشى ممسكة باطراف منديلهـــا . والتصق خيط
عنكبوت بخدها ، فنفضته ، وشقت لنفسها بصعوبة
طريقا أقصر بين شجيرات عنب الثعلب عند منعطف
الممشى على ضفة البركة ، ووصلت الى المرسى . اطل
القمر على البركة من وراء التعريشـــة فأنار الماء
واوراق الزنبق الصقيلة . وفي التعريشة جلس الكسي
بتروفيتش مسندا خديه بكلتا يديه الى الطاولـــة
المثبتة في الجدار والتي يحتسون الشاي عليهـــا مع
الضيوف عادة . وخيل لكاتيا انه حملق واتسعت عيناه
دون ان يرى شيئا .

«ماذا دهاه ؟» – فكرت على عجل ثم نادته :

– الكسي بتروفيتش !

انتفض الامير بشدة ونهض . فهرعت اليه كاتيا
على الالواح المتزعزعة وهي تقول ضاحكة : «كنت
نائما ، الا تخجل ؟»

طبع قبلة على يدها وقال بصوت أجش بعـد
الصمت الطويل :

– شكرا ، شكرا . . .

– كنت تفكر بنفسك من جديد . أليس كذلك ؟

– سألته كاتيا برقة وجلست على المصطبة ووضعت
مرفقها على اعلى الدرابزون . الم اطلب منك أن لا
تفكر على هذه الصورة ؟ ومع ذلك اعرف انـــك في
منتهى الطيبة . . .

– كلا ، – أجاب الكسي بتروفيتش بصـــوت
خافت ولكن بصلابة – كاتيا ، يا حبيبتي ، الامر
صعب جدا علي . انظري الى سلوكي . . . هـــل
تحبينني ولو قليلا ؟

ابتسمت كاتيا بسخرية واشاحت بوجهها دون أن
تجيب . جلس الامير جنبها وهو يتطلع الى شعرها
المستقر اسفل قفاها والى وجنتها البيضوية الواضحة
القسمات على مرآة الماء . وتعلق عنكبوت في بيته
باعلى الركن فوق راسها .

– في الطريق الى هنـــا فكرت : هل أخبرك أم
لا ؟ واذا لم اخبرك فربما لن اتجاسر على المجيء الى
هنا بعد الآن ، واذا اخبرتك ستتركينني بنفسك ،
سيكون الامر صعبا عليك ، ولكنك ستحاوليـن أن
تنسيني . . . فما من حيلة اخرى .

– اخبرني ، – اجابت كاتيا بمنتهى الجد .

– الن تفكرى باني اكذب أو أتظاهر ؟

– كلا .

– اقترفت الكثير من الكبائر ، ولكن احداهـــا
تعذبني ، – قال الامير بصعوبـة وبصوت أجش –
هكذا هي الحال دوما . تتصور بانك نسيت ، لكن
الدناءة التي اقترفتها من زمان تغدو محددة واضحة
المعالم وتنغص عليك عيشك . . .

— ارجوك ، تكلم ، — كررت كاتيا وارتعشت يداها وهي تمسك بطرف المنديل .

— فعلا ، فقد فكرت بان من اللازم اخبارك . حدث ذلك من زمان بعيد . كلا ، قبل حين ، في العام الفائت . . . قابلت احدى السيدات . . . وكانت حسناء للغاية . لكن قوتها ليست في جمالها . . . فهي تتعطر بعطور مدهشة تفوح منها رائحة داعرة تفوق التصور . الا تسمعين يا كاتيا ما اقول ؟ كلا ، لا يجوز ذلك . . . لقد احببت مرة واحدة في حياتي . وكان يخيل الي أن النساء مثلنا ، من نفس الطبيعة . لكن ذلك غير صحيح . . . فالنساء ، يا كاتيا ، يعيشن بيننا ككائنات غريبة جدا وخطرة جدا . وتلك كانت اكثر دعارة واشدهما كالحشرة . ما افظع أن تكون المرأة داعرة . عشت مسحورا كالمجنون بعد ذاك اللقاء وكان شيء حاد يلسعني ويخز قلبي .

توقف الكسي بتروفيتش عن الكلام فجأة ورفع اصابعه الى صدغيه .

— انا لا اعني ما اقول ، واعذبك . افهميني ، كل ذلك مضى وانقضى . وانا اكرهها الآن بكل جوارحي . . . سحرتني وعاشرتني ثم هجرتني كقفاز ارتدته مرة واحدة . فقدت رشدي واخذت اطاردها واتعقبها . . . كنت كعطشان اعطوه ماء فلمسه بشفتيه ثم ابعدوه عنه ، يمد عنقه ليشرب ، لكن فمه جاف كما في اللهيب . . ذات مرة ، بعد حفلة ساهرة ، قبلتها يائسا على مرأى

من الجميع ، ربما تشفيا . وفي اليوم التالي صادفني زوج هذه السيدة ودعاني الى بيته بخصوص بعض التذاكر . حدست سبب هذه الدعوة ، وذهبت . اتذكر ان الصقيع كان قارسا ذلك الصباح ، فحزنت وانا اتطلع الى الثلوج ! كان زوجها جالسا في مكتبه وعندما دخلت عليه خفض رأسه في الحال . كانت بيده حافظة سجائر فضية . لاحظت كيف حاولت اصابعه القصيرة المرتجفة أن تمسك بسجارة ولكن دون جدوى . وقد اشتريت نفس هذه السجائر فيما بعد . وعلى الاوراق فوق المكتب رأيت سوطا ملفوفا بسلك ابيض . وقفت أمامه ، بينما ظل هو يحدق في السجائر . وفجأة قلت باستهتار : «مرحبا ، أين تذاكرك ؟» ومددت له يدى حتى كادت تمس حافظة السجائر ، لكنه لم يصافحني . اهتز وجهه المترهل بغضب وقال : «انني اعتبر تصرفك مشينا ودنيئا . . .» وعند ذاك صحت به ، ولكن بصوت خافت كما خيل الي : «كيف تتجرأ على اهانتي ؟ !» ، فارتعش كمن انتابته الحمى ، واهتز وجهه وانتشل السوط وضربني به على وجهي . لم اتحرك ولم اشعر بالالم . لمحت على صديريه زرين مفتوحين كما عند البدناء . اما هو فقد مال عبر المكتب ودمدم : «خذها ثانية» وضربني مرة أخرى على الياقة فقد كنت احدق في عينيه . دسست يدى في جيبي على عجل واخرجت مسدسي . وظهر في يده هو الآخر مسدس فاندفع نحوى حتى لاحت عليه ابتسامة بسبب الغضب ، اما انا فكنت احدق بالرصاصات

وبفوهة مسدسه المعتمة . . . ياالهي ، ما افظع ذلك ! واحسست باني لا اقوى على الموت ولا اقوى على القتل ، فتراجعت . وتعثرت بالسجادة المفروشة امام المرآة ورأيت في المرآة الباب مفتوحا وقد وقفت فيه تلك السيدة بقبعة وقفاز طويل . ضمت شفتيها بشدة وراحت تراقب حركاتنا باهتمام . وقلت : «سابعث شاهدى المبارزة» . عند ذاك ضرب الزوج الارضية بقدمه وخار : «سأريك المبارزة الآن ، اغرب عني يا جرو !» . اغمضت عيني ورفعت المسدس فضربني على يدى ثم على عيني حتى سقطت على السجادة . وبعد ذلك نهضت وارتديت معطفي في الدهليز ، بينما وقف هو عند الباب والسوط بيده يودعني كما يودع الضيوف ، لكنه لم يضربني أكثر . . .

التقط الكسي بتروفيتش انفاسه ، ثم واصل الكلام على عجل :

— لم يبق امامي غير مخرج واحد . لازمت الفراش ثلاثة ايام وأنا ارتعش ووجهي الى الحائط . لم يغمض لي جفن وكنت اتذكر كل التفاصيل . كيف جئت اليه وكيف امسك بحافظة السجائر ، واية كلمات قلت له وكيف ضربني . . . اخذت اتقلب وافكر بما ينبغي فعله . ما الذى يجب ان افعله الآن مثلا . . . جلست على السرير واخذت اصر باسناني . . . لكن ارادتي خارت . . . كنت اعلم بان علي ان انهض واذهب الى المتجر واشترى مسدسا جديدا (فقد بقي مسدسى عنده في

الدهليز) ، ثم اذهب الى هناك واقتله . لكنني لم اتمكن من القيام بذلك ، فارتميت على الفراش وبقيت احدق في الجدار . واخيرا ادركت بان من اللازم التفكير بشيء آخر . أخذت اتذكر الفيلق والقرية التي ارتحلت اليها في الاجازة . وشعرت بالاسف على نفسي فبكيت ثم غفوت . استيقظت في الصباح يعتصرني ذلك الاسف بعينه . لم اكن اريد التصديق بان شرا قد حدث . وان علي ان اقوم بما هو اسوأ . فقبل حين كنت حرا طليقا ، ولكن لا بد لي ان اسير حتى النهاية . . . وافظع ما في الامر انني لم اعد حرا . . . ارتديت ملابسى وخرجت . رفعت يافتي وناديت حوذيا واخبرته بعنوان متجر الاسلحة ، لكنني غيرت رأيي في الحال . فليس بوسعي ان اختار مسدسا لهذا الغرض . الافضل ان اطعنه بالسيف . . . نزلت من العربة في ركن الشارع قرب مدخل بيته ، واخذت اجوب الرصيف .

مر قربي ، وانا اتذكر ذلك جيدا ، جنرال عجوز بانف قرمزى وفودين كثيفين . الجو صقيعي صاف . وفكرت : «ينبغي ان اعتذر منه فتعود الامور الى نصابها . كلا ، ثم كلا . الناس لا يحبون احدا ، وهم اشرار متعطشون للثأر والانتقام . ويجب اهانتهم وقتلهم والتمثيل بهم . . .» في تلك اللحظة ارتطم بي ضابط من الجيش لا يزال فتيا متورد الوجنتين . دفعني صدفة واعتذر بتأدب . لكنني فقدت رشدى وصحت به : «احمق ! . .»

ارتبك الضابط اشد الارتباك ، لكنه لاحظ نظراتي المسلطة عليه فقطب حاجبيه ورفع وجهه بانفه الافنط وقال : «يا سيدى . . .» واضاف شيئا لم اميزه ، فأهنته ودعوته في الحال للمبارزة . في الصباح التالي تبارزنا . أصاب ساقي برصاصة . وجلس قربي يبكى من مرارة الحادث . يا له من فتى مسكين ! رقدت على الثلج ووجهي الى السماء الصافية الزرقاء . . . وكنت في اطيب مزاج . . . تلك هي القصة . . .

ظلت كاتيا صامتة أمدا طويلا وقد خبأت يديها تحت المنديل ، ثم سألت بلهجة حادة :

— وتلك المرأة ؟

انزلق الامير من المصطبة وركع أمام قدمي كاتيا ولمس ركبتيها بجبينه وتمتم بيأس وقنوط :

— كاتيا ، يا عزيزتي ، هل تسامحينني ؟ هل فهمت ؟ ليس ذلك بسيطا . . . ألست بغيضا بالنسبة لك ؟

— انا متألمة جدا ، — اجابت كاتيا وهي تبعد ركبتيها عنه . — ارجوك ، اتركني لحالي ولا تأت الي . . . عدة ايام .

نهضت ومدت يدها للامير مودعة واستدارت ومضت ببطء عبر المرسى الى الاشجار المعتمة على الضفة . ووراء الاشجار التهمت الظلال فستانها الذى بدا أبيض في ضوء القمر .

ظل الامير ينظر الى تلك الجهة طويلا ، ثم هبط

على درجات السلم الى الماء واخذ يرشه براحة يده على وجهه وقفاه .

٢

مضت كاتيا الى غرفتها على اطراف اصابعها ، وأشعلت الشموع أمام مرآة الزينة وخلعت المنديل الوبرى وفكت ازرار بلوزتها ثم خلعتها ، وانتزعت الدبابيس فتناثر شعرها على الكتفين والصدر .

لكن المشط ارتجف في يدها وضغطت براحتها شعرها الناعم الى وجهها وهبطت على مقعد شبه دائرى .

فخلال الساعة الماضية سمعت الكثير وتأثرت اشد التأثر وصارت تعرف وتحس بان مصيبة قد حلت ، مع انها لم تفهم بعد لا الحق ولا الباطل ، لا الخير ولا الشر ، بل لم تفهم شيئا على الاطلاق .

قبل ساعة لا أكثر كانت تتصور نفسها مع الامير لوحدهما في هذا العالم ، ولا أحد قبلهما ، طبعا ، يعرف مثل هذا الحب الرقيق . وكما ينوء الرأس بالشعر الثقيل كانت كاتيا تحس في فؤادها بثقل الحب الساخن . لم تكن حياتها حياة قبل هذا الحب . وهل يعقل أن تكون حياة الامير حياة قبل أن يتعارفا ؟ لقد جاء فجأة ، جاء بكل جوارحه من أجل كاتيا ، وهو لها وحدها . كان الحال كذلك قبل ساعة لا غير .

وقالت كاتيا هامسة :

— آه ، ما أفظع أن يتحدث عن ذلك ، وبكل هذه التفاصيل ! اللطخة لا تغسل . . . كان حزينا على الدوام ، وهذا هو السبب اذن . طبعا ، فهو لا يزال يحب تلك . . . طبعا ، والا لما حزن ولما حدثني عنها . ثم تلك الضربات على الوجه وعلى العينين ، على عينيه . . . يا الهي ، على العينين اللتين لم اتجرأ حتى على تقبيلهما . . . أما هو فلم يفعل شيئا ، لم يهجم عليه ولم يقتله . . . عاجز ، وضيع . . . كلا ، كلا ، لو كان وضيعا لما حدثني . ثم انه رقد ثلاثة أيام حزينا . عيناه حزينتان معذبتان . كنت أستطيع أن أجلس على السرير وآخذ رأسه بيدي واحتضنه . . . وحيد وحيد في الكآبة والآلام . . . ولا أحد يفهمه طبعا ولا يعطف عليه . . . لكنني لن أسمح لاحد باهانته . . . ساذهب الى تلك المرأة وأقول لها صراحة من هي . . . آه يا الهي ، يا الهي ، ما العمل ؟

لعقت كاتيا شفتيها اليابستين بلسانها وحدقت طويلا في المرآة بعينين غائمتين لا تريان شيئا . ثم نفضت شعرها بحركة متباطئة والقت به على ظهرها العاري . كتفاها المائلتان وذراعاها واعلى نهديها النافرين شبه المستورين بالدانتلا كانت بيضاء كقطع منحوتة من مرمر . . . وخداها يتقدان . واخيرا رات صورتها في المرآة وابتسمت باعتزاز .

وفكرت في نفسها : «هذه أنا ، لم يمسني أحد ولن يتجرأ على المساس بي . أما هو فقد ضربوه ولوثوا سمعته» .

نهضت بسرعة وخلعت بقية الثياب الداخلية وجدلت ضفيرة بلا استعجال ، وعندما اتمتها توقفت متأملة ثم نفضت رأسها ورقدت على السرير .

في المرآة البيضوية الثانية على الجدار انعكس السرير العريض الواطىء على مساند بشكل قوائم الثيران ، وهو سرير عتيق كانت جدتها ترقد عليه ، كما انعكس وجه كاتيا المتورد على الوسائد بفم مزموم بازدراء ثم ارتعشت شفتاها وهمست :

— وبالاضافة الى ذلك اهينه أنا ، — قالت وانقلبت على وجهها بسرعة وانتحبت كبنت صغيرة وارتجفت كتفاها .

وغفت كاتيا بعد البكاء . في غرفتها البيضاء العالية تنير شمعتان فتنسكب من الاثاث على السجادة ظلال دافئة قاتمة . السكون المطبق يخيم على الغرفة حتى يخيل للمرء ان الفستان الملقى على الكرسي يمكن أن يتحرك من تلقائه . وفي الركن صر جندب صريرا رتيبا جافا .

وبعد ذلك ظهر من وراء السرير شبح بشرى أحمر اللون معروق وطويل كعود القش . اخذ يقفز دون أن يمس الارضية ويطبطب بقدميه ، وفي يديه اسلاك رقيقة . امتدت الاسلاك والتفت حول كاتيا ، بينما ظل الشبح يقفز وينط طوال الوقت .

ثم التفت البطانية وتكورت وربضت كالحجر على صدرها فتجمدت قدماها . وحومت فوق رأسها أسلاك وحلقات حمراء تلتقي تارة وتنفصل تارة اخرى . . . وقفز الشبح وربض على صدرها واخذ بخناقها . . .

صرخت كاتيا ورفعت بدنها على الوسائد. ارادت ان تدفع الثقل بيديها الممدودتين. اغشى ضوء الشمعتين بصرها، وانقلبت من جديد . . . فقدانتابتها الحمى.

الوشاية

١

في تلك الليلة نام الكسندر فاديميتش نوما هادئا هنيئا. فالبعوض لم يلسعه. واستيقظ كعادته في ساعة مبكرة.

حالما فتح جفونه المتلاصقة مد يده الى قدح العصير فاحتساه وتنحنح وانقلب على ظهره، وانبعث صرير من نوابض الحشية، ثم عبس وزمجر: «هيا!»، ونهض فوقعت قدماه في الحال على خف اللباد.

بعد ذلك عزم على الجلوس قليلا وراح ينقل انظاره في ارجاء الغرفة. المكتب عتيق تقشر طلاؤه، ولم يغيروا شيئا فيه منذ وفاة والد الكسندر فاديميتش. على أحد الجدران علق طوق حصان وقوس مزخرف وعدة أهداها الكسي اورلوف* لجدهم الاكبر في حينه. وعند الجدار المقابل انتصب كلب محنط وسرج شركسي على قاعدة خشبية.

---

* من كبار جنرالات روسيا في اواخر القرن الثامن عشر. **المترجم**.

وتوجد في ركن الغرفة نماذج المحاصد والمناجل والمجارف. وفوق الاريكة صور فوتوغرافية للافراس المحببة وعلى طاولة الكتابة مجموعة مجلدة من اعداد الجريدة الزراعية لعدة سنوات، ومختلف انواع البذور على وريقات، بالاضافة الى فاتورات واكوام من مماسك السجائر وغير ذلك من النفايات والحثالات.

كان الكسندر فاديميتش، عندما يستولي عليه الملل في الشتاء ويغطي الثلج سطوح الاحواش وتعوى الزوابع وتزمجر، يبتكر مختلف الاشغال ويبعث في طلب اجهزة من برلين وموسكو لهذا الغرض . . . ذات مرة اشترى آلة اوتوماتيكية لشحذ الاقلام، وراح كوندراتي يبحث في كل مكان عن الاقلام المكسورة الاسنان ويحملها الى سيده . . . ثم اولع الكسندر فاديميتش بالتصوير الفوتوغرافي، وعند ذاك استقرت في كل مكان افلام محمضة واوعية تحميض. وفي شتاء آخر انهمك في صنع موديلات من الكرتون لقرى نموذجية وطاحونات وآلات زراعية. وذات مرة علم من مساح عرج عليه ان بالامكان ايصال الكهرباء بطريقة منزلية فبعث في طلب كل ما يستلزمه ذلك وأثار المكتب بعد جهد جهيد ووعد بايصال التيار الكهربائي حتى الى غرفة كاتيا، الا ان الصيف صرفه عن هذه الفكرة. فمع ذوبان الجليد وبدء خرير المياه في الربيع يشعر بالدم يفور في عروقه فيكرس كل أوقاته للاشغال النبيلة فقط. في مارس انهمك باخصاب الخيل،

وفي أبريل انصرف الى انشاء السدود ، وفي مايو
انشغل في تدريب المهور ، وبعد ذلك تواترت
الاعمال في حش الاعشاب وجنى الغلة والدراس ، ثم
حل الخريف حيث تقام ولائم الاعراس والناس سكرى
في كل مكان .

مل الكسندر فاديميتش من الجلوس على السرير
فصاح منتعشا :

– كوندراتي ، احضر سروالي !

جاءه كوندراتي بسروال فضفاض وانحنى
قائلا :

– صباح الخير ، يا سيدى .

– ماذا ؟ كل شيء على مايرام ؟ – سأل
الكسندر فاديميتش .

– الحمد لله ، على ما يرام .

– لم يحدث شيء ؟ آ ؟

– لا شيء ، كما يبدو .

– هل جاء الفلاحون ؟

– نعم .

– وماذا قلت لهم ؟

– قلت لهم ان السيد امر بطردهم .

– وماذا قالوا ؟

– لم يقولوا شيئا . انصرفوا صامتين . لم يبق
امامهم الا ان يحكوا رؤوسهم ، طالما منعتهم من
رعي ماشيتهم ...

– ما هذا الكلام ؟ اضبط لسانك يا
كوندراتي ...

– القى الكسندر فاديميتش نظرة غاضبة على
كوندراتي فاستدار هذا وعلك شفته ثم قال :

– يبدو ان الآنسة مرضت .

– كيف ؟

– مرضت فعلا . حامت طول الليل . . . وها
هي النتيجة .

تنهد الكسندر فاديميتش وقطب حاجبيه . لم
يكن يصدق بان آل فولكوف يمكن أن يمرضوا .
وطالما لم تنم ابنته الليل فان حماقة البنات
استولت عليها ويجب علاجها بالزفاف . والزفاف
هو الذى جعل فولكوف يقطب حاجبيه . فاين العريس
المناسب ؟ الشيطان وحده يعرف أين هو ! ربما
كان الامير هو العريس المطلوب . ولكن كيف تتم
الخطوبة اذا كان يتردد على منزلهم ويأتي اليه حتى
في الليل ليتقابل مع كاتيا في البستان ، كما يقولون ،
ومع ذلك لا يقدم على الخطوبة . ما أشد وقاحته !
تلك أمور مزعجة لحد الغثيان . وفكر فولكوف :
«حبذا لو رقدت في المساء واستيقظت في الصباح
لاجد كوندراتي يقول : الآنسة تزوجت . . .»

– يا للشيطان ! ساتعذب بسببكم ، – قال
الكسندر فاديميتش أخيرا ، والتفت وسعل وبصق .
ثم مد ساقيه لكوندراتي وشد سرواله الفضفاض
بزر عاجي ونهض وأضاف : – اخبرهم كي يشدوا
كلاوزا الى العربة – وتوجه الى الغسال .

الغسال عبارة عن ابريق من الخزف ينقلب على
فوهته اذا لمست صنبوره فيصب على يديك ماء!

وفيرا . اغتسل فولكوف واخذ ينخر وينفخ الماء من فمه ثم ارتدى قفطانه القطني الخشن الذى اتخذ هيئة بدنه من كثرة الاستعمال حتى برزت من خلاله حلمتا الصدر الصغيرتان ، ومضى الى غرفة الطعام .

اثناء احتساء القهوة تذكر ابنته وقطب حاجبيه من جديد وذهب اليها عبر الرواق .

كانت كاتيا راقدة على السرير بوجه نحيل شاحب . رفعت راسها وقبلت والدها ، ويدها في يده ، وقبلها هو ايضا ، ثم رقدت على الوسادة من جديد ودست راحتيها تحت خدها واغمضت جفونها .

— يا لك من بنية ضعيفة ! — قال الاب وداعب أنفها بسبابته . — هل نبعث في طلب الطبيب ؟

هزت كاتيا راسها ببطء دون أن تفتح عينيها .

وعند ذاك امر الكسندر فاديميتش ، بداع من العناد ، كوندراتي بان يرسل احدا في الحال الى كوليفان لاحضار الطبيب حيا او ميتا . ثم لمس خد ابنته ومضى الى المدخل ووضع يديه على جنبيه وراح يمتع انظاره بالفرس الكميت المربوطة الى العربة .

غمزت كلاوزا بعينيها الحمراوين وهزت اذنيها واقعت مرارا منتظرة ان يطلقوا سراحها لتفعل ما تشاء .

وقال الحوذى بمرح وهو يمسك بلجام كلاوزا :

— فرس ماكرة . عضت يد السائس في الصباح . فما افظعها . ودمدم السائس وهو يخلع قبعته احتراما :

— يا الكسندر فاديميتش ، لا بد من كأس مقابل العضة .

— طيب ، اذهب الى المطبخ ، — أجابه سيده ، ونزل من سلم المدخل وشعر بارتعاشة خفيفة ارتاح لها . ضبط نفسه وصعد الى العربة ورتب العنان وشد طاقيته البيضاء على رأسه وقال بصوت خافت : — هيا !

افلت الحوذى اللجام لكن كلاوزا لم تتحرك . نخرت بصخب واتسع منخاراها الورديان .

وخاطبها فولكوف : «هيا ، يا لطيفة !» — ولمس جنبها بالعنان ، لكن كلاوزا تراجعت مقعية . اراد الحوذى ان يمسك بلجامها من جديد ، بيد أن سيده صاح به . «لا تمسها !» وضربها بكلا سيرى العنان .

اندفعت كلاوزا ثم اقعت ونهضت على قائمتيها الخلفيتين . ضربها فولكوف مرة أخرى ، وعند ذاك هزت عقيرتها فبللته وانطلقت به . . وركض السائس والحوذى في اثرها . لكنها خرجت بفولكوف الى الطريق العام فحاول عبثا ان يشد العنان وهو يبصق لاهثا وقد جحظت عيناه . اما الحوذى والسائس فقد ركضا حتى طرف القرية ثم ضربا على ركبتيهما غارقين في الضحك قائلين : «هذا ليس عصيرا لتشربه . . .»

ظلت كلاوزا تعدو منحرفة عن الطريق على الاعشاب التي تضرب القوائم ، وهي تترافس وتصهل وتحاول ان تقلب العربة بكل الوسائل ،

لكن فولكوف تسمر في مقعده والريح تعبث بشاربيه وهو يحاول توجيه الفرس نحو الهضاب .

واخيرا تمكن من ذلك ، الا ان كلاوزا ابتدعت حيلة اخرى بعد ان صعدت التلة التي تقبع الضيعة وراءها . فقد توقفت عن العدو فجأة وربضت مع العريشين في الحال .

لم يكن فولكوف يتوقع ذلك فنزل من العربة ليساعد الفرس على النهوض .

الا ان كلاوزا قفزت بخفة وقلبت فولكوف واسرعت تعدو في الحقل ساحبة العربة كيفما اتفق .

واكتاب فولكوف اشد الاكتئاب وهم باللحاق بالفرس ، لكن وجهه احتقن في الحال فانبطح لاهثا على كومة من دريس الموسم الفائت .

في تلك اللحظة مرت على الطريق قربه عربة مشبكة السقف يجرها ببطء حصانان هزيلان في اعنة من الحبال . . .

وكان الجالسان في العربة قد شاهدا بام العين ما فعلته الفرس بفولكوف والعار الذى جلبته له . فاوقفا العربة وتعالى من داخلها صوت معروف :

— الم تصب باذى يا الكسندر فاديميتش ؟

القى فولكوف نظرة على الراكبين واطلق شتيمة خافتة . فقد رقد في العربة اوبرازتسوف وراسه يتدلى . وهرع سوروبا على العشب نحو كومة الدريس وهو في بدلته السموكن وجزمته الصقيلة . . .

وفكر فولكوف : «رآني الحقير . وسينشر

الخبر في القضاء كله ، سيقول ان فرسا جرباء غلبتني» .

بلغ سوروبا الكومة راكضا ورفع بنطاله الى اعلى وجلس منحنيا على فولكوف .

— يا الهي ! اغمي عليك !

جلس فولكوف في الحال .

— لماذا تثقل علي ؟ ! تعبت من السفر وانبطحت لاستريح .

— أين فرسك اذن يا الكسندر فاديميتش ؟

— آه ، ذهبت ، يا للشيطان . . . شيء مزعج ! . . كانت واقفة بهدوء طوال الوقت . يبدو انها هربت من الذباب .

فقال سوروبا :

— هربت الفرس الى القرية . رأينا ذلك من الهضبة . ولكن لا تهتم . . . انا مسرور جدا لاننا قابلناك . كنت أريد أن اذهب اليك بنفسي لاخبرك بشيء في منتهى الاهمية .

انحنى على اذن فولكوف وهمس قائلا :

— علي أن احذرك . والكلام بيني وبينك . الامير الكسى كراسنوبولسكي سافل ودنيء .

— ماذا تقول ؟ — سأل فولكوف وقد نهض على اربع ، ثم قام وعدل قفطانه وأضاف : — وشاية جديدة ؟

— آه ، انا نفسي لا احب الوشايات — واصل سوروبا كلامه على عجل . — فهي لا تليق بالانسان المؤدب ، ولكني افعل ذلك بدافع من صداقتي

لك . علما بان القضية تمس الشرف . بالامس جئنا اليه ، انـــا واوبرازتسوف والاخوان رتيشيف ، لتناول الغداء . فانظر باى حال هـو الآن . الافراط على مائدة الامير ، طبعا ، فظيع الى حد مخجل . وبعد الغداء مختلف الحماقات . وفجـــاة اقترح علينا أن نتوجه الى كوليفان ، الى العاهرات . مـا اسوا هذه العادة ! ولما كنا شلة فقد توجهنا الى هناك . وفي كوليفان سكروا حتى فقدوا الحشمــــة والتهذيب ، واحضروا اربع عاهرات عاريات .

– عاريات ؟ – سأل الكسندر فاديميتش .

– عاريات بالفعل . . . شيء فظيع ، مقرف . وفكرت : فليكشف هذا الصعلوك عن نواياه حتـــى النهاية . فتصور ماذا فعل . – توقف سوروبا لحظة وهو يتطلع في عيني فولكوف الـــذى تنحنح فجأة وطرفت رموشه . – تصور . حوالي منتصف الليل ركض هذا الاميـــر الى الحوش وصاح : «احضروا الجياد ، أنا متوجه الى فولكوف . . .»

– الي ؟ – سأل الكسندر فاديميتش .

– نعم ، ولكن ، كيف لا تفهم ؟ . . تلــــك مسألة حساسة جدا . طبعا توجه اليك يا الكسندر فاديميتش ، ولكن كيف اقول كيلا أزعجك : الناس يمكن ان يفكروا بانه لم يتوجه اليك بالذات .

وللمزيد من الوضوح نشر سوروبا اصابع يده امام انف فولكوف الذى فهم تلميحات سوروبا فجأة فانفجر به صائحا :

– بليد ، ابله .

الا ان سوروبا واصل كلامه :

– حقا ، توجه اليك ، لكـــن الجميع أخذوا يطلقون أقوالا غير لائقة ، حتى صحت بهم آمرا : كفاية . شبعنا من هذه المشاهد الدنيئة . فلنرحل من هنا ! لكننا تركنا جيادنا في ضيعـــة ميلويه ، ولذا ترانا مع حصاني البلدية الهزيلين . كنت من زمان أقول : لا يجوز استضافة هذا الصعلوك ، ثم هل هو أمير حقا ؟ أليس يهوديا ؟

بيد ان الكسندر فاديميتش لم يعد يسمع كلام سوروبا . فقد اشتد به الغضب ، وهو منفعل أصلا بسبب حادثة كلاوزا ، حتى عجز عن النطق ، وكان يشخر بفم مفتوح مما جعل سوروبا يرتعب . وأخيرا قال فولكوف بشق الانفس :

– اين هذا الحقير ؟ احضروا الجياد ! سابقر بطنه !

طيب . رائع . سنصل الى منزلي بهذه العربة ، ومن هناك نباغت سوية ضيعة ميلويه وناخذ معنا الاخوين رتيشيف : فليدفع الحســـاب . – همس سوروبا وركض ، وهو يتلوى كالاصـــل ، خلف فولكوف نحو العربة فرحا لانه ثار لنفسه من الاهانة التي تلقاها من الامير يوم امس .

٢

غادر الفرسان ضيعة سوروبا متوجهين الى منزل الامير بعد ان تناولوا طعام الغداء واستعر النبيذ في عروقهم .

كان فولكوف يسرع ، ومرفقاه متباعدان ، على ظهر حصان سيبيرى اشعث يشخر تحت ثقل راكبه . ووراءه اندفع الاخوان رتيشيف يلوحان بسوطيهما ويهتفان :

– تلك هي الحياة ! تلك هي المتعة ! اسرع ، عجل !

لا فرق عند الاخوين رتيشيف بين الهجوم على الامير او الدفاع عنه . فاهم شيء بالنسبة لهما هو ان تصفر الريح في الآذان . زد على ذلك انهما عزما على اجتثاث التفسخ الخلقي بعد ان جهد سوروبا في اقناعهما .

وخلف الجميع كان سوروبا يتقافز على ظهر فرس انجليزية وهو منكاش الوجه ذاوى القسمات ، لكنه في سترة ممتازة وسروال وحذاء بغطاء على الكاحل .

اندفع الفرسان بين شجيرات الصفصاف والرمال تتطاير من تحت السنابك . وكلما اقتربوا من ميلوليه ارتفع حاجب اشقر على عين فولكوف وهبط الحاجب الآخر على عينه الثانية واخذ فكه الاسفل يمتد الى الامام ، وهو يبتكر في كل لحظة فنونا جديدة من التعذيب الذى سيسلطه على الامير .

وكان الامير الكسي بتروفيتش قد نام بقية الليل في هاجس مقلق ، فاخذ حماما باردا وطلب ان يدلكوه بمنشفة ثم جلس الى البيانو في الصالة المستديرة الصغرى ذات النوافذ العالية المزججة بزجاج ملون .

البيانو بشكل قيثار من الخشب الوردى ، وهو

مهشم يبعث دويا . عزف الامير بيد واحدة ما يحفظه عن ظهر قلب – «Chanson triste» وانسابت اشعة الشمس عبر الزجاج الملون على الارضية الخشبية فانتعشت عليها زخارف من الزهور والاكاليل . وعلى قماش الجدران علقت رسوم محفورة كئيبة ، وقبالة البيانو علقت صورة نصفية لشيخ وجهه مزين بالمساحيق ويرتدى صديريا أحمر وبيده مخطوطة قديمة مطوية . كل ذلك ، بالاضافة الى الارائك المتهرئة والموائد المستديره المحكوكة ودفاتر النوتات المستهلكية ، حاجيات بالية موات تفوح منها العفونة . استدار الامير على المقعد اللولبي وفكر :

«كانوا ينظرون عبر هذه النوافذ المبرقشة ويستمعون الى الفالس ويضطجعون على الارائك ويمارسون الحب والقبلات خفية ، وبعد ذلك ماتوا ولم يبق لهم اثر . فورثت المنزل الذى آواهم وورثت آنيتهم وذكرياتهم . لاى غرض ؟ ألكي أموت كالآخرين ولا يبقى لي اثر ؟ !»

داعب مفاتيح البيانو من جديد وتنهد فداهمه التعب مرة اخرى بعد ان طرده الاستحمام موقتا ، وتقوست كتفاه – وتمتم ببطء :

– كاتيا ، يا صغيرتي !

ولاحت كاتيا أمام عينيه المغمضتين كما كانت بالامس ، بصفحة وجهها الملتفت الى ضوء القمر وكتفيها المنحدرتين تحت المنديل الوبرى . يا ليته يضغط خده على كتفها ويطمئن الى الابد !

«أليس بالامكان العيش مع كاتيا كأخ مغرم متيم ؟ ولكن هل ستوافق هي على هذا النوع من الغرام ؟ فهي تحس بأنها امرأة . طبعا ، لا بد وان تحس بذلك . فلتذق طعم السعادة المباغتة اللاذعة . يا ليتني اهيم معها يوما أو اسبوعا ! ثم ارتحل الى الابد . ويظل في نفسي مدى الحياة حزن لذيذ لان يدى امسكتا بكنز ثمين ، كنز السعادة التي تخليت عنها طوعا . فهذا أشد واقوى من اى شيء آخر . وهو يترك انطباعا عميقا . فما ألذ الحزن حتى الدموع ! ما اروعه ! امس هرعت الي ومدت يديها . كان يجب أن انهال عليها بالقبل ، آه ، يا الهي . . . بدلا من ذلك حكيت لها ابشع الفظائع . . . فلماذا ؟ لن تفهمني . . . لن تتقبلني بعد الآن !» .

مرر الكسي بتروفيتش راحته على وجهه ونهض من كرسي البيانو وتمدد على ظهره فوق الاريكة التي سخنتها الشمس وشبك يديه تحت راسه . وفي تلك الاثناء طرق الوصيف الباب بحذر وافاد بان الطعام جاهز .

— اغرب عني — قال الامير . فقد انقطع حبل افكاره . اسف لذلك ، ونزل الى صالة الاعمدة ، حيث المائدة جاهزة ، والقى نظرة خاطفة على الوصيف الواقف بوجه متحجر تعلوه مسحة الاحترام ، وانكمش وجهه (فلا يزال الغثيان يلازمه بسبب سكر الامس) ثم توقف قرب العمود البارد وشبك يديه وراء ظهره . هبط قرص الشمس الهائل وراء قمم الشوح عبر الباب الزجاجي . وتهادى هدير حزين حنون

لحمامة برية . وانبعث حفيف من أوراق الحور التي اخذت تترجرج وتدور على اعوادها ثم سكنت . كل شيء هنا ازلي قديم ، كل شيء يتكرر من جديد .

وفكر الامير : «سأغير طباعي ، سأحبها الى الابد . أحبها بشدة ، ما أروعها ، ما ارقها . . . كاتيا ستروضني وتجعلني استقر . يا الهي ، اجعلني مخلصا أمينا مثل الآخرين . خلصني من اضطرابي ، وخلص افكارى من السموم . أريد أن اقضي حياتي كلها قربها . سانسى ، سانسى كل شيء . . . ما عدا الحب . . . أفليست لدى مقدسات ؟ . . فلتكن ساشا هي المسؤولة . ساشا تتحمل العذاب . استطيع ان اهجرها ، فهي وديعة ، تحترق وتموت وتباركني مع ذلك» .

دس الكسي بتروفيتش يده في عب صديريه وكأنه يريد أن يمسك قلبه الذى اشتد وجيبه حتى نغزه وأوجعه . مال على العمود والتصق به ، ونبعت حبات العرق على جبينه . وفكر : «يجب أن أشرب البروم» ، وخطا نحو المقعد الواسع وهوى عليه خائرا من النوبة التي اعتورت قلبه المرهق جدا .

في تلك الاثناء اصطفق باب المنزل وسمعت خطوات ثقيلة . هرع الوصيف مرتعبا الى الباب البلوطي الثقيل الذى انفتح على مصراعيه بضربة شديدة . واقتحم الصالة فولكوف وخلفه الاخوان رتيشيف ووراءهما سوروبا .

— احضروه الى ! — جأر فولكوف وهو ينقل عينيه الجاحظتين ثم ركل المائدة برجله حتى جلجلت

الاواني . — كل ذلك وهو يتجرأ على تناول الغداء !
— ثم خطا نحو باب الشرفة وعندما رأى الامير بين الاعمدة يتشبث بالمقعد وينظر من الاسفل الى الاعلى ، دمدم بفك ناتئة : هذا التصرف ، يا اخي ، يستحق لطمة على البوز !

— نعم ، لطمة على البوز ! — زعق الاخوان رتيشيف من وراء ظهره .

اما سوروبا الذى ظل واقفا عند الباب راح يكرر :

— على مهلكم يا سادة ، على مهلكم .

شحب وجه الامير حتى اكتسى بمسحة خضراء . فقد ظن ان كاتيا حدثت اباها بكل ما سمعته . وانه ، هو المستضعف ، سيتعرض الآن للاهانة ثانية . سيسمع صوت السوط اللماع مرة أخرى ، وسيلازم الفراش ويعض الوسادة من جديد . . .

الا ان سعار فولكوف خمد حالما واجه نظرة الامير ، وكأن ضميره بدأ يؤنبه . فهذه النظرة الكسيرة تشبه نظرة الكلب المقصوم الظهر عندما يقترب منه رجل بحبل ليجهز عليه باسرع ما يمكن ، فكل دفاعه يتركز في عينيه . واحيانا لا يتجرأ الرجل على خنقه والقاء الانشوطة على رقبته ، بل يشيح بوجهه وينصرف ويكتفي برميه بحصاة من بعيد .

وهذا ما فعله فولكوف . فقد تراجع وهبط حاجباه ودمدم :

— لماذا تحدق في هكذا ؟ هذا التصرف ، يا أخي ، غير جائز ولو كنت من عائلة كريمة . ثم

انني اب . يمكنك أن تسكر وتعربد ، ولكن لا تلوث سمعة البنت !

وعندما قال هذه الكلمات اهتاج من جديد وصرخ مهاجما :

— كلا ، ساضربه ، لن أتحمل !

— ماذا جنيت ؟ — سأل الكسي بتروفيتش بصوت خافت وأخذ يرتعش على نحو غير ملحوظ لشدة فرحه ، فقد مرت بسلام افظع الاحتمالات .

— كيف ؟ تتهتك مع ساشا ثم تتباهى أمام الجميع بانك ذاهب الي في الليل . أما أنا فلا علم لي ولا خبر ، لقد شوهت سمعتي في القضاء كله .

نهض الامير على عجل ولم يتمالك نفسه فراح يقهقه ، وامسك يدى فولكوف المندهش واقتاده الى الشرفة :

— تعال يا عزيزى ، يا حبيبي ، — قال الامير ومال على الكسندر فاديميتش فوضع خده على كتفه التي تفوح منها رائحة العرق والخيل واضاف : — انا أحب كاتيا وأطلب يدها منك . لقد تغيرت طباعي يا عزيزى . . . وتبت نهائيا . . .

كاد الامير يختنق ، بينما اهتز رأس فولكوف بسبب الانفعال :

— هكذا اذن . انا فاهم ، لقد حولت الامور الى مجرى آخر . تلك قضية أخرى اذن . أنا نفسي كنت أريد . . . لكنك ، يا اخي ، فاجأتني ، لماذا أنت مستعجل الى هذا الحد ؟ — مسح جبهته واختتم كلامه بصوت خائر : — انا ذاهب لأتمشى في

البستان ، بين الشجيرات . فالقضية هامة . ولا تخش شيئا . دعني اهدئ اعصابي قليلا . . .

وهبط فولكوف من الشرفة بخطوات ثقيلة . وعاد الامير الى الصالة وكور قبضتي يديه المعروقتين وقال مخاطبا سوروبا والاخوين رتيشيف عبر اسنان مصطكة :

اغربوا عني !

ما كان فولكوف يحب التماهل والتأمل اذا اشتدت رغبته في القيام بشيء . ولذا فقد جلس بين الشجيرات برهة ثم عاد وأعلن للامير أن من اللازم اتمام كل الامور في هذا المساء بالذات . وتوجه بنفسه الى الاسطبل وظل يلوم سائسي الخيل بعد أن عثر بعينه الثاقبة على مواضع الاهمال في عملهم . وعرج في طريقه على جميع الحظائر ومستودعات العربات ، وعندما عاد ادراجه خاطب الامير الواقف في المدخل :

— معذرة ، يا عزيزى ، أنت مغفل على ما يبدو . فهل يجوز اهمال الاسطبل الى هذا الحد ؟ من حسن الحظ اني سارتب امور ضعيتك .

وراح الامير يكركر بقهقهة قصيرة متلاحقة لم يتمكن من التخلص منها . فقد كان يتوجس منه خيفة ولا يتوقع خيرا . ولذا فعندما اختار فولكوف افضل عربة وأمر بشد ثلاثة من الجياد الدهم اليها واصطحب فيها الامير الى ضيعته كان سلوك هذا الاخير غريبا اثناء الطريق حتى القى عليه فولكوف نظرة شزراء عندما اجتازا نصف المسافة وقال :

— ماذا بك ؟ أقول لك لا تتململ . كاتيا لن ترفض .

لكن انباء سيئة مباغتة كانت تنتظرهما في فولكوفو عندما وصلاها في المغيب . وعجل ذلك في الاحداث وترك اثرا مؤلما ليس لدى الامير وكاتيا فحسب ، بل ولدى الدكتور غريغورى ايفانوفيتش زابوتكين الذى تورط في هذه القصة كما تتورط الذبابة عندما تندفع الى النار .

٣

في صباح ذلك اليوم ارسلت عربة لاحضار الدكتور زابوتكين .

كان يغسل ارضية غرفته المدخنة بالماء الساخن والصابون ، وقد فتح الباب والنافذتين ، ويفرش المكان بالورق النظيف والكتب غير الممتعة اطلاقا التي وجدها تحت الفرن ، وكان يتوقف أحيانا والخرقة في يده ليلقى نظرة على الشمس التي جففت المصاطب والارضية بسرعة .

وفكر غريغورى ايفانوفيتش : «أنا أحب النظافة . فالروح تتطهر بها وتفرح . والنهار ، ما اروع النهار ! الاوز على الماء والغيوم في السماء . ما اروع ذلك» .

عرج عليه الاب فاسيلي لحظة ودهش اشد الدهشة فسأله : «ماذا ؟ هل أنت بخير يا غريغورى ؟» لكنه ادرك كل شيء من اولى الكلمات

التي نطق بها الطبيب فابتسم وانصرف بهدوء خشية ان يفسد الفرحة التي لم يشتد عودها (كما خيل اليه) ، حتى ان غريغوري ايفانوفيتش لم ينتبه الى ذهابه .

تصور أن السعادة ستأتي اليه اليوم بالذات . واذا لم تأت ؟ كلا ، ستأتي من كل بد .

في حوالي الثانية بعد الظهر وصلت الى منزل الطبيب عربة يجرها حصانان ادهمان . دهش غريغوري ايفانوفيتش فمد عنقه من النافذة والخرقة بيده . قفز الحوذي من العربة واسرع نحو النافذة وسأل :

— ماذا ، يا أشعث ، هل الطبيب في البيت ؟ — والقى نظرة على داخل المنزل ثم ضيق عينيه وتطلع الى غريغوري ايفانوفيتش . — ادع الطبيب ، ارجوك . الانسة مريضة . قل له ابنة فولكوف مريضة .

ابتعد غريغوري ايفانوفيتش عن النافذة في الحال وسقطت الخرقة من يده . وانتفض قلبه وكاد يختنق . ولاحت في مخيلته كاتيا عندما رفعت طرف فستانها المبلل وصعدت السلم الى الرصيف وبان رأسها المشع وكتفاها المكورتان وقدها الفارع المسربل بالحرير . .

«ماذا لو اصيبت بالتيفوئيد ؟ كلا ، مستحيل» . — فكر الطبيب .

وركض الى النافذة من جديد وصاح :

— اسمع يا هذا ! انا الطبيب ، سارتحل معك

في الحال ! — وتطلع في كسرة المرآة المعلقة بين النافذتين وبيده طاقيته ، وانعكس في تلك الكسرة بشكل مائل وجه العريض المحتقن والزغب على خديه ، وقد تهدل على جانبيه حتى الكتفين شعر كالالياف .

— ما هذا المنظر المرعب ؟ — دمدم الطبيب متراجعا — أنا «اشعث» حقا ، لن أستطيع الذهاب بهذه الهيئة .

جلس على المصطبة بسرعة متحيرا وتغضن جبينه ، ثم نهض في الحال واخذ المقص وغرز طرفه في رأسه وقص خصلة شعر جانبية سقطت على الارضية دون أن تتناثر . داس عليها وزم فمه وراح يقص المزيد من شعره حتى قصر من كلا الجانبين ، وادرك على الفور ان المقص لن يطال شعره من الخلف ، وانه ، على العموم ، يكاد يجن .

كانت الاجراس وراء النافذة ترن بين حين وآخر ، والحوذي يتثاءب عمدا ويحمد ربه بصوت عال . بينما أخذ العرق يتصبب من الطبيب الذي حنى ركبته ولوى رقبته وحلق قفاه . ثم القى بالمقص واسرع الى الغسال فلم يجد فيه ماء . ولم يكن يعرف أين سترته . طرق الحوذي على النافذة بسوطه وسأل : «متى سنتحرك ؟» ضرب زابوتكين الارض بقدمه . ولم يحدث له شيء من هذا القبيل الا في الاحلام عندما يتعين عليه أن يركض لكن قدميه ملتصقتان بالارض ، ويريد أن يلوح بيديه لكنهما ثقيلتا لا ترتفعان .

واخيرا قال الطبيب بعد أن قفز الى العربة :
– اسرع ، بكل ما تستطيع .
ظل طوال الطريق يعدل هيئته . ويمسح وجهه بالمنديل ويتأوه . وعندما لاحت من أعلى التلة البرك والبستان وسقف الدار الاحمر في فولكوفو كاد يقفز من العربة . فكل ما كان يجرى في دخيلته هذا النهار كانما يجرى في الاحلام .
استقبل كوندراتي الدكتور في المدخل ورافقه الى المنزل . واستنشق غريغورى ايفانوفيتش الرائحة الرقيقة ، العفنة بعض الشيء ، لهذه الغرف العتيقة ، ثم أخذ يسير على أطراف الاصابع مدركا بأن الواجب هنا يحتم عليه التحلي باللياقة والادب ، فعلى كل لوح من اخشاب هذه الارضية سارت كاتيا ، ووقفت امام كل نافذة . فهذا ليس منزلا مثل سائر المنازل ، بل هو المعجزة بذاتها .
– تفضل الى هنا ، – قال كوندراتي وتوقف امام السجادة التي تغطي الباب . ثم أضاف وهو يعلك – الفت انتباهك الى عدم الافراط في اعطاء المستحضرات .
وازاح السجادة عن الباب ، فدمدم غريغورى ايفانوفيتش «تمهل ، تمهل ، طيب» ، وسحب اذيال سترته ومسح وجهه براحته ودخل فالقى نظرة زائغة على الغرفة ثم استقرت عيناه في الحال على الوسائد والراس الانثوى الراقد وقفاه الى الباب . التفت على الجيد ضفيرتان يفصلهما خط المفرق ، وامتدت يد عارية حتى المرفق على البطانية الزرقاء .

اغمض الطبيب عينيه ثم القى نظرة على الخف الاحمر على السجادة وفكر ، عرضا ، بأنه ، هو الدكتور زابوتكين ، دجال لا اكثر ، مجرد كومة من الخرق القذرة . ثم نسي أفكاره في الحال .
تنهدت كاتيا وانقلبت على ظهرها ببطء . فتراجع الطبيب مرتعبا . طرفت جفونها بسرعة واستيقظت نهائيا وتوقفت نظرتها المندهشة على القادم . ثم اسبلت جفونها وتورد محياها . وقالت :
– آه ، هذا أنت يا دكتور ؟ مرحبا . . . معذرة لازعاجك . . . لكن بابا . . .
اقترب الطبيب منها بعد جهد جهيد . مدت له يدها وكانت لا تزال دافئة اثر النوم ، فامسك بها واحتقن وجهه بحمرة قانية ثم انتبه على نفسه واخرج ساعته ، لكنه لم ير عقاربها فراح يحسب الثواني بضربات من قدمه ، وفهم بعد لحظة أنه اخطأ الحساب وانه هالك لا محالة فترك يد الفتاة وسقطت الساعة منه . عند ذاك غطت كاتيا وجهها براحتيها ببطء ، وارتعشت كتفاها ولم تضبط نفسها فانفجرت ضاحكة .
انتابت الدكتور زابوتكين قشعريرة شديدة حتى شعر بالغثيان ، بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة بلهاء ، يا للغثنة ! وأخيرا قالت كاتيا بعينين مغرورقتين بدموع المرح :
–لا تزعل يا عزيزى الدكتور ، أرجوك اوضح لي ما الذى حدث لشعرك ؟ – واطلقت قهقهة عالية رنانة هذه المرة .

وعند ذاك تطلع في المرآة يائسا ورأى وجهه المتشنج ورأى البقع المحشوشة والتضاريس على رأسه ورأى ما يشبه الضفيرة من الخلف . . . ودمدم :

– ذلك بسبب الظلام . تعودت دوما . . . . – لم يتحمل فتراجع الى الباب وخرج راكضا .

٤

كان كوندراتي ينتظره وراء الباب في الرواق . فصاح به الطبيب يائسا مستغيثا :

– اسمع ياهذا ، اخبرهم ان يعدوا لي الحصان بسرعة . سارتحل في الحال ، لا أستطيع .

فأجابه كوندراتي بلهجة صارمة :

– أرجوك ، لا تتبختر ، فأنت لست في بيتك . تفضل واتبعني .

قال الطبيب : «طيب» وسار طائعا خلف كوندراتي في الرواق ثم الى جناح الوصيف تحت السلم حيث جلس على الصندوق المغطى ببساط اللباد . وبعد صمت قصير قال كوندراتي وقد مال الى ضلع الباب :

– اسمى كوندراتي ايفانوفيتش وليس «اسمع يا هذا» وأنت هل جئت الى هنا لتموت الآنسة ؟ هل حلقت رأسك بهذا الشكل الغريب عمدا ؟

فصاح به الدكتور :

– اسكت يا كوندراتي ايفانوفيتش ! فانا افهم كل شيء !

– ينبغي أن تسمع النصيحة ولا تعقد الامور يا دكتور . لن اعطيك حصانا على أية حال . أما كاتيا فقد ربيتها بيدى ولن اسمح لاحد ، ما دمت حيا ، ان يؤذيها . يجب أن تعالجها بالكلام الطيب وليس بالمستحضرات . فمرضها هو مرض البنات لا أكثر . هل أنت فاهم ؟ طيب . منظرك الغريب اضحكها . هذا شيء جيد . كنت انا نفسي في أيام الشباب ابتدع النكات . وحالما يضحك السيد من كل قلبه يحل النظام في المنزل ونؤدى نحن الخدم واجبنا . تعال اعدل لك شعرك . فالظهور مرة أخرى بهذا المنظر المشوه جلافة لا تثير الضحك .

التقط كوندراتي المقص ومد له غريغورى ايفانوفيتش رأسه طائعا وسأل :

– هل ربيت الآنسة بنفسك حقا يا كوندراتي ايفانوفيتش ؟

– نعم ، بنفسي ، – أجاب كوندراتي ووضع المقص فجأة وأصاخ السمع . فقد تهادت في الرواق خطوات شخص حاول أن يدير مقبض الباب ، وند عنه صوت لعله سعال أو بكاء مكبوت . وقال كوندراتي :

– شخص غريب على ما أعتقد . أليس كذلك ؟

وهدأ الضجيج ، فخرج الخادم العجوز مهموما . وسرعان ما ارتفع صوته : «كلا ، غير ممكن ، اذهبى» ، وجاء صوت نسائي متوسل مستعجل . لكن الطبيب لم يعد مهتما ، فقد اغتسل ومشط شعره ونظف سترته وفكر في نفسه . «طبعا ، لست جميلا ،

ولست رشيقا ، لكن وجهي لا يزال نضيرا ، وخصوصا تعابير العينين» . وتنهد بتحفظ وخرج الى البستان وظل ينتظر أن يستدعوه لعيادة المريضة .

استدار في البستان وراء ركن المنزل وسار على العشب ثم جلس على مصطبة حديدية مقابل النوافذ ووضع يده على رشاشة زهور خضراء قربه .

حوم النحل فوق الاعشاب قرب قدميه وفاحت رائحة البرسيم العسلية ، فانفعل غريغوري ايفانوفيتش لهذه الرائحة وللشمس الدافئة المنخفضة جدا والمنسابة عبر الاوراق على جدار المنزل المطلي ، ولنافذة كاتيا بستائرها المسدلة (فمن الستائر بالذات حزر ان هذه النافذة نافذتها) – انفعل لذلك كما ينفعل للموسيقى ، فضيق جفونه وعرض قفاه للشمس واحس بأن كل ما في داخله يرتخي ويخور (وما حاجته الى ما في داخله ؟) ، فهو كأنما يذوب في الضوء ، في السكون ، ويحتوى كل شيء – السماء وغيومها والماء والاشجار والمرج – كل هذا في داخله . ثم يخيل اليه أن بدنه ينصهر ويتجزأ ، فيقدم عينيه للسماء ، وروحه للغيوم ودمه للماء ويديه للاشجار وجسده للارض . تلك حالة تشبه الموت أو الحلم أو الحب . وفكر في نفسه : «أنا مستعد للتنقل مدى العمر في الطرق والدروب ، بين الاكواخ النتنة ، وما عدا بشاعة منظرى ، وعدم قدرتي على الموت والتضحية بالنفس من اجلها ، كلا ، فانا استطيع أن اضحي بنفسي حالما تأمرني ،

ما عدا ذلك فما الذى يعوزني ؟ لا شيء ! لا أريد غير العيش والاحساس والتهند . . .»

في تلك الاثناء ظهر الامير الكسي بتروفيتش على الشرفة بين الاعمدة التي تقشط طلاؤها في بعض الاماكن حتى بان الطابوق داخلها . كان يرتدى سترة سوداء وبنطالا مقلما . وقد استند بيده اليمنى الى عصا ، وامسك باليسرى قفازه ينش به خائفا نحلة كانت قربه . حلقت النحلة مبتعدة . ونزل الامير على عجل الى البستان وراح ينظر الى النافذة المسدلة الستائر بانفعال شديد وقد وقف على اطراف اصابعه دون أن يرى زابوتكين . ثم قال بصوت عال :

– مستحيل ! هذا يتعدى كل الحدود ! – لوح بعصاه واستدار ومطط شفته السفلى حالما وقع نظره على الطبيب .

«من هذا ؟» – فكر الطبيب وهو يلقى نظرة متفحصة على الامير . وسأله الكسي بتروفيتش :

– أنت الطبيب ؟ من عند كاتيا الان ؟ الا تعرف شيئا ؟

– ماذا حدث ؟ هل حدث مكروه ؟

– كلا ، الاصح اني لا ادرى – أجاب الامير وجلس على المصطبة ، ولمس يد الدكتور وقال بمنتهى الرقة : – لا اسرار امام القسس والاطباء ، اليس كذلك ؟ اخبرني هل هناك وسيلة للتخفيف من آلام القلب أو السيطرة عليه ؟

– البروم ، – أجاب الطبيب .

- طبعا ، لكنني لا أقصد ذلك . عندما يفتح باب السجن امام السجين ويرى الشمس من العتبة يقولون له : «تذكرنا جناية قديمة من جناياتك ، فعد الى السجن . . . » - «لكنني اصلحت ما بنفسي . . .» - «كلا ، عد» . يا دكتور ، زوج كاتيا يجب ان يكون حرا طاهرا ، أليس كذلك ؟

- تريد ان تتزوجها ؟ - سأل غريغوري ايفانوفيتش وهو يحدق في شفتي الامير المحمرتين جدا وفي عينيه القلقتين . وفكر : «يداه بيضاوان تماما» ، واستولت عليه فجأة كآبة شديدة .

وواصل الامير كلامه :

- لست عدوا لنفسي ، وأريد ان تصدق كاتيا أيضا بأني لست عدوا لنفسي . أنا اتعذب أكثر منها . ولم اكن أتردد على كوليفان من أجل الافراح . . . وبالمناسبة فأنت لا تدري . . . جئت لاخطبها . . . ولكن . . . يا دكتور ، اذا وقعت مصيبة هل ستساعدني ؟ وراء هذه النافذة تحال الآن وشاية اخرى ضدي . أنا اعرف ذلك .

التقط أنفاسه وتنهد وتطلع الى عيني الطبيب وابتسم ابتسامة المستكين .

- كاتيا تستحق أن يتألم المرء من اجلها - تمتم الطبيب دون أن يعرف لماذا يقول مثل هذا الكلام وارتبك فأخذ يشغل نفسه بالرشاشة ويحنيها حتى سال الماء من صنبورها .

في تلك اللحظة دوت من وراء نافذة كاتيا صرخة ذابت في صيحة من صوت اجش ، وهرع شخص ما الى النافذة المفتوحة فارتجت الستارة وانقذف من الداخل رأس امرأة حاسر على رف النافذة . وامتدت يدان عاريتان في محاولة لانتزاع اصابع قصيرة مكسوة بالشعر تطبق على رقبتها .

ثم دوت صرخة انثوية يائسة اخرى اقشعر بدن زابوتكين لها ، بينما امتقع لون الامير فقفز من المصطبة مرتعبا وهو يكرر بالم بالغ : «لا تمسها ، لا تمسها . . . » تركت الاصابع المكسوة بالشعر الرقبة فانزلق رأس الامراة من رف النافذة . هم غريغوري ايفانوفيتش بالنهوض لكن الامير تشبث بركبتيه بأصابع خائرة وهوى عليه فتدلى رأسه .

- لا تهتم ، طيب ، لا تهتم ، سيمر ذلك بسلام ، - تمتم الطبيب وراح يبلل جبهة الامير بماء الرشاشة .

الدوامة

١

اسند غريغوري ايفانوفيتش الامير من ابطه واقتاده عبر الشرفة الى الصالة وهو يبحث عن مكان مناسب يمدده فيه . باب الصالة الجانبي يؤدي الى المكتبة . فقال الامير وهو يضغط على يد الطبيب :

«الى هناك» . وفي تلك اللحظة تهادت من داخل المنزل اصوات وصرخات ووقع اقدام .

ما كاد الامير وزابوتكين يصلا المكتبة حتى فتح باب الصالة من جهة الرواق على مصراعيه ولاح في العتمة السائس والحوذى يقودان ساشا من ابطيها . كان فستانها الاسود ممزقا وشعرها مشعثا ووجهها ملتويا بحاجبين مرفوعين واثر الدموع على العينين . وهي تكرر بصوت خافت يائس :

— لماذا ؟ لماذا ؟ . .

ومن الخلف كان كوندراتي يدفعها ، بينما راح فولكوف يسب ويلعن الشيطان ويضرب الباب بجمع كفه صائحا :

— احبسوها في العنبر ، اقفلوا الباب على هذه الساقطة ! . .

ولم يكن قد رأى الامير وزابوتكين اللذين تمكنا من دخول المكتبة قبلئذ .

دفعوا ساشا الى خارج الصالة . واغلق فولكوف باب الشرفة بصخب ومضى الى غرفته شاتما .

ظل الطبيب والامير جالسين على الاريكة قرب خزانة الكتب وقد غرقا في صمت طويل . ارتعشت ركبتا الطبيب ، بينما تجمد الامير واغمض عينيه ومال برأسه الى ظهر الاريكة .

— لماذا حبسوها ؟ — سأل الطبيب اخيرا بهمس وتطلع الى الامير . كان وجهه الذى لا يكاد يرى في الظل المعتم جميلا للغاية . وفكر الطبيب :

«هذا هو الحب الانيق القوى الذى يؤدى الى الاغماء والى الاشواق الخارقة ! الامير زوج حقيقي يليق بكاتيا . حتى الكتب تتحدث عن امثاله» . مال الطبيب على الامير بحذر ولمس يده ، فسأله الكسي بتروفيتش بصوت خافت :

— هل ستبقى معي يا دكتور ؟

هز الطبيب رأسه بالايجاب . وواصل الامير كلامه :

— اخرجوها ؟ ما افظع ذلك . الحياة معقدة يا عزيزى الدكتور . مسكينة ساشا !

انتصب الامير فجاة وعدل قامته كمن يخلع القناع عن وجهه . وقال :

— انني أعرف ما هو نبيل ونزيه ، لكنني أتصرف بدناءة وبلا نزاهة ، وكلما كان تصرفي افظع شعرت بلذة اكثر . . . هكذا يمكن أن أجن . ما الذ ان ينظر المرء الى نفسه عن كثب ، ليرى صورته . سافلا دنيئا يجلس في العربة ويرتدى قبعة رمادية وقفازا أبيض ولا احد يضربه على وجهه ، الجميع يحترمونه ، وهو معجب بنفسه . يكاد المرء يختنق عندما يفهم اعماق هذه الحقيقة . أفليس غريبا ان أعود في الليل من هنا ، من كاتيا ، واتطلع الى السماء والقمر (الى السماء المقمرة من كل بد) واضحك من فرط السعادة بصوت خافت كيلا يسمعني الحوذى . وفي الحال انظر الى نفسي عن كثب وأرى ان اقتراف الكبائر امر فظيع في حين يفوح عطرها من راحة يدى . وعندما أكاد اختنق أوقف

الجياد أمام خان ساشا وأدخله وامسك بيدها وأميل
براسي على صدرها واتمتم ؛ «ساشا ، عزيزتي ،
ريحيني» – وتريحني قدر ما تستطيع . وبعد أن
ارتاح وتهدأ نفسي احدثها عن سبب مجيئي اليها ،
وتلك أعلى درجة من الدناءة . أنا اكذب عليها من
جديد ، بينما قلبها يتفطر . . . وعلى هذا النحو
شددت النابض اقوى فاقوى ، حتى انفجر
الآن .

– اسمع ، هذا تصرف فظيع . يبدو أنك جننت .
– همس الطبيب وابتعد قليلا عن الامير . لم يكن قد
أدرك تماما ، لكنه أحس مجرد احساس بان الامير ،
وهو يتخبط ويتملص ، قد تعرى وانكشف . وشعر
الطبيب بتقزز غامض . فراح ينتف لحيته القصيرة
ثم نهض وأخذ يجوب الغرفة جيئة وذهابا .

– أجل ، هذا تصرف فظيع ، – واصل الامير
كلامه ، وكان صوته معتدلا وكأنما هو يتفحص نفسه
بعين ثاقبة . – والافظع منه اني كذبت الآن عليك
أيضا . . . فمن الصعب جدا ذكر الحقيقة كما هي .
يلف المرء ويدور حولها ، ويكاد يذكرها بالكامل ،
ثم يلتفت فلا يراها ، لقد هرب من الحقيقة بطريق
متعرج منحرف ، وكأنه يكتب يومياته . . . هل
حاولت كتابة اليوميات ؟ لا تجرب . صورت نفسي
امامك الآن وكأني انسان يحمل اعباء ثقيلة . . .
اى انسان ؟ ! واية اعباء ؟ ! أنا مجرد شخص فيه
عيوب ، وعاء مثقوب ، مثل رجلي هذه . اخترقتها
الرصاصة هنا ، ويخيل الي اني استطيع أن أمدها

بالكامل ، لكنها لا تطاوعني . الا ترى كيف التوت
من جديد ؟ . . أحاول دوما الا اعرى ما هو اساسي
في مكنون نفسي . . . نعم ، وربما يلزم المرء أن
يشرب الكثير ليستطيع أن يعرى نفسه . . .
صدقني ، يا عزيزى الدكتور ، انا احب كاتيا أكثر
من حبي للحياة ، واذا رفضتني الآن ستكون تلك
نهايتي . تلك هي الحقيقة . . . عرفت ذلك يوم
امس ، ففي الامس كان الامتحان الاخير ، ولم
اتحمل ، مع انه لم يكن هناك طبعا اى امتحان .
مجرد تهور بسيط . جئت الى هنا ليلا واغتسلت
بجمال كاتيا وبضوء القمر وتطهرت عندما كشفت
لها قلبي . . . انها فتاة رائعة ، بينما القيت على
كاهلها كل ما كان يثقل كاهلي . وفي الصباح ارسلت
الحوذى الى ساشا وامرته بأن يقول لها : «لا تفكرى
بالامير ، فهو مقبل على الزواج . . .» لم تتحمل
ساشا ، فجاءت الى هنا سيرا على الاقدام . . .
وكنت أعرف بأنها ستشي بي .

– كل هذا كذب ! – هتف الطبيب فجاة وأراد
ان يضيف شيئا لكنه تلعثم وانعقد لسانه فأخذ
يجوب غرفة المكتبة من جديد وينتف لحياته .

– يا دكتور ، – قال الامير مستعطفا بصوت
لا يكاد يسمع – اذهب الى كاتيا وحدثها بكل شيء ،
وستفهم . . .

– لن اذهب ولن احدثها ! – صاح غريغورى
ايفانوفيتش . – حدثها بنفسك . انا لا أفهم شيئا ،
ولا اطيق المجانين .

مال برأسه الساخن الى الزجاج . خيم الظلام حالكا ، ومن وراء الاشجار بزغ القمر البرتقالي قرصا كابيا غير مكتمل وكأنه مرآة تعكس شجون هذا العالم الكئيب .

وفكر الطبيب : «ماذا أستطيع أن اقول لها ؟ هل أقول لها انه اناني ومجنون ؟ كيف اقول ذلك وهو يحبها ؟ لا أدرى . . . أنا لا افهم مثل هذا الحب . لو كنت في مكانه لتطلعت اليها وبكيت دون ان اقول شيئا . . . فهل يستطيع المرء ان يقول للغيمة انه يحبها» ؟

حينما كان الطبيب غارقا في تأملاته تكثف ضوء القمر وانساب باردا على ندى الاوراق ورسم ظلالا طويلة . وحوم فوق الاعشاب ضباب خفيف . وأنار ضوء القمر عبر نافذة المكتبة شطرا من وجه الامير ويده التي دس ابهامها في صديريه . ولمعت الزوايا النحاسية لخزانة الكتب .

وانتفض الطبيب فجأة . فقد مرت كاتيا مسرعة أمام النافذة (عرفها من كتفيها المكورتين ومن رأسها الانوف) والتفتت قرب منعطف الممشى ثم ركضت فتطاير الشال الابيض وراء ظهرها . . .

التفت الطبيب وقال بسرعة :

– ذهبت راكضة الى البستان .

قفز الامير وفتح النافذة على مصراعيها ، وهمس :

– هيا ، فلنسرع !

وخرجا على عجل .

٢

العنبر الخشبي ينتصب منعزلا في المرعى بين الساقية التي تبدأ منها حدود البستان وبين اكداس القش المستطيلة . وتحت سقيفته رصفت الزحافات والمسالف . ويتدلى قفل ضخم من الباب الذى نجرت في اسفله كوة مربعة للقطط .

وتناهت من وراء الباب تأوهات ونحيب خافت .

ركضت كاتيا في المرعى من الساقية حتى العنبر وتوقفت لاهثة قرب بابه ثم جثت على ركبتيها وقربت وجهها من كوة القطط وهتفت :

– ساشا ، أنت هنا ؟ أنت تبكين ؟

توقف النحيب وراء الباب واحست كاتيا بانفاس ساشا تلفح وجهها ، بل ورأت عينيها . وقالت :

– لو كان المفتاح عندى لاطلقت سراحك .

تنهدت ساشا ، فمدت كاتيا يدها اليها وداعبت وجنتها :

– ساطلب من كوندراتي أن يأخذ المفتاح من بابا خفية ، وسنطلق سراحك بعد فترة . ساشا ، خبريني . . . قربي خدك لاقبله . . . ياعزيزتي خبريني هل أنت متألمة جدا ؟ سأجعله يعود اليك من كل بد . فأنت لم تفهميه ، كان يمزح معك . ما قاله عني سخافة . . . فهو لم يتردد علي وحدى ، كان يأتي الى أبي أيضا . لكنك أنت المذنبة . لماذا ذكرت كل شيء بحضور بابا ؟ . ساشا ، يا

عزيزتي ، لم يحدث أى سوء . فكرى في الموضوع بهدوء . سيعود اليك غدا .

لكن ساشا بكت بكاء مرا وهي تدق الباب براسها . ولمست كاتيا صدغيها باصابعها واخذت تتلفت ، فكيف تهدئها ؟

وتمتمت ساشا :

– انا أتعس خلق الله . ساتحمل التعذيب من أجله . كنت أعرف انه يكذب علي ويسخر مني ، وان عذابي يهدهد كبرياءه . لكنني لم احتمل . . . عندما جاء السائس وقال وهو يضحك : «سيدى يأمرك بان لا تفكرى به ويأمرك ايضا ان تنامي معي» . تجمد الدم في عروقي . . . وفقدت عقلي ، وركضت من البيت وأنا افكر : هل أذهب اليه ام الى النهر لانتحر ؟ وفي تلك الاثناء مرت بي ابنة عمي في العربة وأخذت تضحك علي وتقول : «ماذا ؟ الم يأت الامير اليك ؟ اذهبى الى الطريق وناديه . . .» لا ادرى من اين جاءنى ذلك الحقد . . . فقررت ان اطلعك انت ، ياسيدتى ، على حقيقة الامير . . .

هبت كاتيا ناهضة ثم جلست على العتبة ووجهها الى البركة . كانت خيول قاتمة تقف على ضفتها ، والقمر يسبح وحيدا في السماء الشاهقة الخالية بعد أن أطفأ كل النجوم حواليه .

اسندت كاتيا حنكها براحة يدها وأخذت تفكر مبتلعة دموعها : «ما هذا الهراء ؟ ! لقد تلقيت عقوبة

صارمة ، ويجب أن انساه» . وبدا لها ضوء القمر قطنيا ضبابيا في صحراء زرقاء .

– يا آنسة ، –نادتها ساشا – يا عزيزتي الحلوة ، اصبرى عليه ، تحملي ، حاولي أن تحبيه ، فانت أيضا امرأة . ولو كنت قادرة لما تنازلت لك عنه . صعب علي . لكن ربيع عمرى انقضى ، وجاء دورك في معاناة الآلام . . .

نهضت كاتيا دون أن تسمع خاتمة هذا الكلام ، وتطلعت الى باب العنبر وارادت أن تجيب ، لكنها لاذت بالصمت وابتعدت ثم استدارت وراء ركن العنبر ، فندت عنها صرخة خافتة وتوقفت متحجرة .

كان الامير جالسا على المسالف المرصوفة واسنانها الى الارض .

وتمتمت كاتيا عندما رأت الطبيب من بعيد في المرعى يبعث الى الامير اشارات يائسة :

– كم الساعة الآن ؟ اعتقد أن بابا ينتظرني على العشاء .

تململ الامير وهم بالنهوض ، فاستدارت كاتيا على عجل ومضت الى المنزل .

٣

اختص الله فولكوف بطباع متميزة ، لكن العناد الشديد كان في مقدمة تلك الطباع . الا ان خطوبة الامير كراسنوبولسكي بددت قلقه في الحال ، لاسيما

وانها تدارى كبرياءه ، لان عائلة الامير تتحدر من سلالة ريوريك * ، وكانت في حينه من حاشية القيصر . حالما تذكر فولكوف سلالة ريوريك (عندما عاد مع الامير من ضيعة ميلويه) شعر بالامتعاض متصورا ان الكسي بتروفيتش يمكن ان يتغطرس ويتكبر ، فدفعه بكتفه وضغطه الى ركن العربة كي يؤلمه ، الا ان الامير لم يفهم هذا التصرف الرقيق . لكن امتعاض فولكوف لم يدم طويلا ، وكيلا يتمادى في التفكير بالاهانة قرر في الحال ان يقدم مهرا مدهشا للعريس وكاد يعلن عن قراره هذا ، بيد ان امرأة حمقاء اثارت الفضيحة فور وصولهما الى ضيعة فولكوفو ، وافسدت عليه الامور .

وعندما صب الكسندر فاديميتش جام غضبه على ساشا ادرك ان التهور والهياج لن يجديا نفعا ، لكن السيل بلغ الزبى ، فانزوى فولكوف في مكتبه كئيبا وجلس الى طاولة الكتابة .

«سازوجها من هذا المحتال حتى لو كلفني ذلك حياتي» — فكر وراح يلوم الامير اشد ملامة ، ثم غضب على ابنته ايضا .

واخيرا قادته التأملات الطويلة الى فكرة غير متوقعة هي ان كل ما حدث سخف في سخف ولا توجد اية كارثة في العلاقات بين كاتيا والامير . فهل هو الشخص الوحيد الذى زنى ؟ ليس عبثا ان العالم

* سلالة الامراء والقياصرة الذين حكموا روسيا من اواخر القرن التاسع حتى القرن السادس عشر . **المترجم** .

منقسم الى قسمين ، فبدون ذلك يقتلنا الملل والضجر .

عند ذاك ضرب بقبضته على الطاولة وهتف : «ساصالحهما !» ولكي يتهيا لهذه المهمة ويحسن مزاجه اخذ يفكر عمدا بأمور قد تبعث على السرور .

التقط قلما وبحث عن الورق فعثر على ورقة ذرق عليها الذباب فرسم ارنبا .

— لماذا تهرب يا احول ؟ — تمتم فولكوف — الا تريد ان ارسم لك ثعلبا ؟ — ورسم ثعلبا خلف الارنب ، وراح يكلمه : — الا تريد لحم ارانب ؟ انت ماكر ، ولكن الا تخاف من الذئب ؟ ها هو الذئب العريض الجبهة ، ها هو يركض وذنبه منتصب كالخشبة . سيأكلكما معا يا عزيزى . لكنني ساطلق الكلاب عليك يا ذئب ، كلابا اصيلة حادة الانياب . هيا يا كلاب ، اهجمي عليه ، هيا !

رسم فولوف كلابا وتحمس لها حتى انه نهض قليلا عن مقعده وضربه بيده حتى تألمت ، متصورا ان المقعد حصان رهوان ، ثم القى بالقلم جانبا وضحك وخرج من المكتب راضيا وامر ، في طريقه ، بدعوة الجميع لتناول العشاء .

اسرع ابنا الطباخة يبحثان عن الضيفين ، بينما توجه فولكوف الى ابنته . كانت جالسة بملابسها على السرير .

— يا بنتي ، انتهى الهرج والمرج على ما اعتقد ، فتعالى نتعشى .

ارادت كاتيا ان ترفض ، لكنه زمجر على نحو جعلها توافق في الحال .

– طيب ، سآتي يا بابا .

وجد صبيا الطباخة الضيفين يجوبان المسافة بين العنبر والساقية جيئة وذهابا . عندما سمع الامير صوتا يناديه استدار بسرعة متوجها الى المنزل ، اما الطبيب فاخذ يقنع الصبيين بانه لا يرغب في الاكل ويرجو ان يعدوا له الخيول . ومع ذلك اسرع ليلحق بالامير .

في غرفة الطعام الصغيرة استقبل الكسندر فاديميتش الضيفين قائلا :

– أعتقد ، يا سيدى ، ان القوة كلها في البطن مهما جرى من احداث . تفضلا .

وأوما بيده الى المائدة المستديرة وجلس قبل الاخرين ولف الفوطة حول عنقه .

دخلت كاتيا شاحبة جدا والظلال تحت عينيها . جلست الى المائدة بسرعة قبالة ابيها دون أن تنظر الى احد . كان محياها هادئا انوفا ، بيد ان عرقا كان يدق وينتفض بالكاد قرب الحنجرة على جيدها المكشوف .

– ها هي ابنتنا المريضة ، – قال فولكوف – لكنك ، يا كاتيا ، لم تسلمي على الامير . . .

– سلمت عليه ، – أجابت كاتيا بحدة .

اشرأب الكسي بتروفيتش واستطال في مقعده وكأنه يختنق . أما غريغورى ايفانوفيتش فقد خفض رأسه وأخذ يغرز الشوكة في السفرة .

الا ان فولكوف عنيد شديد المراس وليس من السهل امتطاؤه . امسك بشاربيه واستند الى المائدة واحتوى الجميع بنظرة من عينين مرحتين . واستمر الصمت . وزع كوندراتي الاطباق وصب النبيذ في الاقداح دون ان يسمع لخطواته حفيف . وكان الطبيب الذى تندت راحتاه ، اول من تطلع الى رب الاسرة . كانت عينا فولكوف تومضان بضحكة لم يستطع السيطرة عليها .

– سخافة ! – صاح وطبطب على المائدة – ما لكم منتفخي الخدود كالفئران . فماذا حدث ؟ أية مصيبة ؟ لا داعي للاحزان يا كاتيا . طالما الدكتور موجود هنا فانا اصرح انى بحاجة الى حفيد ! اجل ، هل انتما خجلان أيها المحتالان ؟ ما هي الامور تترتب . . . ولا جدال بعد الآن !

وللمزيد من التاثير غرق في قهقهة عالية حتى خيل اليه ان الجميع ، حتى كوندراتي ، سيمسكون بطونهم من شدة الضحك . الا ان عيني فولكوف شبه المغمضتين لاحظتا تماما ان القهقهة اخفقت . فقد ابتسم الامير ابتسامة متوترة ، وهم الطبيب بايصال فخذ الدجاجة الى فمه ، وظل جامدا على هذه الصورة وتجعدت جبهته بغضون عميقة تنم عن الالم . اما كاتيا فقد سلطت على ابيها عينين مفعمتين بالغضب والكآبة وقالت وهي تضبط نفسها بالكاد :

– كفاك يا بابا . ساذهب اذن – واحتقنت وجنتاها في الحال بلون وردى داكن . ثم نهضت .

– قفي ! لا تذهبي ! – صاح فولكوف بغضب شديد – ها انا اعلن الخطوبة . هذا هو العريس وهذه هي العروس . تعال ايها الامير واركع امامها واعتذر .

بهت لون الامير وشحب وجهه . نزع الفوطة على مهل ونهض ورفع كتفيه بتظاهر فارغ واقترب منها بمشية وقحة وانتشل يدها وضغط عليها وقال بصوت بغيض :

– آمل ، يا عزيزتي ، ان تسامحيني على ماضي .

سحبت كاتيا يدها ببطء ، كما في الاحلام ، وامتقع لونها حتى الاخضرار وصفعت الامير على خده بكل قواها .

٤

على هذا النحو غير المتوقع اضطرب العشاء بعد ان اعد له فولكوف بكل دهاء . ظل الامير واقفا مطاطا الرأس ووجهه الى الباب الذى خرجت منه كاتيا على عجل . وغطا الطبيب وجهه براحتيه . بينما اهتاج فولكوف والشوكة والسكين بيديه وراحت عيناه تتراقصان .

وفجاة دخل كوندراتي . شفتاه ملتصقتان بحزم وعيناه تتطايران شررا ، اومأ بابهامه عبر كتفه ودمدم :

– يقول السائس الصغير ان المراة التي في العنبر هربت ، وهي تتخبط في الماء . . .

– فلتذهب الى الشيطان ، – زعق فولكوف في سورة من الغضب – اذهب انت واياها الى الشيطان ! هل فهمت ؟

هز كوندراتي راسه وانصرف في الحال . وسحب فولكوف الفوطة من رقبته وفكر قليلا ثم رماها وركض بساقين متباعدتين للحاق بابنته في الرواق .

اما الامير فقد جلس الى المائدة وصب لنفسه نبيذا واسند خده المحتقن وابتسم بمرارة ، وقال :

– كل ذلك تفاهات .

تنحى الطبيب عن المائدة فورا وهو يرتعش حتى اصطكت اسنانه . ومن بعيد تهادى وقع خطوات فولكوف بعد ان بلغ آخر الرواق وتناهى من هناك صوته المكبوت .

وقال الامير :

– «تتخبط في الماء» ، أليس ذلك مضحكا ؟

ابتسم وارتجت كتفاه واقترب من العتبة على اطراف اصابعه ، ومال على ضلع الباب فقد خانته قواه للحظة ، ثم خرج .

وفكر الطبيب : «سيهلكون جميعا اليوم بالذات . ترى ، ماذا يفعلون ؟ كل ذلك بسبب الامير ، فهو كالعدوى . لماذا لا يطردونه ؟ . لابد من طرده . ساقول لكاتيا : لا تحزني ، فانا أحبك مثل . . . مثل ماذا ؟ أنا احمق ! ساذهب من هنا سيرا على الاقدام ، في الحال . انني لا أفهم شيئا . فاى حب يريدون ؟ انهم يريدون أن يتعذبوا ولا يحبوا . اما أنا فساعيش بدونها . لدى الكثير ، وهو يكفينى مدى العمر . . .

ستنتحر متسممة ، ستنتحر من كل بد ، اما أنا فاهتم بنفسي . ما الذى يفرحني ؟ انني نذل لئيم ، اذا كنت افكر بنفسي فقط . الكل يفكرون بانفسهم فقط . الامير ، وفولكوف ، وانا ، عذبناها جميعا بتفكيرنا هذا . . عذبناك يا قديستي المسكينة . . .

اختلط الامر على غريغورى ايفانوفيتش واستولت عليه الكآبة حتى لم يعد يدرى هل يتعين عليه أن يذهب ام ينتظر . وكيلا يسمع تلك الاصوات الفظيعة في آخر الرواق مضى الى البستان ووقف قرب الشجيرات القاتمة وهو يستعيد في ذاكرته ما حدث من امور مهولة اخرى ، ثم توجه عبر المرعى نحو العنبر وفكر وهو يتطلع الى بابه المفتوح : «وقعت ساشا ايضا في هذه الدوامة التي يشتد دورانها فتبتلع كل ما في الوجود . . .»

وعند ذاك فهم قول الامير : «تتخبط في الماء ، اليس ذلك مضحكا ؟» لقد القت ساشا نفسها في البركة . . . لا شك . . . هربت من هذا الباب ، عبر المرعى ، الى البركة !

صرخ الطبيب وركض ملوحا بيديه . على ضفة البركة حيث الماء اسود في ظل الصفصاف وقف كوندراتي وسائس الخيل . وامامهما على العشب ساشا ممددة على ظهرها . وجلس السائس الصغير القرفصاء وراح يتطلع في وجهها الابيض الجامد وفمها المفتوح .

وقال السائس للطبيب الذى جاء راكضا :

– لا بأس ، ستعود الى رشدها . كانت تتنفس عندما سحبتها من الماء . ستعيش اذن .

– ستعود الى رشدها . مجرد اغماء ، – قال كوندراتي .

جثا غريغورى ايفانوفيتش قرب ساشا وفتح بلوزتها السوداء فتطايرت ازرارها ووضع اذنه تحت نهدها المتصلب النافر . كانت لا تزال دافئة . فاخذ بنشر يديها ويطويهما ضاغطا على بطنها ، ويرفع جسدها الثقيل ويخفضه . وحدثه السائس وهو يساعده في رفعها وخفضها فقال :

– رأينا امراة تركض . ففكرت انها هي ولا بد . وناديتها «ساشا ، ساشا» . فاقتربت مني وهي ترتجف كالمحمومة . وسألتها : «السيد اطلق سراحك ؟» فاجابت : «نعم» وهي تنظر الى الماء . وسألتها . «الى أين ستذهبين يا ساشا ؟» فاجابتني : «وداعا» ، وبكت بكاء شديدا وتوجهت الى السد . وقد ضحكت آنذاك لبكائها الشديد . لكنها وصلت الى السد ونادتني «يا سائس ، أنت هنا ؟» وصحت بها : «اذهبي ، اعبرى السد» ، وارتعبت . . . وفجاة رمت بنفسها الى الماء . . .

وقال السائس الصغير :

– يا عم ، كانت تنادى غيرك من السد .

– اخرس ، ايها الصبي المزعج ! – نهره السائس الكبير ونقر باصبعه على قفاه الحليق .

انحنى الطبيب على فم ساشا وحاول ان ينفخ الهواء فيه وهو يوسع صدرها ماسكا كتفيها بيديه .

وفجاة ارتعشت شفتاها الباردتان ، فاشاح الطبيب بوجهه على عجل وكانه يخجل من قبلة مفاجئة . ودبت الحركة في بدن ساشا ، فرفعوها واجلسوها . وسال الماء من فمها المفتوح . وزاغ بياض عينيها ، وند عنها انين . فقال كوندراتي :

– ينبغي ان ننقلها الى كوخ البستاني . يا لها من حمقاء . . .

٥

في آخر الرواق الابيض وقفت كاتيا وظهرها الى الباب المغطى بالسجادة وقد ضغطت شفتيها بعناد كيلا ترد على أبيها وهو يحاول ان يمسك بيدها التي خبأتها خلف ظهرها . ووقف الامير تحت القنديل المعلق على مقربة منهما .

– سارغمك على الاعتذار منه – كرر فولكوف متلعثما لشدة الغضب . – من أين لك هذه العادة الجديدة ؟ من علمك الضرب على الوجه ؟ اعطني يدك . هيا . أقول لك . اعتذرى منه !

الا ان كاتيا التصقت بالسجادة الملونة وانفرطت ضفيرتها وتناثر شعرها على الكتف وبرزت ركبتها المكورة فشدت حرير الفستان الرمادى الذى طوق خصرها تحت النهدين الناتئين .

لاحظ الامير ذلك والقى نظرة على ركبتها فشعر بالالم المعهود في الصدر . شعوره بالالم شديد وواضح . فالركبة التي برزت صدفة قد عرت امامه

كل الاغطية ، ولاحت كاتيا في تصوراته زوجة وامرأة ومعشوقة . عض شفتيه اليابستين وتحرك على امتداد الجدار .

– هل تمزحين ؟ أم يتراءى ذلك لي في المنام ؟

– واصل فولكوف اقناعها . فلم يكن صادف ابدا مثل هذا القدر من المنغصات دفعة واحدة . وخيل اليه للحظة ان هذا حلم من الاحلام ، وضرب الارض برجله وصاح : – اجيبي يا صخرة خرساء ! – الا ان البنت ظلت صامتة ، فكرر الاب قوله وهو يرتعش : – اعتذرى ، اعتذرى !

– كلا ، أبدا ، اموت ولا اعتذر ! – قالت كاتيا بسرعة . ونظرت الى الامير وهو يقترب ببطء فتحرك حاجباها . لم تفهم نظرته . على أى شيء يسلطها ؟ ولماذا يقترب ؟ فراحت تراقبه حتى اشراب عنقها ، ثم فهمت في الحال وتوردت وجنتها ورفعت يدها . . .

هرع الكسندر فاديميتش نحو ابنته كي يمسك بيدها ، لكنه افلتها فندت عنه صيحة غاضبة ، اما الامير فقد اقترب منها وتمتم بصوت مكبوت :

– يا كاتيا ، ارجوك ، استعطفك . لا ترفضي طلبي .

كانت عيناه جامدتين متخشبتين فظيعتين ، وكان وجهه متحشفا . وهتف فولكوف :

– الا ترين يا كاتيا ؟ ! آه . اتركا الحماقات ، يا عزيزى ، وقبلا بعضكما !

لكن كاتيا خفضت رأسها ولم ترد عليه .

وعندما اراد ابوها ان يستحث الامير على التقدم نحوها تملصت وانزوت خلف السجادة على عجل وصفقت الباب واغلقته بالمفتاح .

— عجيب ، كلا ، لن تهربي ! — زعق فولكوف .

مال بثقل كتفه على الباب ، لكنه لـم ينفتح ، فراح يطرق عليه بقبضتيه ، ثـم استدار ورفسه بكعب حذائه .

— اتركها ، لا داعي لذلك ، فلنذهب ، — همس الامير بانفعال شديد . — انا أعرف بـم ستجيب . فلنذهب ، لوجه المسيح .

وتعين على الامير أن يبذل جهدا كبيرا في اقناع فولكوف العنيد . وأخيـرا مسح هذا العرق من وجهه وقال :

— هكذا ، يـا اخي ، ليس من اليسير تزويج البنات . تلك قضية صعبـة تجعل الانسان يتصبب عرقا . لكني ارجوك ان تسكت ولا تتدخل . سادبر الامر بنفسي .

عندما انتهى الطرق على الباب وخفتت الخطوات ارتمت كاتيا على السرير وغرزت وجههـا في الوسادة واحتضنتها بكلتا يديها .

— لقي ما يستحقه . حسنـا فعلت ، — كررت كاتيا وهي ترى عيني الامير المتخشبتين الفظيعتين (وكأن الوسادة شفافة يرى ما وراءها) . كانت تخشى فهم مـا قرأته فيهما فراحت تكرر تلك الكلمـات الغاضبة ، لكن هذه الكلمات فقدت حدتها ومغزاها ، حتى لكأن غضب كاتيا كله تجسد في التلويحة البشعة

من يدهـا التي صفعت خد الامير ، فصارت تلك الصفعة عروة وثقى ربطتها به باشد من رباط الحب .

«يا الهي ، امح هذا اليوم من الوجود» — راحت تكرر بانزعاج ، فهي لا ترى طريقـا للخلاص . لقد تهشم حقدها وغضبها وغيرتها وارادتها الشماء ، كما يتهشم الزجاج ، بتلك الصفعـة . والان صار في مقدور الامير ، طبعا ، ان يأخذهـا كجارية له او يتركها ، فهو الان حر يفعل ما يشاء . . .

ولسعتها الذاكرة كاللهيب عندما ومضت فيهـا صورته وهو يشد ازرار سترته ويقترب منها قائلا : «آمل ، يا عزيزتي . . .» — «طبعا ، كل ذلك تصنع . الم يكن يتعذب آنذاك ، عندما حدثني في التعريشة ؟ ام انه كان يكذب ؟ فهـو لم يذكر ساشا آنذاك بكلمة . . ثم هل هي جديرة بالحب ؟ ! . . ليس ذلك حبا ، بالطبع ، بل تهتكا فظيعا لا يطاق ! ابي كاد يخنق ساشـا ، وليس ذلك صدفة بالطبع» . ودوى صراخ ساشا في اذني كاتيا من جديد . فجلست بسرعة على السرير . «ثم مـا قيمته اذا كان يسبب مثل هذه الآلام ؟ فيم يكذب ؟ ماذا يريد ؟ ماذا يريد من تلك ومن ساشا ومني ؟ . . من يحب منا ؟ ما حاجته الي ؟ هناك حاجة اذن ، اليس كذلك ؟ هل هو غريب علي ؟ الم يحبني اطلاقا ؟ ما العمل ؟ اعرف بانه سيبقي مصرا ، وساتزوجه ، انا أعرف ذلك . نعم ، ساتزوجه ، اتزوجه رغم انف الجميع ، اتزوجه وآخذ ثأرى ، حتى لا يتجرأ على المقارنة بيني وبين

هذه وتلك . . . ساتحمل الآلام عمدا . حب فاشل ، فلا داعي له . . . لا اريد أى حب» .

دلت كاتيا ساقيها بجواربهما البيض من السرير واسندت خديها بيديها فتساقطت دموع غزيرة على فستانها وعلى ركبتيها . واحست بشدة اكثر ان لا مخرج لها الآن ولا حياة . كادت تصرخ لكنها كتمت صراخها وراحت تنتحب بحرقة ومرارة .

واخيرا روح البكاء الطويل عنها . ففتحت ببطء ازرار فستانها المدعوك وهي لا تزال تتأوه واقتربت من المرآة وكتفاها تنتفضان . ورأت وجهها جديدا تماما في المرآة العميقة التي انساب عليها ضوء من الجانبين وهمست متمعنة فيه بيأس وقنوط : «ما اجملك يا كاتيا المسكينة !» وفيما بعد ظلت جالسة امام المرآة حتى ساعة متأخرة من الليل وهي تفكر بنفسها بحزن وهدوء وكان فرحتها في الحياة انتهت بانتهاء هذا اليوم .

القسمة والنصيب

١

بقى الامير في ضيعة فولكوفو ، خصصت له الغرف الامامية واحضرت حاجياته المنزلية من ضيعته في ميلويه . لازم هذه الغرف ولم يغادرها الى اى مكان . كان منذ الصباح يضطجع على الاريكة حليق الذقن ، مهندما ، بكامل بزته ، ويقضي الوقت في التفكير وفي تفحص اظافره . وعندما يلوح من الباب

راس الكسندر فاديميتش العائد بانباء عن سير المفاوضات مع ابنته يتظاهر الامير بالنوم .

كان الكسي بتروفيتش يدرك تماما ان بقاءه هنا ، قرب كاتيا ، هو ملاذه الوحيد والوسيلة الاخيرة لخلاصه . وكان يدرك أيضا ان كل يوم جديد من مكوثه في فولكوفو يزيد من الامل في موافقة كاتيا . فقد أخذت الالسن في القضاء كله تلوك نبأ الصفعة ونبأ ساشا وتضيف اليهما تفصيلات تجعل النساء يهربن من الغرف لدى سماعها . ثم ان هذا الوضع بدا ملائما جدا لالكسندر فاديميتش نفسه . كان يتوجه في الصباح الى ابنته ويجلس على المقعد قرب النافذة ويقول :

— تفو . رائحة المساحيق تزكم الانف . ماذا ؟ تتجملين ؟ — وكان يتأوه ردا على نظرة كاتيا اللامبالية . ويواصل كلامه : — لا ادرى ماذا تريد هؤلاء الفتيات ؟ هل تريدين ملاكا من السماء ؟ لنأخذ المرحومة والدتك . كانت امراة انيقة للغاية بتربية انجليزية ، لكنني الححت عليها فتزوجتني مع انها بكت كثيرا بالفعل . تلك هي القضية يابنتي . ستبكين قليلا ، لكنك ستصبحين اميرة .

كان يترك ابته ويتوجه الى الكسي بتروفيتش ويجلس على الاريكة قرب رجليه ، اذا لم يكن هذا يتظاهر بالنوم ، ويهزه من ركبته قائلا :

— مقاومتها تضعف . شيطانة ، والحق يقال . لماذا افرطت بالتهتك ؟ ! طالما اخطأت كان يجب عليك ان تصمت . الشيء الوحيد الذى لا افهمه هو

لماذا لم تخطبها حتى الآن ؟ لو فعلت لعقدنا القران حتى تتمكنا من السفر الى الخارج .

– حقا ، انا ايضا لا أفهم لماذا لم اخطبها سابقا ؟ – كان الامير يجيب ، ثم يضحك مع نفسه بعد ذهاب فولكوف .

جرى اللقاء الاول بين الخطيبين على مصطبة في البستان . جاء فولكوف بالامير في البداية ، ثم جاء بكاتيا ، وهتف : «اوه ! العجول دخلت توت العليق» ، وانصرف راكضا كانما ليطرد العجول .

ظل الامير وكاتيا صامتين أمدا طويلا . فهي تعبث باطراف منديلها ، بينما انشغل هو بالتدخين . وأخيرا القى بالسيجارة وأشاح بوجهه وقال :

– لو رضيت بي طائعة واحببتني من تلقاء نفسك لما تزوجتك . – بهت لون كاتيا وشحب وجهها وتشوشت اهداب المنديل بين اصابعها المضطربة . ظلت صامتة .

وقال الامير بصوت خافت كئيب :

– فلننه المسالة ، ونعقد القران .

طغت صبغة الخجل والغضب على وجنتي كاتيا ، فاستدارت نحوه بخدة وصرخت فيه :

– اكرهك ! انت تعذبني ! تقتلني عمدا ! ألم تجد غيري في هذه الدنيا ؟

– كاتيا ، انت ذكية جدا ، ويجب ان تفهمي كل شيء – قاطعها الامير على عجل – هل نعقد القران في الاسبوع القادم ؟

– نعم ، – أجابت بصوت يكاد لا يسمع ونهضت . وقفت لحظة ثم مضت لا تلوى على شيء .

٢

اعتاد الناس من قديم الزمان على تناول المتبلات في الولائم .

الا ان اى طبق من هذا النوع ما كان بوسعه ان يطفئ اوار وليمة الزفاف في ضيعة فولكوفو ، حيث اجتمع كل اهالي القضاء تقريبا . تقاطرت العربات من كل شاكلة وطراز وهي تنهب دروب القرى وطرق البريد كما لو كانت مسرعة الى سوق حافلة بالمرح والمسرات . من اين للقضاء ، يا ترى ، بهذا العدد الكبير من النبلاء ؟ !

لم تتسع كنيسة كوليفان الصغيرة الا للشيوخ والعجائز والسيدات والبنات . اما سائر الضيوف فقد توزعوا على جانبي مدخل الكنيسة حاملين الزهور والهرطمان لينشروها على الامير والاميرة .

كان الاب فاسيلي في غفارة مذهبة يرتل الكلام بصوت معسول ، بينما وقف العروسان جنبا الى جنب على منديل ارجواني ، وحمل الايقونة قربهما غلام بقميص ازرق . وسرت بين السيدات همهمة ولغط خافت . وكانت كاتيا ، والشمعة بيدها ، تتطلع الى اللهيب برزانة واطمئنان . وهمست السيدات : – ما اروعها ! ملاك !

وبدا الامير الشاحب قميئا في البدلة السوداء

الطويلة ، ولاحت عليه امارات الجد وهو يؤدى مراسيم القران بكل اهتمام .

عندما قدم له القس كاس النبيذ لمس حافتها بشفته ، بينما تجرعت كاتيا الكأس حتى الثمالة ، دفعة واحدة ، وكأن العطش قد ألم بها ، وانشد الكورس «ابتهج يا اشعيا» ، وأخذ القس يد العريس ويد العروس وربط بينهما . دفعت كاتيا بركبتها ثوب الحرير ومضت بسرعة حول المقرأ وهي تجرجر اطراف ثوبها ، وجهد الامير للحاق بها فانتبه الجميع الى انه يعرج بشكل ملحوظ تماما . وتوصلت السيدات الى استنتاج قاطع :

— كلا ، انه ضئيل بالمقارنة معها .

تحرك الركب والعروسان في مقدمته من الكنيسة الى فولكوفو . وعندما خرجوا من قرية كوليفان رأت كاتيا الدكتور زابوتكين يتسلق السياج ويلوح لها بمنديل . فاشاحت بوجهها على عجل .

في الصالة الكبرى استقبل الكسندر فاديميتش العروسين بايقونة قديمة عليها وجه المخلص . باركهما وامر باحضار المهر على مرأى من الضيوف . جلب اربعة فتيان يرتدون قمصانا حمراء قانية صينية فضية كبيرة عليها قطع نقدية ذهبية مرصوفة بشكل اعمدة . وقال فولكوف :

— هذا ما لدينا ، فلا تعتب علينا يا امير .

وبعد التبريك مضى الامير والاميرة الى بابين مختلفين واستبدلا ملابسهما هناك ، ثم التقيا في البستان وجلسا على ضفة البركة حتى تم تجهيز

عربتهما . هرع بعض الضيوف متزاحمين من داخل المنزل واشرابت اعناق البعض الاخر من النوافذ وودعوا العروسين بصيحات وهتافات صاخبة ، وترقرقت الدموع في عيني فولكوف . استمرت الوليمة حتى الغروب . وفي الصالة المجاورة التي حومت فيها كاتيا قبل شهر في ضوء القمر تعالت انغام الموسيقى في الغسق . . .

الا ان عدد الرجال القادرين على تحريك سيقانهم تضاءل تماما . واضطرت الفتيات الى الرقص مع بعضهن البعض . وانزوى المنكتون في غرفة التدخين وتعالت قهقهتهم هناك . وجلس الشيوخ والعجائز الى مائدة القمار الخضراء . وعند منتصف الليل تعب قائد جوقة الموسيقيين من التلويح بعصاه حتى تارجح وهوى على الطبل وتشبث به فتدحرج معه كالجثة الهامدة .

وبذلك انتهى الرقص . وارتحلت السيدات مع بناتهن ، بينما ظل الشبان والازواج (بدون زوجاتهم) ليبيتوا الليل في الضيعة . لكنهم لم يعرفوا للنوم سبيلا حتى الصباح ، بعضهم صرف الوقت في لعب الورق ، وبعضهم اخذ يجوب المنزل في هرج ومرج . وفي البستان استعرض الاخوان رتيشيف عضلاتهما ، ولم يعد الكسندر فاديميتش يعرف ما يتعين عليه ان يفعل ، فراح تارة يفصل بين الاخوين الهائجين وتارة يجلس الى مائدة القمار ويتطلع سدى الى ورق اللعب والشموع ويستعيد على الدوام شيئا ما من الذاكرة .

ولم يهدئ عربدة الضيوف لا بزوغ الفجر
الشاحب ولا نهار يوليو القائظ . ولم يغادر آخرهم
منزل فولكوف الا في اليوم الثالث ، حيث ركبوا
عرباتهم بجيادها المتكاسلة وانطلقوا بها دون ان
يميزوا الدروب والطرقات ، وراحت نواقيسها
المجلجلة تثير رعب الفلاحين الذين يخلعون قبعاتهم
ويشيعون كل عربة بنظرات طويلة ويقولون :
– يا له من شيطان عجول !

٣

تسلق الدكتور زابوتكين السياج وظل يلوح
بالمنديل مشيعا ركب العروسين وانطبعت على وجهه
امارات الارتياح الصادق لان الامور سارت في آخر
المطاف كما يرام . عاش الطبيب كل تلك الفترة
عيشة الحنان والرضا من نفسه ومن الاخرين .
تحسس هذه الحالة النفسية منذ ان نقل ساشا الى
كوخ البستاني ووضعها على السرير الخشبي وظل
جالسا لوحده قرب هذه المرأة الشابة النائمة . كان
البصيص المنبعث من ذبالة شمعة في قنينة وضعت
على البرميل ينير جدران الكوخ الخشبية وبيوت
العناكب في اركانه والنافذة المحطمة التي يغطيها
لبلاب صقيل قاتم ، كما ينير ساشا الراقدة تحت
معطف فرائي قصير بين الفرن والجدار ، وهي
ترتعش احيانا وتسحب المعطف لتتدثر به جيدا
فتتكشف ساقاها العاريتان او يزاح طرف المعطف ،

وعند ذاك ينهض الطبيب ليعدل لها وضعيته بكل
حرص وعناية . كان ينحني عليها ويتفرس في وجهها
طويلا . وهو وجه مطواع حتى في النوم ، وخيل اليه
انه راى واحب في زمن ما هذه القسمات الواضحة
العزيزة على القلب . وشعر بالاطمئنان وانحسرت كل
احداث هذا اليوم الى خانة بعيدة في الذاكرة ، واضحى
من الغريب التفكير الآن بعالم آخر غير هذا الكوخ
البالي وساشا النائمة فيه .

كان يعاود الجلوس قرب الذبالة ويحجب الضوء
براحته وينصت الى ساشا وهي تتنفس أو يستمع
الى تململ طير يستيقظ بين الشجيرات ، او الى
اوراق الحور الرجراج التي تبعث حفيفا غير متوقع .
كان النسيم يهب من النافذة فيضطرب لهيب الذبالة ،
وعندذاك يبدو وجه ساشا متجهما في الظلال المنزلقة
على موقي العينين . ويخيل للطبيب انه ملزم بحب
هذا الهدوء الذى ينطوى على مغزى سحرى خفي ،
وان عليه أن يصبح هادئا رقيقا مثل الظلال على وجه
ساشا .

وفكر غريغورى ايفانوفيتش : «يبدو أن يأسها
والمها شديدان جدا طالما هرعت ، دون ان تتشكى ،
والقت بنفسها في البركة لتواجه النهاية باسرع ما
يمكن . فمن انا ، ياترى ، بالمقارنة مع هذه الآلام ؟
مجرد بعوضة تافهة . كيف تطاولت على أناس اثرياء
سعداء حتى التخمة ؟ كيف جئت اليهم بسحنتي
المحتقنة وكبريائي الفارغة ؟ . شيء مقرف
للغاية ! اما هي فسوف تستيقظ وتسألني : كيف

يمكن العيش الآن ؟ فبم اجيب ؟ ساكون عبدا لك طول العمر . هذا ما ينبغي ان اجيب به . تلك هي المسألة اذن ، بسيطة واضحة . امامك واجب في الحياة : اخدم هذه المرأة ، ابذل جهدك لتجعلها تنسى . . .»

لم ينتبه غريغورى ايفانوفيتش الى نفسه ولم يلاحظ انه يفكر بكلام مسموع . تململت ساشا فالتفت ورآها تتطلع اليه بعينين سوداوين واسعتين . فهل ارتعبت من هذه التمتمة يا ترى ؟ اما انها تذكرت ما حدث لها قبل حين ؟ او انها لا تزال ضعيفة جدا ؟ وعلى اية حال فقد ثنت ساقيها وسحبت المعطف حتى الحنك وند عنها انين .

جلس الطبيب قرب رأسها في الحال ومسد شعرها وحدثها بكل ما كان يفكر به .

– سيدى العزيز ، الافضل ان تتركني . لست بحاجة لشيء . وانا ممتنة لك كل الامتنان ، – اجابته ساشا وانتحبت ، وبكى غريغورى ايفانوفيتش ايضا . بكت هي بلوعة ومرارة ، وبكى هو عطفا عليها .

قضت ساشا الايام الاولى بعد عودتها الى الخان ، وكأنما نسيت كل شيء . كان الطبيب يتردد عليها يوميا ويسألها هل هي بحاجة الى مساعدة منه ، ثم يجلس على درجات المدخل ليدخن سيجارة . أما ساشا فتقول له عندما تمر قربه : «ادخل الغرفة يا غريغورى ايفانوفيتش ، والا ستأكلك البراغيث» . كانت آنذاك تمارس على الدوام شؤون الحوش

والمنزل . وذات مرة وجد الطبيب ساشا قرب سياج الحديقة . كانت تتطلع الى السهب شاردة البال ووجهها ساكن وعيناها كئيبتان وعلى رأسها منديل أسود . وقالت :

– أريد ان أرحل ، لم أعد أتحمل .

عند ذاك أحس الطبيب بان حياته فقدت مغزاها . فحزن اشد الحزن وحار في امره فلم يستطع الا ان يتمتم :

– ساشا ، اذا كنت لا تنفرين مني كثيرا فاقبلي بي زوجا .

ساشا تتذكر بغموض ما حدثها به الطبيب في تلك الليلة ، واتضح لها الآن «انه تعيس» . أسفت له واحست فجاة بالعطف عليه كطفل صغير .

أخذت تتردد على منزل الطبيب كل يوم . غسلت ارضية المنزل والنوافذ والابواب ، وصارت ترتق له الشراشف والبياضات واصلحت بنفسها فرن الحمام المتداعى على الشاطىء المنحدر . سخنت الحمام وطلبت من غريغورى ايفانوفيتش ان يستحم . وعندما عاد دافئا متعبا سعيدا كانت ساشا تنتظره والسماور يغلي والارضية مغسولة والمنزل نظيف يفوح فيه عطر القصعين ورائحة الشمعة المشتعلة في الركن .

لكن ساشا هزت رأسها عندما شرع يتكلم عن الزفاف ، وقالت :

– لا داعي لذلك يا غريغورى ايفانوفيتش ، حرام ، حرام .

وفيما بعد لاحظت ان نومه ساء ، وانه متألم ، يرتجف حالما تلمسه صدفة . فوافقت على الزواج . بكت وانتحبت حتى كاد راسها يتفطر الما ، ومع ذلك وافقت . فلا أحد ، على ما يبدو ، بقادر على مقاومة النزعة الانسانية . اواخر الصيف عقد الاب فاسيلي قرانهما وهو راض كل الرضا . وفي حفلة الزفاف احتسى ثلاثة اقداح ، بل وادى رقصة شعبية : كان الطبيب يصفق له ، بينما راح الاب فاسيلي يطبطب بقدميه وينشد : «ارقصي يا دار ، ارقصي يا نار» .

٤

بحفلتي الزفاف انتهى الصيف على نحو موفق حسب الظاهر . اقام غريغورى ايفانوفيتش مع ساشا في منزله منتظرا انتهاء بناء مستشفى الناحية .

اجرت ساشا الخان لشخص آخر وكرست كل اوقاتها لزوجها جاهدة ان تفهمه وترضيه ولا تستثيره بمظهرها القروى . ومع ان اهالي القرية صاروا في الحال يسمونها «عقيلة الدكتور» ، فقد ظلت ترتدى المنديل وفساتين الشيت القاتمة . فهم غريغورى ايفانوفيتش ذلك ولم يلحف عليها بالتبديل . كان يقرأ عليها شيئا ما كل يوم ويحاول ان لا يخفي عليها اية قضية واية فكرة . لقد بذل جهده ليكونا جناحين لطير واحد .

اما الاميرة والامير كراسنوبولسكي فكانا

يتجولان في اوربا ويبعثان بطاقات البريد من مختلف المدن ، الامر الذى ادهش فولكوف القليل المعرفة في الجغرافية . بالامس ، مثلا ، وصلت رسالة من ايطاليا ، واليوم من فرنسا . وقال فولكوف لكوندراتي : «يقفزان كالبراغيث» ، فاجاب كوندراتي معبرا عن احترامه للاميرة والامير : «تس . . .» .

بعد ان فرغ فولكوف من مشاغل الحصاد شرع بترميم دار الامير في ضيعة ميلويه . انهمك عدد من عمال الطلاء والملاط ولصق ورق الجدران والنجارين بضرب المطارق في الصالات العالية السقوف ، وفاحت في كل مكان رائحة الصمغ والجير ونشارة الخشب . كان فولكوف نفسه يأتي الى ضيعة الامير منذ الصباح ، ويطلق صيحات عالية بغية احلال النظام ، حتى نعته العمال «بالمدفعي» دون ان يخشوا شيئا على الاطلاق .

في اواخر سبتمبر ، حيث ينتعش القضاء كله بافتتاح سوق الخيل المركزية وتبدأ الحفلات الساهرة ورحلات الصيد وولائم الزفاف ، انجز الكسندر فاديميتش بسرعة اعمال الترميم في مليويه وأخذ ينتظر العروسين . وفجأة توقفت الرسائل من الخارج . فكر فولكوف : «ربما ارتحلا الى امريكا» . وبعد بضعة أيام استلم البرقية التالية : «أنا عائدة . كاتيا» .

اضطرب فولكوف اشد الاضطراب وانتقى ثلاثة من افضل الجياد البيضاء كالثلج (هدية منه للعروسين بمناسبة العودة) وظل مترددا امدا

طويلا ، فقد كان راغبا جدا في الذهاب بنفسه الى محطة القطار لاستقبالهما ، لكنه عدل عن ذلك واوصى الحوذى قائلا بلهجة صارمة وهو ينقر باصبعه على جبهة هذا الاخير : «خذ بالك . اسرع بكل ما تستطيع ، وحالما توصل الامير والاميرة الى منزلهما عد باقصى السرعة . ولا تنس ان تقول لهما ان هذه الخيول هدية مني» . ولكن حالما اختفت الجياد وراء الهضبة اكتأب فولكوف وجلس قرب النافذة محزونا . فقد شعر بالاسف لابنته ؛ «زوجتها بلا تفكير ، بينما هي بنت طيبة طيعة يتيمة . . . اغواني الشيطان آنذاك . يا الهي ، واضح ان الامور ليست على ما يرام . . . ما كان يجب ان ازوجها من هذا الرجل . . .»

في المساء عاد الحوذى على ظهر حصان من اسطبل الامير . قفز حالما وصل المدخل ومضى مباشرة الى فولكوف الذى كان رأسه يهتز من شدة الانفعال :

— ماذا ؟ هل اوصلتهما ؟

— نعم يا الكسندر فاديميتش ، بالسلامة والحمد لله .

— هل وصلا مسرورين ؟

— لا بأس ، والحمد لله . . .

— والامير ، كيف حاله ؟

— اعتقد اني لم اره . . .

— كيف لم تره ؟ لماذا انت صامت ؟ ! اجب والا قطعت رقبتك !

— الامير لم يعد . اوصلت الاميرة وحدها .

ففغر فولكوف فاه دون ان يتزحزح من مقعده . ودخل كوندراتي حاملا الشموع . فحول فولكوف بصره اليه وقال :

— مصيبة يا كوندراتي ايفانوفيتش . . .

— ماذا حدث ؟

— اذهب الآن الى هناك واستفسر بنفسك . . . آه ، يا الهي ، حدث ما كنت اتوقعه واخشاه . . .

٥

عادت كاتيا فعلا بدون زوجها . استقبلها وكيل الضيعة ، فتوجهت الى الصالة وخلعت معطف السفر والقبعة والوشاح ، وظلت واقفة عند النافذة تتطلع طويلا الى المنتزه والى نهر الفولغا في الاسفل والى المروج فيما وراء النهر . ظلت واقفة وقتا طويلا ، ثم تنهدت والتفتت الى الوكيل الذى كان ينتظر بمهابة وقد شد جاكيته الازرق بقدر المستطاع على بطنه المترهل كيلا يقذى العيون .

— سيعود الامير بعد فترة ، — دمدمت كاتيا عابسة — تأخر لاداء بعض الاعمال . فقدم تقريرك بخصوص المزرعة والمنزل الي ، ارني كل السجلات . . .

وسألها الوكيل :

— هل ترغبين ، ياصاحبة المعالي ، في تفقد المنزل اولا ام ينبغي لي أن احضر السجلات ؟

– كلا ، السجلات فيما بعد . – قالت ومضت تتفقد جميع الغرف والصالات مستفسرة عن مكتب الامير وغرفة نومه وغرفة الاستراحة المحببة اليه . . .

الصالات في الدور الارضي باردة عالية السقوف . صعدت كاتيا الى الدور الاول لتتفقد غرف الامير ، لكنها اكتفت بالقاء نظرة خاطفة عليها ، وامرت بغلق جميع الغرف السفلية والعلوية ، ما عدا صالة الطعام ، حتى الربيع ، واختارت لنفسها صالة بنوافذ ملونة وفيها بيانو والى جانبها غرفة صغيرة بيضاء تماما . واعدوا لها سريرا وغسالا قرب مدفأة حجرية مزخرفة اسطوانية الشكل كالبرج . . .

عندما انصرف الوكيل والصرير ينبعث من جزمته عادت كاتيا الى الصالة وجلست الى منضدة صغيرة وراء الاعمدة واستندت بمرفقيها الى سطحها الصقيل كالمرآة (فانعكست عليه يداها الجميلتان بردنين ضيقين حتى المرفق) ولمست وجنتها باصابعها المتشابكة وراحت تتطلع من جديد الى المتنزه والنهر والمروج .

غدا وجهها نحيلا واسود شعرها الوفير المصفوف بتقليعة تاجية حول الرأس . وبدا فستان السفر القاتم المزين بالدانتيلا حول العنق رزينا دافئا كما تعودت المرأة التي لا تسمح لنفسها لا بحركة طائشة ولا بفكرة خطرة اذا كان ذلك يعكر صفوها وهدوءها .

اشجار البستان وراء النافذة ذاوية بدأت اوراقها تتساقط . بين صفوف الشوح القاتمة تتموج برقة اشجار البتولا باوراقها المخلخلة الصفراء واغصانها الرفيعة المتدلية التي تلوح من خلالها السماء . وامتدت اغصان القيقب العتيق في الفسحة العريضة وبدت كقوائم الوحوش ، واكتست الشجرة كلها بلون ارجواني صارخ كما لو كانت ستغفط ، متجهمة ، في سبات عميق . وكانت اشجار الزيزفون لا تزال خضراء ، لكن اشجار الحور العالية نزعت اوراقها تماما ، فاستقرت تلك الاوراق البرنزية على المماشي وعلى الاعشاب المحشوشة . تطلعت كاتيا الى هذا الذبول العام والى عبارة تزحف على النهر الازرق في الاسفل وفكرت بان هدوءا طويلا ، طويلا جدا ، سيحل .

استقر رايها نهائيا على عدم تذكر الاشهر الثلاثة الماضية . صممت على حبسها في صندوق مقفل ، وقررت ان تعيش حياة رشيدة صارمة .

تنشقت روائح الذبول مع الهواء الذى تسرب من النافذة المواربة ، واحست بقطرة ساخنة سقطت على وجنتها . وقالت :

– لا داعي للبكاء . طالما عزمت فلا مجال للتراجع .

التفتت بسرعة وهي تبحث عن المنديل ، ثم نهضت واخذت حقيبتها واخرجت منها المنديل ومسحت عينيها وصبت عطرا على اصبعها ورطبت

صدغيها ودقت الجرس ، فدخل الوصيف . طلبت منه ان يجلب لها ملف الاوراق من حقيبة العفش .

حل الغسق . وهو ما تخشاه كاتيا اكثر من سواه . وقفت وظهرها الى النافذة تنتظر متى يشعلون الشموع . احضر الوصيف الملف المصنوع من جلد احمر فاخر ، ثم صعد على الكرسي واخذ يشعل الشموع الواحدة تلو الاخرى في الثريا المعلقة فوق الطاولة .

وفي الحال غمر الضوء السقف المزخرف والجدران البيضاء والقى ظلال مائلة الى الزرقة وراء الاعمدة وانار بلمع دافىء الطلاء الذهبي على تعاريجها .

جلست كاتيا الى الطاولة الكبيرة وفكرت قليلا ثم كتبت : «الكسي ، انا اسامحك . فكرت مليا طول الطريق وقررت بان نعيش معا ، فهذا ضروري من اجل استقراري وهدوئي . سنعيش كصديقين ، كأخ مع اخته» .

قرأت ما كتبته وطرقت بكعب حذائها على الارضية الخشبية ورفعت الورقة المخشخشة كي تمزقها ، لكنها عدلت عن رأيها ودستها في الظرف .

في تلك الاثناء فتح باب البلوط العالي ببطء ولاح بين دفتيه وجه متغضن حليق . وهتفت كاتيا :

— كوندراتي !

هرع اليها مكفكفا دموعه ومال على كتفها .

فاخذت كاتيا راس العجوز من صدغيه وقبلته قائلة :

— اهلا بك . كيف حالكم يا عزيزي ؟ وبابا ؟

— يا كاتيا الحبيبة ، اوحشتنا . كيف تكون حال العجوزين بغيابك ؟ نفكر فيك طول الوقت .

— صحيح ؟ هذا ما تصورته . طبعا ، كان يجب ان اذهب الى بابا رأسا ، وليس الى هنا . لكن الامر صعب علي جدا يا كوندراتي .

— والامير العزيز ، أين هو ؟ — سأل كوندراتي هامسا .

— لا ادرى ، يا كوندراتي ، لا ادرى . استولى الحقد علي بعض الشيء .

اخرجت المنديل من الحقيبة مجددا وانتحبت . داعب كوندراتي شعرها وهو يتفرس في وجهها ، فقالت له :

— هجرني ، ياكوندراتي .

— يا الهي ! . .

عندما هدأت بعض الشيء حدثته بكل ما جرى . غرق كوندراتي في صمت طويل وشفتاه ترتعشان ، ثم قال وهو يقضم اصبعه :

— ها هو على حقيقته اذن ! كلا ، يا عزيزتي ، لن نسكت عنه .

لم ترغب كاتيا في قضاء الليل في منزل الامير ، فوصلت مع كوندراتي الى ضيعة ابيها عند منتصف الليل . انفعلت كاتيا منذ ان وصلت السد وتنشقت روائح البرك واعشاش الزيفان التي تعودت عليها . وانار مصباحا العربة القنطرة على الساقية ، ثم ركن العنبر قرب المدخل الذى بدا لها صغيرا ضيقا . كانت النافذتان الاولى والثانية مضيئتين ، فلمحت

كاتيا في احداهما راس ابيها منحنيا .

– خذ بالك ، لا تخبره بشيء ، هل انت فاهم ؟ – همست على عجل وهي تسحب ردن كوندراتي .

٦

هرع الكسندر فاديميتش ممسكا بردائه لاستقبال ابنته في المدخل ، وعندما سألها : «يا بنتي ، يا فرحتي ، ماذا حدث ؟» كذبت عليه وقالت ان الامير تخلف في بطرسبورغ لامر لا يقبل التاجيل .

صدقها فولكوف ، فهو انسان لا يعرف الريبة ولا يفهم تحايل الاخرين . ثم انه لم يسأل عن تفاصيل القضية التي جعلت الامير يتخلف عن المجيء . فتلك امور لا تخص فولكوف نفسه ، ولا يعرفها الا الله ، ولو سأل عنها لربما وقع في ورطة كما تقع الحشرة في بيت العنكبوت .

خاطب ابنته في الحال «بالاميرة العزيزة» ورافقها الى غرفة الطعام الصغيرة ، حيث ينفث سماور ضخم بخاره حتى السقف .

– ما احلاك ، انت ، والله ، بنت من ارومة اصيلة ، – قال الكسندر فاديميتش وادار ابنته من كتفيها . وصب لها الشاى بنفسه وعرض عليها مختلف الماكولات .

كادت الدموع تترقرق في عيني كاتيا ، لكنها حبستها وضيقت جفونها بشدة . وقال الاب :

– استولت على الكآبة طول الوقت لغيابك . فانا لم اتعود على البقاء وحيدا . . . لم اتردد على احد حتى زعلوا مني جميعا . ثم حدثت مصيبة : اشتريت آلة بخارية ، وسحبناها عبر جسر كوليفان ، لكنه لم يتحمل فانخسف بها ، ولا تزال مدخنتها بارزة من تحت الماء حتى الان . ولكن حدثيني انت يا عزيزتي ، كيف كانت رحلتك ؟ لقد نعتكما بالبراغيث . والامير ؟ آ ، نسيت . ماذا ؟ هل ستنامين على سريرك السابق ؟ اظنك تعبانة بعد السفر ، اليس كذلك ؟ والله ، يا كاتيا ، انا مسرور جدا لرؤيتك .

بعد احتساء الشاى رافق فولكوف ابنته الى غرفة صباها وهو يثرثر منفعلا . واخذت الكآبة تنتاب كاتيا بعد ان كانت فرحة جدا في الطريق . فان اباها وكلماته وكل ما حواليها بدا لها كالحا كابيا . فاما انها تعودت على حياة اخرى ، واما انها تجاوزت ذلك العمر . وعندما تمنت لابيها نوما هادئا وهي تقف عند الباب المغطى بالسجادة ادركت تماما انها وحيدة ولا احد ينقذها من وحدتها القاتلة .

لم تطرأ على الغرفة اية تغيرات . انتفض قلب كاتيا بشدة عندما دخلتها ورأت مستلزمات الزينة والمقاعد والسرير من خشب بتولا كاريليا ، وحتى خفها لا يزال على البساط . وبدلا من الارتياح السابق ورائحة العطور وطراوة الماء المنسكب اكتنفت منكبيها قشعريرة موات عندما خلعت

فستانها وجلست على السرير وراحت تتطلع في النافذة المعتمة .

خيل اليها ان فتاة اخرى مرحة عذراء عاشت هنا وماتت ، فشعرت بالاسف الشديد عليها . وتذكرت اباها بشكل يثير الشفقة ايضا . فقد حاول قدر المستطاع ان يرضيها ، وثرثر مضطربا عن صغائر الامور ، لكنها اغاظته ، على ما يبدو ، بلامبالاتها وذهابها للنوم في ساعة مبكرة ، دون ان تقبله ، ولعله يتنهد الان في مكتبه .

نهضت كاتيا وهمت بالذهاب الى ابيها لتقول له انها تحبه حبا جما وانها نفسها بحاجة الى الملاطفة والحنان . لكنها هزت راسها ثم رقدت تحت الشراشف الندية .

وفكرت : «ليس عندي أخت مع الاسف . والا لنمت معها الآن وقبلت شعرها الناعم واوضحت لها ان الحياة عسيرة جدا ، جدا ، على المرأة» .

قضت كل الايام التالية في كآبة وادعة هادئة . كانت تسير في المنزل ببطء وتأن وتستمع باسمة الى ابيها وقد عاد اليه بعض من مرحه وعرض عليها الرسائل واليوميات التي يراجعها (وتلك هواية جديدة من هواياته الغريبة) . كانت تجلس على مصطبة في البستان وترفع راسها وتتطلع الى ورقة ذابلة تعلقت بنسيج عنكبوت وراحت تتارجح عليه دون ان تسقط . وبدت الاشجار مسبوكة من الذهب على خلفية السماء الزرقاء الداكنة ، كما يحدث

عادة في ايام الصحو الدافئة النادرة في بداية الخريف .

وبعد ذلك ارتحلت الى ضيعة ميلويه . فقد كان صعبا عليها ان تخفي الحقيقة عن ابيها . انقضى الوقت بشكل رتيب لا يعكره شيء . واستعد الاقطاعيون لزيارة الاميرة الشابة ، فقيل لهم انها مريضة .

زعل الاقطاعيون . بينما اخذ سوروبا يروج مختلف الاشاعات خفية .

٧

كانت كاتيا تنتظر جوابا من زوجها . وكيلا تفكر به ولا تضجر كثيرا ، اخذت تتردد على مرافق الضيعة كل يوم في معطف مخملي مذيل بفرو رمادى .

زحف الخريف . في الصباح يتساقط ندى متجمد على الاعشاب الذاوية ويجعل خضرتها رمادية اللون . ويظل هذا الندى امدا طويلا على السطوح وعلى درابزونات الشرفة وعلى اوراق الاشجار وعند البئر التي يستقون منها بدلاء خشبية عميقة ، ماء باردا جدا تفوح منه رائحة الطين والطحالب .

كانت كاتيا تعرج على الاسطبل كل صباح فيرد السواس على أسئلتها بمرح ويبتسمون لها كما لو كانت بنتا صغيرة . وعندما يراها الوكيل في الحوش ينحني باحترام من بعيد ويمضي مهموما الى العنبر ، مثلا ، والمفاتيح تجلجل في يده . (لقد كرهته كاتيا ،

بينما حمل هـو غيظا عليها لانها لم تدعه الى مائدتها) . وبعد ان تسأل كاتيا الراعي عن الغنم وعما اذا اختطف الذئب واحدة منها ليلة البارحة تلقي نظرة على حظيرة الماشية وارضها المغطاة بالسرقين والروث . وكانت الحالبة تجلس على مصطبة واطئة وتحلب احدى البقرات فيشخب اللبن ساخنا في وعاء معدني ، ثم تترك حلمات الضرع وتمسح فمها وتحني رأسها تحية لسيدتها . ذات مرة سألت الحالبة من كاتيا عن عمرها وخاطبتها قائلة : انت . انت ، يا آنسة ، كالثمرة الريانة .

وفي الحوش ، قرب جناح الخدم ، انهمكت ثمان من خادمات المياومة بفرم الملفوف في طست خشبي مستطيل . واستمر قرع السكاكين بشدة طوال النهار . كانت رؤوس الملفوف ملقاة على سفرة ، بينما جلس القرفصاء قربها صبيان قذران يقضمان باسنانهما الحادة سيقان الملفوف الباردة .

لمحت الخادمات السيدة قادمة فالتفتن نحوها بخدودهن الموردة وصدرت عنهن همهمة . تطلعت كاتيا في الطست الذى تفوح منه رائحة الملفوف العسل والثوم وسألت هؤلاء الفتيات المكتنزات هل فرمن الكثير ثم ابتسمت لهن قائلة :

— كلكن غير متزوجات ، اليس كذلك ؟

— كلنا ، ما عدا فروسكا الحولاء ، فهي ستتزوج قريبا . لكن كل العريسين هربوا ، فهم يخافون الا ترى زوجها في الظلام بعينها الحولاء .

وتعالت قهقهتهن على فروسكا الدميمة . وبعد ان ابتعدت كاتيا عنهن فكرت بحزن بانها ستقضي هذا اليوم أيضا وحيدة .

وفي البيت تجوب الغرفة جيئة وذهابا وقد شبكت يديها وراء ظهرها ، او تجلس قرب المدفأة وتلامس بظهرها وقفاها قرميدها الدافىء وتتطلع في النافذة الى السماء التي تسبح فيها غيوم محملة بالثلوج قادمة من الشمال .

سقط الثلج دفعة واحدة . ففي الصباح التالي غطى كل الاعشاب ومصاطب البستان وارتفع كالوسائد على القرم والجذامير . وارتدت الاشجار حلة من الندى المتجمد الناصع . وانسكب على الغرف العالية السقوف ضوء بارد أبيض كالحليب . وسخنت الافران والمدافىء . وفرشت البسط على الارضية ، وتركت جزمات اللباد آثارا على الثلج امام الباب الخارجي .

افاقت كاتيا في ذلك الصباح وفرحت اشد الفرح لهذا الضوء الصافي ، وللثلج على النافذة ، وللنار المشتعلة في المدفأة ، فاسرعت في ارتداء معطف الفرو وجزمة اللباد وخرجت راكضة من الباب الزجاجي الى البستان .

قرصها الصقيع من وجنتيها . وخلفت الجزمة آثارا عميقة على الثلج تعرت فيها الاعشاب المتجمدة . والتقطت كاتيا حفنة من الثلج وضحكت .

— ما اروعه ، يا الهي ، ما اروعه !

واوحى لها هذا الثلج ، والاشجار المرحة

البيضاء التي تلوح قممها الساكنة المكسوة بـه والمغمورة بضوء الشمس من وراء السفوح ، ان المصيبة ستمر بسلام .

وكما كانت سابقا ، في ضيعتها ، لملمت اذيال معطفها وتنورتها واختارت موضعا املس وانزلقت على المنحدر الثلجي الى النهر . ارادت ان تتسلق المنحدر من جديد وهي تضحك لكن ضحكتها تحولت الى لهاث واقتربت من النهر . الضفاف متجلدة تماما . وما بعدها ، على امتداد النهر كله ، قطع جليدية رمادية بلون الرصاص ، تجرى مزبدة مخشخشة . ارتجفت كاتيا من البرد وجلست تحت شجرة ووجهها الى النهر . ثم نبح كلب في الاعالي . وسمعت صوت الوصيف يدعوها لتناول الطعام .

على اثر النباح فر ارنب من بين الشجيرات على مقربة منها . فضحكت من جديد وهي ترى الكلب ينداح من التلة ، كشليلة ، ويلاحق الارنب الرعديد .

كل شيء في هذا النهار يفرح كاتيا ، وهي تنتظر وصول ابيها في اول طريق يشق على الثلج . الا انه لم يصل ، فتعين عليها ان تقضي المساء وحيدة في مقعد قرب المدفأة .

وشعرت كاتيا بقشعريرة ربما كان سببها الدوار الذى الم بها في الصقيع او شدة تسخين المدفأة . دبت تلك القشعريرة في بدنها بعد ان سرت من القفا الى الظهر . . . غرزت كاتيا نفسها في اعماق المقعد واتقدت وجنتاها . ووضعت ساقا على

ساق وهي تبتسم وتتطلع الى اللهيب . . . تذكرت الكسي بتروفيتش عندما قبلها لاول مرة (في موسكو) ، وكان شاحبا عنيدا ، وقال لها كلمات لا داعي للتفكير فيها الان بالطبع ، في وحدتها القاتلة .

انتبهت كاتيا الى نفسها وهمت بالنهوض ، لكن الخدر استولى عليها وقيد حركاتها ، فانساقت للذكريات وكأن شخصا اخذ يفتح الضوء امامها ويحجبه ليعرض عليها صورا مختلفة . تلاحقت الذكريات والروائح التي تثير الانفعالات ، عاد الى الذاكرة كل ما كانت تكبته في دخيلتها امدا طويلا بالترويض الصارم . اغمضت عينيها بشدة ووضعت يدها على صدرها ، فلسعتها الاحلام كالزوبعة واغشت بصرها .

٨

حل الشتاء الحقيقي ، واخذت الزوابع الثلجية تعصف بالنهر المتجلد وتلوى اشجار الصفصاف العارية وترغمها على الصفير ، ثم تنداح الى الحقول والسهوب وتعبث بالثلوج وتكومها اكواما على شجيرة متجمدة او كدس من الدريس او على عابر سبيل تعثر وسقط .

في هذا الشتاء انكب غريغورى ايفانوفيتش على المطالعة ، فقرأ الكثير من الكتب والمجلات التي اوصى عليها من بطرسبورغ . كان في بادىء الامر يتصفح المجلات ويلقي نظرة على المقالات فيها ويضع

خطوطا بالقلم الرصاص تحت بعض السطور ويفكر كثيرا بهذا الخصوص ، وبعد ذلك يتلو على ساشا الاقاصيص ويبحث فيها عن جواب للسؤال : كيف ينبغي للمرء ان يعيش ؟

وبعد ان اقدم في الصيف الماضي على التضحية اطمأن باله ولكن لامد قصير . فالتضحية لم تكن حقيقية في الواقع بل كانت شبيهة باللذة والارتياح . اما هو فيريد التضحية بالكثير .

كان ذلك عهد القلاقل والاضطرابات ، عهدا لا يشبه العهود السالفة . وكانت الجرائد تنشر احيانا مقالات جريئة تحتبس لها الانفاس . وبالمقارنة معها بدت سنوات الحياة الطلابية في قازان لهو صبيان ، حتى ان مقالة في احدى الصحف ، (وهي صحيفة لم يستلمها في الناحية الا المشتركون ، بينما بيع العدد الواحد منها في بطرسبورغ بخمسين روبلا) فتحت عيني غريغورى ايفانوفيتش فرأى ان هناك طريقا قويما يصلح لمن عنده ضمير . وهو طريق ان يضحي المرء بحياته من اجله .

اضطرت ساشا ، ساعتها ، ان تسهر الليالي وهي تستمع الى زوجها الذى يجوب الغرفة ويدلي بالادلة والبراهين على نمط الحياة التي ينبغي للانسان النزيه ان يعيشها . كان ظله يلاحقه على الجدار ، وكانت ساشا ، بين الحين والاخر ، تنظر الى الظل مرتعبة وهي تنصت الى اقوال زوجها المتحمس جدا للبدء بالحياة الجديدة دون تاخير . لكن ذلك انتهى بغتة على نحو مؤسف .

في ليلة باردة عاصفة جلس غريغورى ايفانوفيتش يقرأ امام طاولة من خشب الصنوبر . وكانت ساشا منهمكة باعداد الشاى خلف الستار . حزر الدكتور ذلك من قرقعة الصحون والاكواب .

في الخارج كانت الزوبعة تلطم ركن المنزل فينبعث صفير حاد ، وابليس جالس القرفصاء على السطح يتشكى ويتذمر من شدة البرد .

وقالت ساشا من وراء الستار :

— ما اشد الزوبعة ، قد تدفن احدا في السهب والعياذ بالله .

تطلع الطبيب الى النافذة المتجلدة بعد ان حجب ضوء القنديل براحة يده . كان الجليد الشائك الملتصف كالريش على الزجاج يشع احيانا بلمع ازرق منبعث من القمر وهو يغوص ثم يحلق في الفجوات بين الغيوم التي يتناثر منها الثلج في عنان السماء . . .

وقال غريغورى ايفانوفيتش :

— افكر طول الوقت بان شخصا ذكيا نزيها يجلس الى مكتبه في بطرسبورغ يسجل افكاره بينما انا هنا ، على بعد الفي كيلومتر ، اشاطره تلك الافكار ، شيء مدهش ، اليس كذلك ؟ فهل يحق لي ، ياترى ، ان اظل متفرجا مكتوف الايدى ؟

— من هو ؟ — سالت ساشا — هل هو من ابناء الناحية ، ام انك تعرفت عليه بالصدفة ؟

آه ، انت لا تفهمين . — اجابها الطبيب ووضع

يديه على الكتاب . – اسمعي يا ساشا ، انا لا
اعيش بصورة صحيحة . اسباب الراحة كثيرة
والهدوء اكثر . انني اعيش بلا نزاهة ، بلا ضمير !
هل أنت فاهمة ؟ لايحق لي ان أعيش بارتياح ، في
حين يهلك الاخرون هناك بدلا عني . يجب ان
«ترفع رؤوسنا» . هذا ما يقوله الكتاب . . .
وواجبك هو ان تشجعيني وتلهبي حماسي بدلا
من ان تسحبيني الى الوراء ، الى المستنقع . على هذا
النحو تتصرف النساء الحقيقيات . . .

ارتجف صوت الطبيب من شدة الانزعاج .
خرجت ساشا من وراء الستار ووقفت قرب كرسي
زوجها وشبكت يديها واسبلت جفونها وقالت بصوت
خافت :

– اعذرني يا غريغوري ايفانوفيتش . . .

كان ينبغي له آنذاك أن يبتسم ويوضح الامور
لساشا ، فلو فعل لفهمته تماما . لكنه لم يفعل
ذلك ، بل زعل على نفسه بسبب ضعفه وراح يتهم
زوجته بانها ، كما يعتقد الآن هي التي وفرت له
«اسباب الراحة المبتذلة» .

في تلك الاثناء حملت الزوبعة رنين اجراس ،
وصر الثلج وتناهت انفاس جياد تقترب . فقالت
ساشا وهي تمضي من جديد الى ما وراء الستار :

– هل ستذهب يا غريغوري ايفانوفيتش في
هذه الزوبعة ؟ المصيبة انك قد تطمر بالثلج .

– تظنينني مرتاحا لهذه الطلعات ؟ وربما اصيب
احد الاقطاعيين بالتخمة لا اكثر . – دمدم الطبيب

وازاح شعره الى الخلف واغلق الكتاب ونهض ، ثم
دفع بركبته الباب الملصق حتى فتحه بصعوبة .

اندفع بخار كثيف الى الدهليز ولم يعد بالامكان
رؤية شيء الا ان شخصا ما قد دخل . تفرس
غريغوري ايفانوفيتش في وجهه فتراجع وندت عنه
صرخة . كاتيا واقفة امامه على العتبة .

معطفها الاسود مغطى بالثلج ، ووجهها يتوهج
تحت القلنسوة ، واهدابها بيضاء . اغلقت الباب
وخلعت القفاز الدافىء وطبطبت بقدميها وقالت :

– لم تتوقع وصولي ، اليس كذلك ؟ كدت اضل
الطريق . كنت ذاهبة الى والدى ، لكن العاصفة
اشتدت ولم يعد بالامكان عبور جسوركم . رايت
ضوء في منزلك فعرجت . ممكن ؟

فكت ازرارها الكبيرة . وانتبه الطبيب اخيرا
فساعدها في خلع معطفها . كان دافئا من الداخل
وتفوح منه رائحة الفرو والعطور ، ثم أخذ منها
القلنسوة .

كان شعرها مضغوطا تحت القلنسوة ، فعدلته
وصففته ثم جلست الى المائدة . وسألت :

– اين ساشا ؟

– هناك ، – اجاب الطبيب واومأ براسه الى
الستار . – كنا نطالع واردنا ان نشرب الشاى . –
وتطلع الى كاتيا بنظرة جانبية وكانه على استعداد
للاختباء او الهرب .

– ساشا ، هذه انا ، تعالي ، – قالت كاتيا

وهي تعدل الدانتيلا على فستانها القاتم ، وضحكت فجاة .

فتح الطبيب فمه وتنفس بعسر .

ظهرت ساشا اخيرا وعلى كتفيها بلوزة سوداء وقد شبكت يديها تحتها ، وحيت كاتيا ، حنت رأسها فقط ببطء وتأدب ، فطوقت كاتيا عنقها بيدها وقبلتها وقالت :

— لا تزالين جميلة كما كنت ! كيف حالك ؟ بخير ؟

— شكرا لك ، الحمد لله ، بخير ، — اجابت ساشا على مهل دون ان ترفع بصرها .

قبلتها كاتيا مرة اخرى ، ظلت ساشا جامدة كالصخر ، فرفعت كاتيا يدها عنها والقى الطبيب نظرة الى المرأتين وانكمش وجهه متألما ، فقد ادرك مدى ثقل هذا اللقاء على ساشا . ومع ذلك استطاع ، وهو منكمش الوجه ، ان يقارن بينهما : ساشا غليظة ثقيلة ، وكاتيا رشيقة في كل شيء ، في حركاتها وشعرها الناعم المصفوف الى اعلى وفستانها الرقيق الرائع وحتى صوتها متميز كالموسيقى .

استنكر غريغوري ايفانوفيتش افكاره هذه ورفضها ، لكنه عجز عن التصنع والتظاهر بمظهر اللامبالاة ، فقد رأت عيناه تلقائيا ما لا داعي لرؤيته ، وما يعتبر خطيئة — تجعدات الشعر وزاويتي الفم المرتفعتين وطيات الفستان الململمة على صدرها .

واخيرا بدا عرق ما يرتعش تحت ركبته

ويدغدغه كالفأرة . شعر بامتعاض شديد حتى قال بصوت خشن :

؟ ماذا ؟ هل ستحضرين السماور اخيرا ؟

استدارت ساشا ببطء ومضت الى ما وراء الستار . كان واضحا انها اخذت تعدل وضعية مدخنة السماور وتنفخه ليستعر . وفاحت رائحة الدخان . انشغلت كاتيا بتصفح كتاب ثم القت به على الطاولة :

— كتبت لك مرتين ورجوتك ان تحضر . كنت متوعكة . فلماذا لم تأت ؟

— لم اتمكن ، — اجاب الطبيب .

احضرت ساشا السماور ومسحت الاكواب بهدوء وتركيز دون ان ترفع بصرها .

— انا وحيدة اياما بكاملها ، لا اسمع غير صفير الريح . . . وافكر ، افكر . . . يا الهي ، لم افكر بهذا القدر طول عمري ! اما في منطقتكم حتى الريح اخف والطف . والله . . . تعجبني اماكنكم هذه . . . بل واحسدكم عليها ، — ضحكت كاتيا فجاة وتطلعت في عيني غريغوري ايفانوفيتش مباشرة حتى انكمش عنقه وغاص راسه بين كتفيه عاجزا عن التخلص من نظرة عينيها الرماديتين الباردتين الغريبتين ، وقالت : — هل تتذكر كيف حلقت راسك بشكل مضحك ؟ حدثني كوندراتي فيما بعد كيف قص شعيراتك النافرة بالمقص . . .

احس الطبيب بان وجهه يحتقن ويلتهب وبانه

يكاد يسلم الروح . واخيرا قالت له ساشا وهي تلتفت الى الباب :

– احضر قلة اللبن التي في طرف الدهليز ، فانا في الشبشب – ثم خاطبت كاتيا قائلة : – عندنا بقرتان ، واحدة مبقعة والثانية بنية ، وعجل صغير . حظيرة كاملة .

«الا ترين ؟ الا تفهمين ؟» – قالت عينا الطبيب . خرج الى الدهليز البارد وراح يتحسس الرف عشوائيا . كان يعرف موضع القلة المطلوبة ، لكنه اراد متعمدا ان يسقط شيء ما من الرف ، لكن شيئا لم يسقط ، فاخذ القلة وهمس واقفا في الظلام : – «آه ، يا للشيطان !» واراد ان يهشم القلة الفخارية اللعينة ، لكن وجهه انكمش واكتفى بان تمطق بلسانه عارفا بان الخطيئة اقترفت وان التعاسة (وربما السعادة ؟) قريبة .

– هذه القلة ام غيرها ؟ – قال بصوت غليظ ووضعها امام ساشا وانزوى وجلس في الظل .

عندما دخل الطبيب الغرفة من الدهليز اشتم روائح عطرية مركزة . وفكر بان تلك ليست عطورا ، وانما هي رائحة شعر كاتيا ويديها وفستانها .

كانت تحتسي الشاى على مهل ، وشفتاها حمراوان ، حمراوان جدا . وانزوت ساشا خلف السماور منهمكة بمسح الاكواب . وفكر الطبيب بان ساشا غدت بدينة وعنيدة وموتورة .

«وفيما بعد ستزداد بدانة . ثم انها تعتبرني

ملكا لها . وتتصور بانها شرفتني . تظل جالسة موتورة ، وانا احضر القلل . آه ، يا للحقارة ! انا ايضا سافل دنيء اذا اردنا الحقيقة !»

وسألته كاتيا عما اذا كانت اشغاله كثيرة فاجاب وهو يتطلع بنظرة جانبية منحرفة ان اشغاله كثيرة فعلا :

– اجوب القضاء طول الوقت حتى لم اعد شبيها بالبشر . حياتنا ، كما تعلمين ، ليست مثل حياة الامراء . فنحن نغوص في السرقين حتى الركب . ولا مجال للبطر .

سقط صحن من يد ساشا في تلك اللحظة وتهشم . فتأوهت كاتيا :

– يا للاسف ! – قالت بمشاطرة متكلفة مفتعلة جعلت الطبيب ينفعل ويخاطبها فجاة بصوت مرتعش :

– الم تشاهدى الفقر في السابق ؟ انظرى اذن ، هذا هو الفقر !

– ماذا بك ؟ ماذا ؟ – همست ساشا ورفعت بصرها نحوه مرتعبة .

ارتعشت ملعقة الشاى في يد كاتيا وطقطقت على الكوب . انسحب الطبيب الى المدفأة واستدار وزم شفتيه .

– الفقر في كل مكان ، اكثر من اللازم ، ومع ذلك فالحماس ملتهب ، ولن تطفئوه به ، لن تطفئوه ! لا اريد ان اغيظك يا كاتيا ، ولكن يؤلمني انك جئت لتضحكي علينا . اسمحي لي ان اقول لا

موجب للضحك . يوجد شيء اهم بكثير ، وهو عصب حياتنا ! نعم ، حياتنا فوارة كاللهيب ! فنحن نعيش بالافكار ! وهذا الفقر كله تفاهة بالمقارنة معها . لا يهمني اطلاقا ان حياتي الشخصية غير موفقة . ليكن ، ولكنك ترين امامك مناضلا جديدا .

واسترسل غريغورى ايفانوفيتش في الحديث وقال الكثير من هذا القبيل . استمعت اليه كاتيا منكسة الراس . واخيرا ، عندما جلس على المصطبة وكانه يريد ان يجد بنفسه رأس الشليلة في هذه الكلمات المشوشة ، نهضت كاتيا وتمتمت :

— اخطأت فهمي . فانا اعيش وحيدة تماما ، ولا احد اتبادل معه كلمة . واليوم تذكرتك مع ساشا وتصورتكما من اعزائي فجئت بزيارة الود والصداقة ، ولكن يبدو ان محاولتي ذهبت عبثا . فوداعا يا صديقي . الاقدار ارادت غير ما اردت .

ارتدت معطفها وشدت ازراره ببطء ودست يديها في القفاز الوبرى الابيض وابتسمت بحزن واومأت براسها مودعة وخرجت .

ظل الطبيب عاجزا عن النطق . فكل ما قاله قبل لحظة فر من دماغه كالاعصار . وشبكت ساشا يديها تحت بلوزتها من جديد وقالت بصوت خفيض :

— ما كان ينبغي ان تسيء اليها ، يا غريغورى ايفانوفيتش ، فهي ضيفة على اية حال .

وعند ذاك هرع الى الحوش بقميصه الاسود حاسر الرأس .

كان القمر قد فرغ من جولته السماوية واخذ

يسبح ببطء ، بدرا صافيا ، في لجة باردة شاهقة . وكانت الجياد الرمادية الثلاثة المشدودة الى الزحافة المسقفة ترن باجراسها بين حين وآخر . وتكدست كومة كبيرة من الثلج الازرق الفاتح عند مدخل المنزل . ركض الطبيب نحو كاتيا وقدماه تغوصان في الثلج حتى الركبتين . وكانت هي واقفة قرب الزحافة تنظر اليه .

— كاتيا ، ما كنت اريد ان اسيء اليك . . . يا الهي ، يا ربي ، افهميني ، ارجوك .

— انا افهمك ، — رفعت راسها وتطلعت الى القمر .

— كاتيا ، هل تسمحين بمرافقتك ؟

— نعم .

عاد الطبيب الى المنزل راكضا والقى بمعطفه القصير على كتفيه وقال لساشا بصوت خائف مستعجل :

— اريد ان ارافق كاتيا ، فلا يجوز ان تذهب لوحدها ، لا سيما واننا اسأنا اليها . ساعود في ساعة متاخرة ، ربما في الصباح .— وظل منكمشا في الباب . لمت ساشا الاواني ولم تجبه . فسألها :

— لماذا انت صامتة ؟ الا تريدين ان ارافقها ؟

— انت حر ، يا غريغورى ايفانوفيتش ، افعل ما تراه لازما .

— اية حرية هذه ؟ — تنحى عن الباب وارتعش صوته . — لا اطيق مثل هذه الاجوبة . . . افلا يمكنني ان ارافقها ؟ ها ؟

– ما الذى يزعلك في اجوبتي ، يا غريغورى ايفانوفيتش ؟
جلس على المصطبة في الحال وضغط صدغيه بقبضتيه .
– شيء لا يطاق !
رنت الاجراس وراء النافذة ، فقد صعدت كاتيا الى الزحافة . قفز الطبيب وقال بيأس وقنوط :
– لا تزعلي ، لوجه المسيح ، لا استطيع ان اذهب وانت بهذه الحال .
– لا تهتم . ساتحمل – اجابته ساشا ومضت الى ما وراء الستار .
– يا للشيطان ، لن اذهب ! – جأر الطبيب ، ومع ذلك قفز الى الخارج فورا .
كانت الجياد قد تحركت ، فصاح غريغورى ايفانوفيتش : تمهلي ، تمهلي ! – وركض للحاق بمؤخرة الزحافة العريضة وهو يغوص في الثلج .

٩

تسرب ضوء القمر من كوة الزحافة عبر حبات الجليد الملتصقة بالزجاج ولاحت قفار الثلوج الباهتة المنبسطة حتى الافق . صرير الثلج ينبعث من تحت الزحافة . والاجراس ترن بصوت رتيب كما لو كانت من زجاج . وفي المنعطفات يلوح من العتمة محيا كاتيا الرقيق القسمات والمطوق بفرو اشيب ، وتومض في عينيها شرارات القمر .

كان غريغورى ايفانوفيتش يتطلع اليها ويفكر بانه قضى عمره كله من اجل هذه اللحظات بالذات . والان ، ليس هناك ما يحول دون التطلع الى هذا الوجه الساحر ، ولا شيء يمنعه من ان يعب من روائح الثلج والعطور والفرو الدافىء التي تجعل النفس تنتشي والرأس يدور .
ولاح وجه كاتيا من جديد في الضوء الازرق وهي تقول له :
– الا تدرى بان زوجي هجرني ؟
انتفض غريغورى ايفانوفيتش وفكر فيما يتعين عليه ان يرد به على هذا السؤال ، وبدا فجاة ، كما لو كان ينتظر مجرد اشارة للبلداية ، يتحدث بصوت جديد ، بصوت خاص متميز ، لكنه صوته الحقيقى – وهو واثق من ذلك – وقال لها انه رأى في الصيف الماضي كيف تصاعدت الغيوم من النهر وسبحت الى ما وراء الغابة ، وعند ذاك امتلأ قلبه بالحب ، ورأى كاتيا تقترب من الضفة في الزورق وادرك بانه يحبها هي بالذات . وتحدث عن النحل الذى حوم على الاعشاب ، وقال ان حبه كان كبيرا وضاء لدرجة تفوق تحمل الانسان ، كما خيل اليه ، فاراد ان يوزعه على السماء والارض والبشر .
– وساشا ؟ – سألته كاتيا فجاة بصوت خافت .
كان وجهها في تلك اللحظة غريبا ، باهر الجمال لحد مؤلم جعل الطبيب يئن ويميل الى داخل الزحافة .

لمست كاتيا كتفه فاختطف يدها والصق شفتيه بالقفاز الناعم الفواح . وتمتم :

– احبك . اسمحي لي ان اموت من اجلك . . .

امسك بيدها وظل يكرر هذه الكلمات بصوت مكبوت ، والزحافة تتراقص على تضاريس الطريق فتجعل راسه يهتز ، يعلو وينخفض وكانه يحيي احدا . وبدا وجهه منفعلا دميما .

استولت الكآبة على كاتيا . ارادت ان تضحك على غريغورى ايفانوفيتش وتقول له بانها لم تكن متوجهة الى ابيها ، بل جاءت اليه خصيصا لتعذبه بسبب الغضب والضجر الذى انتابها ، وهي تشفق عليه لانه شخص تافه ، وحبه مضحك مثل هزات راسه هذه ، وهو حب لا يستحق في الواقع الا الموت . لكنها لم تقل شيئا من هذا القبيل . كل ما كانت تريده هو ان تبكي بلوعة ومرارة . . .

وتمتم غريغورى ايفانوفيتش :

– انظرى الي . . . احبيني ولو للحظة .

عند ذاك سحبت كاتيا يدها منه بشدة . فلم يقاومها وانزلق منحنيا حتى قدميها ولمس ركبتيها بوجهه . فاظلمت الدنيا في عينيها واشتدت كآبتها .

لم يلاحظا كلاهما ان الزحافة اخذت تميل ثم انحدرت مسرعة الى اسفل . عجز الحوذى عن جعل الجياد الفتية تنعطف الى الطريق العام اثناء الهبوط ، فارخى لها العنان لتنطلق من التلة مباشرة الى جليد النهر .

اخترقت الجياد كثبان الثلج شاقة لنفسها

الطريق بصدورها حتى وصلت النهر المتجلد . فطقطق الجليد متكسرا ومالت الزحافة وانغرزت فيه وبقبق الماء الاسود في داخلها .

صرخت كاتيا . واسرع الطبيب ففتح الباب الايمن الذى لم يمسه الماء بعد . وراحت الجياد البيضاء تفرفط في الماء الجارى الازرق الذى تتراقص عليه بقع من ضوء القمر بين الكتل الجليدية الرقيقة . كان الحصان الاوسط قد تشبث بالجليد بسنبكيه الاماميين ، ثم صهل فجاة بصوت مستجير كسير . وشخر الحصان الايسر الذى لم يظهر فوق الماء الا رأسه . واخذ التيار يجرف الحصان الايمن .

وصرخ السائس وهو ينهض على مقعده :

– غرقنا !

احتضن الطبيب كاتيا في العتمة وكانها كنز ثمين ودفعها من الزحافة قائلا : «لا تخافي ، لا تخافي . . .» امسكت بضلع في اعلى هيكل الزحافة وسحبت نفسها اليه فمالت الزحافة بشدة وغاص غريغورى ايفانوفيتش في الماء حتى الخصر .

العودة

١

استقل الكسي بتروفيتش الباخرة من ميناء ريبينسك ، وشغل قمرة من الدرجة الثانية ولم يغادرها منذ عدة ايام . لازم الفراش ليس بسبب

توعك في صحته او اضطراب بل لمجرد عدم الحاجة الى التحرك والكلام . كل ما كان يفعله هو الشراب والنوم .

كانت آخر مائة روبل لديه ملفوفة بقصاصة من جريدة في جيب سترته المدعوكة . حاول ان يخدع نفسه بانه لا يدرى لماذا استقل الباخرة ولماذا يرتحل عليها . استسلم لكآبة شديدة واحس بقذارة نتنة كانه كلب مريض ينسلخ شعره نتفا .

بعد عام من حياة التهتك والفجور هبط الكسي بتروفيتش الى الدرك الاسفل الذى لا يوجد تحته الا الموت في ماوى المشردين . وصار يشعر الآن ببعض الارتياح ، وبشي من اللذه اللاذعة . ضميره لا يؤنبه وذاكرته لا تثقل عليه بشيء ، ثم انه لم يعد لديه وقت للذكريات . كان يستيقظ في قمرته ويسعل مرارا ليتخلص مما ترسب في الحلقوم ، ثم يتجرع الفودكا ويجلس الى الطاولة امام المرآة يتثاءب او يشغل نفسه بورق اللعب حتى يستولي عليه النعاس من جديد بفعل السكر . . .

قبيل الزفاف قال الامير لكاتيا في البستان وهو يكلمها بخصوص عقد القران انه ما كان ليتزوجها لو انها رضيت به طائعة . في تلك اللحظة فهمت كاتيا انه بحاجة الى «ضحية» . كان الامير بحاجة الى «ضحية» فعلا ، ولكن من نوع متميز خاص (لم تتاكد كاتيا من ذلك بشكل تام) . كان بحاجة الى «ضحية» حية دافئة ومتكررة على الدوام . هناك ضحايا هالكة ما انزل الله بها من سلطان . يضحي المرء بنفسه

بالكامل فيهلك ويختفى . وعندما تطفو ذكرياته على السطح تغدو مبعثا لتقريع الضمير والشعور بالوضاعة . الا ان هناك ضحايا ملتهبة تومض بالفرحة الخاطفة وتظل ذكرياتها مدعاة للاسف على عدم تكرارها مرة اخرى . اما الامير فما كان بوسعه ان يعيش الا بقرب امراة محبة بقلب معذب وارادة ضعيفة ،امراة على استعداد دائم لتستسلم له كليا مقابل كلمة فيها رقة وحنان . ولا بد له ان يتحسس ، على الدوام ، ملامة رهيفة وثقلا لذيذا وحزنا خفيفا لعجزه عن ان يمنحها بالقدر الكامل السعادة التي تستحقها . وهو يغوص بكل جوارحه في هذا الحب الحزين وتتشبع به كل مساماته كشراب شيطاني مر رائع .

على هذا النحو كانت علاقاته مع ساشا . لكنها عندما تحولت من ضحية هادئة وادعة الى ضحية هالكة ميئوس منها ارتعب جدا . وخيل اليه آنذاك ان كاتيا هي المنقذ الوحيد . كانت فتاة محبة رقيقة رائعة . وكان الامير يتصور ان زواجهما سيغدو ملاذه الاخير على الارض ، ملاذا حزينا حزن مياه الخريف الراكدة .

لكن الصفعة التي تلقاها فجرت فيه الحقد والهياج . فهي تذكره بماضيه مع فارق واحد هو ان القول الفصل بيده هذه المرة ، فهو المسيطر وهو الذى يقرر المصير .

في الايام الاولى لرحلة شهر العسل كان الكسي بتروفيتش كأنما يخشى ان تفيق كاتيا وتدرك فظاعة زواجهما ، فالتزم بالتأدب واللياقة والمجاملة التي تبلغ حد الاهانة . ولكنها عندما غدت امرأة شعرت

فجاة ، ودون توقع سابق ، بانها متيمة بزوجهـا وكانما خرجت توا من عتمة الغسق الى نور يغشي الابصار . كان ذلك احساسا ساخنا بذاتها وبانوثتها ودمها الذى يغلي ويفور . بهت الماضي كله امام هذا الشعور وصار رمادا لا يستحق الذكر .

وجذبت كاتيا زوجهـا الى دوامة الحب الانثوى الاول . وحلت بالنسبة للامير ، دون توقع ايضا ، ايام الهيام والفرحة المنفعلة والاهتمامات المحببـة السعيدة بصغائر الامور . وخيل اليه ان حياة ثانيـة بدات لديه فلا يرى غير عيني كاتيا المفعمتين باعجاب يقرب من الجنون ، ولم يعد الماضي بالنسبة لـه ماضيا ولا المستقبل مستقبلا ، لا شيء هناك غير تلك النظرة الانثوية المنفعلة التي لا قعر لها ولا قرار .

لم تستمر طويلا تلك السعادة التي تفقد المرء رشده . اخذ الكسي بتروفيتش يفهم بانه لن يتحمل هذا التوتر الشديد فارتبك وتحير . وحدث اول شجار بينهما . شعرت كاتيا بالاهانة والخجل لان حبها قوبل ببرود يقرب من السخرية . وادركت بان الشقـة بينها وبين زوجها واسعة وكانهما شخصان غريبان .

حدث ذلك مساء في فندق قديـم في البندقية . كان الامير واقفا قرب النافذة المطلة على قناة ضيقـة اصطبغت بحمرة المغيب المطير . وكاتيـا تبكي مستلقية على الاريكة .

— بالله عليك يا كاتيا ، لا تبكي . فلم تحدث اية مصيبة ، — قال الامير بصوت خافت . — اردت

ان تقبليني اما انا فكنت شارد الذهن . ذلك كل ما في الامر . كنت افكر باننا لم نر شيئا في البندقية ما عدا الملاهي . اليس كذلك ؟ اعتقد ان ظلام المساء جعلك حزينة لا اكثر . او اننا تعبنا . . .

كل هذا صحيح ، ولا يستحق البكاء .

لكن كاتيا نفسها لا تدرى ما هو سبب حزنهـا الشديد وكان الشمس غابت الى الابد وراء الافـق البحرى البعيد وكان هذا الغسق الكئيب سيظل مخيما طول العمر ولا امل في انجلائه .

في الاسفل انزلق جندول اسود بلا ضجيج . وراى الامير وهو متكئ بمرفقيـه على رف النافذة كيف يشق القارب بصدره المدبب صفحة الماء المائل الى الاحمرار . رفعت السيدة الجالسة فيه راسها بعد ان خلعت نظارتها والتفتت الى صاحب القارب فعرفها الامير . كانت تلك السيدة هي موردفينسكايا .

ابتعد عن النافذة كالمسلوع ونظر الى كاتيا . كانت جالسة مطاطاة الراس . وبدا المنديـل على ركبتيها ابيض في الغسق . احس الامير بعطف شديد على هذه الشابـة الطاهرة التي لم تفهم شيئا على الاطلاق . جثا على ركبتيه امام الاريكة واخذ يدها وضغط شفتيه عليها ، لكن اليد كانت جامدة وكانت شفتاه باردتين . وفهم انه لم يكن يحبها ، بل يحب تلك ، وليس بوسع اية ضحية ان تغرق هذا الحب وتذوبه .

في اليوم التالي غادر الزوجان البندقية الى روما ومنها الى جنوة ونيس وباريس .

الامير لا يجزم بان التي مرت كالشبح في الجندول الاسود هي موردفينسكايا . اذ ربما انخدع بشبه جاء صدفة . ورغم ذلك انفتح في دخيلته باب المخبأ السرى الذى اغلق باحكام وطواه النسيان منذ تلك الليلة التي طوقته فيها تلك المراة بشراك الملاطفة والاغراء وسممته بالقبل . صار يعرف الان انه كان كل تلك الفترة يخدع نفسه ، وان ذلك الخداع المتفنن انهار من نظرة واحدة القت بها امراة وانه سيسكت على كل شيء ، حتى ضربة السوط على العينين ، وينساه في مقابل لقاء مع موردفينسكايا ، وانه لا يمتلك ارادة ولا انفة ما عدا القلب المعذب المستعد في كل لحظة ليشتعل بنار الحب القاتلة .

في تلك اللحظة صار سواء بالنسبة له اذا كانت كاتيا ستتركه او ستبقى حتى الرمق الاخير تعاني الالام تحت جنحه او تتحول ، مثل ساشا ، الى ضحية هالكة . ظلت صامتة تنتابها الاحزان ، لكنها لم تجرؤ بعد على ان تساله عن سبب تغيره المفاجئ هذا .

في باريس كان الامير احيانا يترك كاتيا اياما بكاملها وحيدة في الفندق . كانت تجلس عند النافذة وتنتظر . في ساحة الاوبرا ، في الاسفل ، تتقاطع مسيلات العربات والمركبات ، ويسرع المارة ويتعالى صفير ودوى وضجيج العجلات ولغط الناس . لا يفصلها عن هذا الهرج والمرج الا فضاء قليل ، لكنها تتحسس الوحدة والاهانة بشكل اكثر شدة وقساوة .

عاد الكسي بتروفيتش ، عدة مرات ، في ساعة متاخرة جدا . وكانت كاتيا تنظر باكتئاب الى وجهه

النحيل وعينيه المعذبتين وكأنما لا تبصران . كانت تضغط على اصابعها وتكرر مقنعة نفسها : «لا احبه ، لا احبه ، ليكن ما يكون ، فليهلك» . وكان الامير يعتذر ويطلب الصفح ويقول لها انه طاف المدينة طول النهار ، وكانت كلماته مشوشة مضطربة غامضة . . . وبعد ذلك يرقد ، عادة ، على السرير ويمد يديه فوق البطانية ويغمض عينيه متظاهرا بالنوم .

فهمت كاتيا من كل هذه المتاهة شيئا واحدا هو ان زوجها يسعى باصرار الى مقابلة شخص ما وهو يبحث عنه في المطاعم والمسارح والحانات والحوانيت وينتظره في مختلف المقاهي ويتجول في الشوارع على امل اللقاء به . حاولت كاتيا ان تعرف ذلك الشخص فسالت الامير عنه واستعطفته ان يخبرها وهددته وبكت ، لكنه كان يلوذ بالصمت . ذات مرة قبيل انبلاج الفجر جلست كاتيا على السرير وتطلعت الى وجه الامير ، وكان اقرب الى الخضرة بسبب انعكاسات الفجر ، ونظرت الى عينيه الغائرتين الكابيتين ، ثم امسكت راسها بكلتا يديها وتمتمت : — انا لا افهم شيئا ، لا افهم على الاطلاق . . . كل ذلك شبيه بالجنون . . . كذب في كذب !

— نعم يا كاتيا ، جنون وكذب . . .

لم تضبط كاتيا نفسها اكثر ، وانهارت انفتها امام المذلة . قفزت من السرير وركضت حافية الى النافذة وصاحت مهددة بانه اذا تركها وحيدة في هذه الغرفة ولو مرة فسوف ترمى نفسها الى الشارع تحت

عجلات المركبات . كان يأسهـا شديدا غير متوقع حتى بدا وكأن الامير قد استعاد رشده واخذ يهدئها ويقول بجهد كبير ان الوقت حان للعودة الى الديار ، الى روسيا . . .

السبب في ذلك كله هو ان الكسي بتروفيتش راجع السفارة عندما وصلا الى باريس واستفسر عن موردفينسكايا فقالوا له هناك «نعم ، انها موجودة لوحدها في باريس ، لكن عنوانها غير معروف» . وعند ذاك بدا يبحث عنها في كل ارجاء المدينة ، ورآها بالفعل مرتين من بعيد ، لكنه لم يتمكن من الاقتراب منها : فقد كانت مع شاب فارع القامة يبدو من مظهره انه صاحب اسطبل لخيول السباق .

وخلال الاسبوع الاخير لم يصادفها الكسي بتروفيتش في اى مكان . لعلها سافرت الى الجنوب ، الى بياريس او نيس ، فقد بدا الموسم هناك .

اما في بطرسبورغ فقد حل الخريف وسبحت الغيوم البليلة فوق المدينة . وفاحت رائحة الحديد والصدأ . حتى ان المارة بوجوههم الجادة العابسة والذاوية بسبب الارهاق العصبي لم يفتحوا مظلاتهم . لقد تعودوا على البلل : فلتمطر السماء ما شاء لها ان تمطر .

في احد هذه الايام نقلت العربة الزوجين كراسنوبولسكي من محطة فارشافسكي الى الفندق على شارع مورسكايا . لم تكن كاتيا راغبة بالتوقف في بطرسبورغ لكن الامير ادعى بوجود اشغال لديه هناك فبدأت ايام رتيبة مملة . المطر يتساقط رذاذا ،

والضوء الكهربائي الاصفر ينير الغرفة طول النهار ، والامير يغيب فترات قصيرة ، ويقضي ما تبقى من الوقت على الاريكة صامتا تارة ، ومنفعلا لاتفه الامور تارة اخرى . واحيانا يقترح على كاتيا زيارة اقربائهما ، لكنها ترفض رفضا باتا . ذات مرة خرج الكسي بتروفيتش منذ الصباح ولم يعد لا في النهار ولا في الليل ولا حتى في اليوم التالي .

واليكم ما حدث . خرج من الفندق في الصباح واستأجر حوذيا كعادته وتوجه الى شارع شباليرنايا . وعندما سارت العربة بمحاذاة دار موردفينسكي اغمض الامير عينيه من شدة الانفعال : فالنوافذ التي كانت بالامس مطلية بالطباشير صارت اليوم مغسولة نظيفة والستائر مرفوعة وقد نورت عدة مصابيح كهربائية في داخل الصالة . صرف الامير الحوذى عند الركن وعاد الى مدخل الدار . انتفض قلبه بشدة حتى امسك صدره بيده . دق الجرس ودخل الدار وسلم بطاقته الشخصية الى الوصيف . ولم يكن يفكر في ما سيحدث فيما بعد — هل سيخرج اليه زوجها ام ستأتي بنفسها ؟ وكيف يتعين عليه ان يتصرف في الحالتين ؟

تأخر الوصيف ولم يعد طويلا . ففكر الامير : «حقير ، ابقاني في الدهليز متعمدا» . ظهر الوصيف بعيدا ، في داخل احدى الغرف والقى على الامير نظرة — وقحة طبعا — واختفى . فار الدم في رأس الكسي بتروفيتش ، فالتقط من رف المرآة قفازا نسائيا اسود ومزقه شطرين . وظهر الوصيف من جديد

وبيده منشة ملونة ينفض بها الغبار . وصاح به الامير : «مغفل !» ، وانداح صوته في الغرف الواحدة تلو الاخرى . وتناهى رنين جرى من مكان مـــا . واختفى الوصيف ، فصفق الامير الباب الخارجي بكل ما اوتي من قوة وخرج راكضا .

المطر يتساقط رذاذا في الخارج ، وتسبح سحب من الضباب على السطوح ، والهواء الصدىء ينخر العظام . راح الامير يجرجر قدميه على الرصيف . كان يتوقع كل الاحتمالات ما عدا الوصيف والمنشة .

وفكر الامير : «يجب ان انسى نفسي الان واغوص في لجة اقذر» . لقد ادرك بوضوح ان تلك هـــي النهاية . فان سنة ونصفا من التوتر الفظيع تكللت اخيرا بمنشة الغبار والمطر الصدىء . مـــا كان بالامكان طبعا ، توقع نهاية اخرى لانه هو نفسه قمىء نحيل تافه ، واذا اشتد المطر سيجرفه الى الساقية جنب الرصيف ويحملـــه الى انابيب المجارى تحت الارض . آنذاك تذكر كاتيا ، ولكنه فكر : «كلا ، فهي بعيدة ، مستحيل . يجب ان اذهب الى الخمارة» .

عند المفترق التفتت اليه امراة مرعبة في وشاح فرائى بليل وكأن احدا نثر الدقيق على وجههـــا . وخاطبته بصوت اجش :

— لماذا انت مهموم الى هذا الحد يا عزيزى ؟ تعال الي .

اشمأز الامير حتى الغثيان ، لكنه تبعهـــا في الحال .

اقتادته المرأة الى غرفة نتنة متصدعة الجدران .

جلس دون ان يخلع معطفه وقبعتـــه الى طاولة بلا شرشف وراح ينظر الى صور جنود متطوعين معلقة على الجدار فوق اريكة حمراء بالية . ورأى عبر شق الباب امرأة اخرى شبه عارية بشعر مرسل . وعندما لمحت الامير ينظر اليها كشفت عن اسنانها المسوسة وخرجت . وظهر على اثرها شاب فارع القامـــة في قميص احمر قان ، شعره اجعد وتحت عينيه جيوب منتفخة . وعلى كتفه سير يتدلى منـــه اكورديون . انحنى محييا ونفض شعره ووضع رجله بجزمتـــه الصقيلة على كرسي وبدا يعزف ، فقال الامير :

— نعم ، انشدونا ، وسادفع لكم .

لملمت المرأة ذات الشعر المرســـل اطراف ردائها الاصفر وطقطقت باصابعها وانشدت بصوت جهورى غير متوقع . التفت الامير اليها واخذ قنينة لا يعلم الا الله كيف ظهرت على الطاولة . جلست قربه الامرأة ذات الوجه المرطب بمساحيق بيضاء وراحت تحدق في فمه . عيناها مدمعتان بلا اهداب . عدلت تسريحتها المضغوطة ، ففرت بقة من تحت شعرها المستعار .

ضحك الامير باشمئزاز وقال : «طيب» ، وشرب قدحاً حتى الثمالة . كان للنبيذ تاثير فورى شديد . ودوى صوت المغنية : «لن اعكر بالاغنية الصاخبة نوم الصبية الفاتنة الهنىء . . .» اخذ الامير يحتسي قدحا بعد آخر من نبيذ حلو مقرف . واخذت اصوات الاكورديون تبتعـــد . حاول ان ينهض لينتزع ،

اخيرا ، هذا الشعر المستعار الذى يصبح بالبق ، لكنه ترنح ثم هوى على الارضية متشبثا بالمرآة .

عندما استيقظ وجد نفسه على سرير حديدى في غرفة غير غرفة الامس . الم به صداع شديد . وظل يتذكر طويلا ، وهو جالس على الحشية القذرة ، ما حدث له بالامس ، ثم خرج مترنحا الى الدهليز الغاص بالصرر والحقائب . وعلى احد الكراسي رأى صورة نصفية لجنرال . وبدافع من الفضول فتحت عجوز متغضنة الوجه باب المطبخ ومدت رأسها من شق الباب ونظرت اليه ثم توارت . خرج الامير من المنزل ولاحظ انه متعدد الادوار مبني من الطابوق ، بينما منزل الامس خشبي . وقال : «الشيطان وحده يعرف ما حدث» . ظل يجرجر قدميه امدا طويلا وكان عاجزا حتى عن استدعاء حوذى وعن التفكير بالوجهة التي يسير فيها . وفي الامام اسرع مشعل الفوانيس فاولعها الواحد تلو الاخر . تطلع الكسي بتروفيتش الى اللمع الاصفر عند قدميه وهز رأسه ومال حزينا الى الجدار البليل . ثم دس يده في جيبه ليخرج السجائر فلم يجد فيه لا السجائر ولا حافظة النقود .

تذكر زوجته من جديد . ولاحظ بارتياح هذه المرة ان التفكير فيها غدا يسيرا لذيذا لانه غاص في الاقذار والأوساخ حتى العنق . اما موردفينسكايا فقد امحت من الذاكرة وكان صورتها ذابت في وحل الشارع . ولعل كل ما كان مرتبطا بها قد انتهى ومات في تلك الليلة المقرفة . فاثار ذلك غبطته وسروره

حتى لكانه اجتاز قسما من الطريق العسير وتجاوز اصعب مرحلة مؤلمة .

اخيرا وصل الى الفندق ملوثا بالاوحال ومبللا حتى العظام ، لكنه هادئ تماما . لم يعرفه البواب ، فقهقه الامير . ذلك يعني انه تغير كثيرا في غضون ليلة البارحة . عند عتبة الغرفة خلع قبعته الاسطوانية المدعوكة ومسد شعره براحة يده وطرق الباب .

كانت كاتيا واقفة وسط الغرفة ملفعة بمنديل وبرى ابيض . وجهها شاحب تماما وعيناها متسعتان لا اثر فيهما للدموع .

– اين كنت تتسكع ؟ – سألته والقت عليه نظرة متفحصة ثم اشاحت بوجهها – يا للفظاعة !

تمتم الامير دون ان يجتاز العتبة :

– كاتيا ، غزيزتي ، تبللت حتى العظام . ولا استطيع الجلوس ، اخشى أن الوث كل شيء في غرفتك . . . ولكن من حسن الحظ ان ذلك حدث على هذه الصورة . – نقل بدنه من ساق الى ساق وابتسم بمرارة . – لا ادرى هل سالتقى بك مرة اخرى . ولكنني تخلصت يا كاتيا .

– أنت تهذى ، ينبغي لك ان ترقد – غمغمت على عجل .

– كلا ، تظنينني سكران ؟ ساشرح لك كل شيء الآن .

تنهد الامير وجال ببصره في الغرفة وتطلع الى جزمته الوسخة ، وبعد ذلك القى على محيا كاتيا نظرة خاطفة بحنان بالغ يقرب من الاستغاثة ثم غض بصره

وشرع يقص عليها كل ما حدث اولا باول ، وبدأ بشبح المرأة التي رآها تستقل الجندول في البندقية .

مضت كاتيا ، وهي تستمع اليه ، نحو الاريكة وجلست ، فقد خانتها قدماها . فهمت كل شيء ، حتى ما كان صباح اليوم . لكن ما ظل غامضا بالنسبة لها هو سبب اختفاء موردفينسكايا من ذاكرة الامير وكيفية نسيانه لها . اما بالنسبة لالكسي بتروفيتش فان ذلك وحده هو المهم الآن . تحدث عن نفسه وكأنما يتحدث عن انسان جديد ، وكأن ذاك الذى كان بالامس قد تلاشى الى الابد بعد ان كان عدوا غريبا . وبدا له ذلك كله واضحا طيبا فاطمأن وصفا ضميره ولم يعد يفهم لماذا تحدق كاتيا في وجهه بمثل هذا الغضب الشديد .

— ولكن هل فكرت في انا ؟ — صاحت به اخيرا فتورد وجهها — ماذا يتعين علي أن افعل ؟ كيف ساعيش معك ؟

— انت ؟ آه ، نعم . . .

حقا ، كان كل هذا الكلام يجرى وكأن القصد منه ان تغدو كاتيا الآن ، في هذه اللحظة بالذات ، ضحية ملتهبة وتقدم كل طهارتها ، كل طاقاتها الانثوية الرائعة ، لتملأ بها فؤاد الامير الخاوى .

فهم الكسي بتروفيتش ذلك وشعر بتقزز شديد من نفسه لم يشعر بمثله فيما مضى ابدا . فمن هو في الحقيقة يا ترى ؟ هل هو خفاش يمتص دماء الاخرين حتى يشبع ويهوى على الارض ؟

— كاتيا ، انني اتركك ، اتركك الى الابد . فيما

بعد ستفهمين كل شيء . — غمغم بهذه الكلمات ثم استولت عليه فجاة حالة من الاعجاب المنفعل الشديد حتى انعقد لسانه وتعذر عليه الكلام لحظة — عزيزتي . . . تذكرى ، تذكرى انني مخلص دوما ، مهما حدث ، مخلص لك حتى الموت . وداعا .

انحنى الامير حتى كاد يلامس الارض وخرج . وفي اليوم ذاته سلم زوجته مستندات بقيمة ضيعته كلها وتخويلا كاملا بالتصرف . ولم يأخذ الا بضعة آلاف . وفي نفس تلك الليلة سافر الى موسكو .

لم يكن يعرف على وجه التحديد ماذا سيفعل في موسكو . نزل في فندق متواضع ، وظل في الايام الاولى ينتظر تكرار لحظة الاعجاب المنفعل الذى يتحول الى فرحة عارمة لامد طويل . ولكن اتضح له شيئا ان المعجزة لن تحدث ، وان حياته الماضية التي تساهلت معه لحظة لا تزال معلقة فوق رقبته كالسيف الذى يمكن ان ينهال عليها في اية لحظة . عند ذاك حلت ايام الكآبة التي لا تطاق ولم يعد يرى مخرجا آخر سوى الموت . فالعودة الى زوجته مستحيلة ، ثم انه لم يكن يعرف اين كاتيا وماذا جرى لها بعد ان هجرها .

اشتدت الكآبة ، حتى صار بوسعه ان يشير الى موقعها على وجه التحديد تقريبا — وسط الصدر تحت العظم الاوسط بين الضلوع . ففي هذا الموضع يشعر بالضيق في الصباح وبثقل كثقل الرحى في المساء . ولا يخف الألم الا بعد كأس من النبيذ . بدأ الامير يشرب الكونياك ثم انتقل الى الفودكا . وعند ذاك صار

يتردد عليه معارف جدد غريبو المظهر ، لكنهم جميعا طيبون . وهو لا يتذكر اسماءهم ، اما ملامحهم فكانت تتبدد في آخر النهار على اية حال . كان صعبا عليه ان يميز بين الرجال والنساء ، ثم ما اهمية ذلك ؟ كانوا يلعبون القمار كثيرا وكان الامير يخسر حتى لم يبق معه من النقود الا القليل .

اثناء هذه الغيبوبة والنسيان المطبق حدث لقاء خاطف غير ذى بال ، لكنه انطبع في ذاكرته . كان الامير قد مر نهارا قرب كنيسة ايفيرسكايا التي بدت وكأنها جزيرة يلتقط المارة انفاسهم عليها فيخلعون قبعاتهم ويرسمون شارة الصليب على صدورهم وينظرون الى الايقونة القاتمة الشموع . توقف الامير هو الاخر واخذ يتذكر الصلوات ، فلم تحضره ولا واحدة منها . ظل يتطلع الى لهيب الشموع المتراقص والى لمع انعكاسه الدافىء على اطار الايقونة . وفي تلك الاثناء تناهى اليه من الخلف صوت مرح : «لوجه المسيح تصدق على ابن السبيل» . اخرج الامير فراطة والتفت . فرأى راهبا متدروشا يبتسم له بوجه مجدر نحيل وعينين صافيتين بزرقة فاتحة . نظر الامير فيهما وابتسم هو الاخر ، وخيل اليه ان الراهب يعرف شيئا في منتهى الاهمية ولا بد له هو ايضا ان يعرف ذلك الشيء . . .

– خذ هذه الفراطة ، – قال الكسي بتروفيتش – تعال الي فيما بعد وساعطيك روبلا كاملا .

لا يتذكر الامير جيدا . هل جاءه هذا الدرويش ام لا ، لكنه تصور ان العينين الزرقاوين الفضوليتين

لمعتا لحظة بين لاعبي القمار امامه عبر سحب الدخان .

حل الربيع . كان الامير تواقا الى التفكير في كاتيا ، وكيلا يفكر بها ادمن على الشراب باشد من السابق . ذات مرة جاء اليه بغرفته في الفندق تاجر قال انه من اهالي منطقة الفولغا وادعى بانه يعرف الامير وضيعته هناك واخذ يسأله عن احواله وحدثه بالمناسبة عن الفاجعة التي وقعت شتاء قرب الضيعة .

كان حديث التاجر مشوشا جدا ، ومع ذلك امكنه ان يفهم منه ما حدث على شاطىء الفولغا آنذاك ، في تلك الليلة الشتوية .

هوت الزحافة من التلة وانزلقت الى النهر المتجمد فتكسر تحتها جليده وغاصت حتى منتصفها دون ان تنقلب ، اذ امسك بها الحصان الاوسط بعد ان تشبث بالجليد بقائمتيه الاماميتين . تسنى للسائس ان يقطع المشدات . غرق احد الحصن وظل الحصان الاخر يصارع الغرق . زحف السائس على العريشين حتى بلغ الجليد الصلب وامسك بذيل الحصان فتمكن من انقاذه . امتطاه واسرع به في خط مستقيم الى ضيعة ميلويه طلبا للنجدة .

ظلت كاتيا مغميا عليها فوق سطح الزحافة . ووقف غريغوري ايفانوفيتش على ضلع مقعد الحوذى والماء يغطيه حتى الخصر (فالمقعد غاص في الماء ايضا ، الا ان الطبيب ، على ما يبدو ، كان يخشى الصعود الى السطح) واحتضن كاتيا ووضع رأسه

على صدرها وهو يحملق في عينيها المفتوحتين .

تساقط الثلج غزيرا من جديد واشتدت الريح ، وانداحت كالدخان على امتداد النهر ، وترسب «الغبار» الثلجي على وجه كاتيا الجامد كوجوه الموتى . ارتعب الطبيب فرفع رأسه وصرخ ، وحاول الحصان الاوسط ان يتملص من اسار الجليد لكن قواه خانته . وكانت الزحافة تهتز وتتمايل في الريح القارسة . وفجاة رفعت كاتيا اعلى بدنها وخفضت ساقيها بجواربها الخفيفة ونشرت يديها ثم احتوت رأس الطبيب وضغطته الى صدرها وكأنها تخشى ان تفلته . ظلا صامتين بهذه الوضعية حتى هرع اليهما الخدم من ضيعة ميلويه ومعهم حبال واوتاد . نزلوا من جيادهم قرب الفجوة المائية في النهر المتجلد ظانين بان الاميرة والطبيب ماتا متجمدين لكنهم لاحظوا كاتيا تحرك رأسها قليلا وتنظر اليهم وهم يغرزون الاوتاد ويلقون الحبال الى ما وراء الزحافة ويسحبون الحصان الاوسط من الماء الى الجليد .

وفجاة حدث شيء غير مفهوم : عند حافة الجليد ، وبعد ان امسك الرجال الاميرة بايديهم القوية ، رفع غريغوري ايفانوفيتش رأسه وفتح فمه وقال كلاما متقطعا فهم منه الجميع : «كلا ، لا تمسوها» ومد بدنه ويده نحو كاتيا وان وهوى على الماء بصيحة مرعبة دون ان ينحني ويلتوي ، وغاص في الحال تحت الجليد وكأنه جلمود صخر .

وضع الرجال الاميرة في زحافة صغيرة وغطوها

بمعاطف الضأن واوصلوها الى ميلويه . وفي اليوم التالي نقل فولكوف ابنته الى ضيعته .

كان مصرع الدكتور زابوتكين اشد ما صعق الامير في هذه الحادثة . وكلما اطال التفكير فيه ازداد قناعة بان مقتله لم يكن صدفة بل تضحية واعجابا بالموت .

انفعل الامير اشد الانفعال ، ولم يكن واثقا من ان كاتيا لا تزال على قيد الحياة . وبدا له ان البقاء في موسكو مستحيل . لف المائة روبل الاخيرة في قصاصة جريدة وتوجه الى ياروسلافل ، ومن هناك استقل الباخرة .

فكر مرة بان يتسلل الى احدى القرى المجاورة لضيعة ميلويه كي يتقصى اخبار كاتيا ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة فيما بعد . كل ما كان يتوق اليه هو ان يمر بالضيعة ويتنشق ذاك الهواء ولو مرة واحدة ، ومن ثم فليكن الطوفان . واهلا بالموت حتى وان كان اثر ادمان شديد .

٢

الكسي بتروفيتش راقد على جنبه في قمرة انفرادية جدرانها ملبسة بالصفيح ومطلية بدهان جوزي . قرب الباب يسيل الماء في الغسال . وستارة النافذة المعدنية تهتز . وضوء الشمس المنعكس على الماء يتسرب عبر شقوق الستارة ويتراقص على السقف الابيض بقعا متموجة مضطربة .

على الطاولة الصغيرة امام المرآة دورق فودكا وصحون وتبغ في قصاصة جريدة ، وعلى الارضية حقيبة مفتوحة خالية تقريبا ومعطف عند القدمين .

تكتكة الماكنة الرتيبة تبعث النعاس في قيظ الصيف ، وسرعان ما يستسلم المرء للنوم على الفراش الناعم يهدهده النسيم المنساب من النافذة . الكسي بتروفيتش يشخر بين حين وآخر ، ووجهه متورد كوجوه السكارى . لم يأكل شيئا تقريبا خلال الاونة الاخيرة . كان يشرب طوال الوقت ويتذوق طعاما لا يجد لذة فيه . وعندما يلهب الكحول معدته ويجف حلقه يستيقظ منكمش الوجه ويمد يده الى قنينة العصير ويمتص جرعة ثم يستدير نحو الجدار ويثني ركبتيه .

في الرحلات النهرية تتفتح شهية الانسان ، فما يكاد ينتهى غداء الظهيرة حتى يبدأ طعام العصر . وعندما سمع الامير طرقا على باب القمرة فكر في نفسه : «حبذا لو تناولت الآن شيئا مملحا» وهتف بصوت ناعس . «آوو» وفتح عينيه .

الا ان الطرق على الباب تكرر . وقال الامير بصوت مرتج :

— احضر لي ، يا عزيزى ، دورقا ابرد وشيئا مما يؤكل . . .

وفكر من جديد : «حبذا لو تناولت شيئا مملحا ، قطعة من السلمون المتبل مثلا ، حتى اواصل الشراب . . .»

الا ان الطرق على الباب استمر .

— ماذا تريد يا شيطان ؟ — صاح الامير ودلى قدميه من السرير وازاح مزلاج الباب .

فتح الباب بحذر ودخل الدرويش يرتدى قلنسوة تتدلى منها ضفيرة على قفاه . ولاحت اطراف اصابعه من ردني غفارته وخاطب الامير :

وتقول اني شيطان ! مرحبا ! — انحنى قدر ما يتمكن البدن من الانحناء ثم جال ببصره باسما في القمرة ومحتوياتها المبعثرة .

تطلع الامير مرتعبا في العينين الزرقاوين الصافتين على الوجه المجدور الضئيل . وعلى العموم كان الراهب المتدروش ضئيلا مهلهلا لم يبق في مظهره ما يستحق الذكر .

وتابع الدرويش كلامه :

— جئت اطلب صدقة . قبطان السفينة رجل طيب قال لي : «اطلب الصدقات ولكن لا تسرق شيئا» . فما الذى يجعلني اسرق اذا كان الناس يتصدقون علي ؟ وقال عنك انك مدمن . لكنك لست مدمنا ميئوسا منه ، اليس كذلك ؟ فانا اعرفك جيدا .

جلس جنبه ووضع يده على ركبتي الامير فابتعد هذا قليلا وجحظت عيناه المنتفختان .

— لو لا الكآبة لما تحول الانسان الى خنزير ، اليس كذلك يا عزيزى ؟ — سأل الدرويش فجأة .

هز الامير راسه وندت عنه تنهدة قصيرة واجاب :

— لا حياة اسوأ من حياتي ! — ثم انتبه الى

نفسه وقال غاضبا . – يا هذا ، هل دعوتك انا ؟ فلماذا تتطفل ؟ اذهب ، ارجوك ، فالدنيا ضيقة حتى بدونك .

– لن اذهب – أجابه الدرويش – يبدو انك افرطت في الشراب . لن اتركك اطلاقا .

نفض الكسي بتروفيتش رأسه واختلطت عليه الامور وغامت عيناه . ثم قال بصوت كئيب :

– هل يعقل انك مجرد خيال في تصوراتي ؟ ذلك يعني ان اموري سيئة . اسمع ، أنت تشرب الفودكا ؟

– ما الداعي لها ؟

رفع الكسي بتروفيتش بصره الغائم من جديد ، وكان وجه الدرويش يعوم في جو القمرة .

– اشرب والا قتلتك ! – صاح الكسي بتروفيتش بهياج ، لكن الدرويش ظل يبتسم . خارت قوى الامير فرقد واغمض عينيه .

– عجيب ! الى اى حال وصلت ؟ ! – قال الدرويش بعد لحظة بصوت عال متشدد على غير المتوقع : – ساسقيك خمرا من نوع آخر . ستبقى شبعان من خمرى وستظل على قيد الحياة . . . اسمع ما اقوله لك . . . اعطتك الاقدار كثيرا ، لكنك ضيعت كل ما اعطتك . ضيعته لتجد الكثير ، بل لتعثر على الخلود . انهض واتبعني حيثما اشير عليك .

«لا ترفع صوتك ، سافعل كما تقول ، ولكن الافضل ان تذهب» – فكر الامير . انحنى عليه

الدرويش ومسد رأسه ، فضيق الامير جفونه . واضاف الدرويش :

– تعال معي يا عزيزي . اقول لك صادقا . انذر نفسك . ستصل الباخرة قريبا الى اوندورى ، وهناك انزل ، وستجدني على الشاطيء . فكر في الامر جيدا وتعال الي . هل انت فاهم ؟

ظل واقفا بهدوء ، ولعله انصرف فيما بعد . فقد طقطق مزلاج الباب .

بقي الكسي بتروفيتش راقدا يستجمع شتات افكاره بشق الانفس كي يفهم هل كان الدرويش يتكلم معه حقا ام ان ذلك مجرد رؤيا ؟

صرف وقتا طويلا وهو على هذه الحال . البقع الضوئية على السقف انطفأت من زمان وخيم الظلام في القمرة ، وسرعان ما اشتعل مصباح خافت فوق المرآة واخذ يتوهج . وقال الامير :

– سخافة . بالامس رايت على هذه الصورة ايضا فارسا في طاقية صفراء .

هبط من السرير والقى نظرة على نفسه في المرآة ومضى يجرجر قدميه بصعوبة الى استراحة الدرجة الثانية . جلس في الركن دون ان ينظر الى أحد . ثم استند الى الطاولة بمرفقيه واغلق اذنيه براحتيه كيلا يسمع لغط الحاضرين . احضر الوصيف دورق فودكا باردة وطبقا من سمك السلمون . صب الامير الفودكا في قدح ترسب عليه البخار وخلطها بقليل من الفلفل وشرب على مهل ثم زفر نفسا مخمورا والقى نظرة شزراء على طبق السلمون .

زارت الباخرة آنذاك وبدات تستدير . ازاحت الريح ستارة النافذة وقال احد الجالسين عند الطاولـــة المجاورة بلهجة واثقة :

– اوندوري . . .

نهض الكسي بتروفيتش في الحال وسأل بصوت خافت : – حقا ؟ – ثم خرج الى متن الباخرة المظلم .

اضطرب الماء الاسود تحت الباخرة وهي تستدير نحو المرسى . وفي ضوء كوتها تهادى على الموجة قارب فيه صبيان ، احدهما يجذف ، والآخر يعزف عـــلى قيثارة مثلثة . ثم ابتلع الظلام القارب .

مال الامير الى عمود الدرابزون وراح ينظـر الى مبنى ادارة الملاحة الذى اقترب ، ورأى كيـف القوا بحبال المرسى على سقفه فاثارت دويا ، وكيف مـد ملاح وثلاثة رجال باسمال باليـــة السلالم الخشبية فتراكض عليها بخطوات واسعة حمالون على رؤوسهم اكياس كقلنسوات الرهبان .

ثم هرع من باطن الباخرة مسافرون على اكتافهم حقائب وعـــــلى ظهورهم صناديق واخذوا يدسون التذاكر في يد ملاح الادارة .

حدق الكسي بتروفيتش باهتمام وارتعش فجأة عندما رأى بين الرجال والنساء العينيـــــن اللتين يعرفهما جيدا . وفي الحال حجبتهما بالة صوف .

هبط الامير مستعجلا واندس بين الجمهور وهو يتلفت بنفاد صبر ويعض شفتيه .

اسرع من المرسى الى الشاطىء ، حيث جلست فلاحات قرب صينيات تنيرها فوانيس واخذن ينادين

المسافرين ويعرضن عليهم بالحاح خنوصا محمرا او رغيف خبز .

وعلى رمال الشاطىء اختلـــط الامر على الكسي بتروفيتش في الزحام بين الناس والاكياس والعفش . الشيء الوحيد الذى يتذكره هو ان يجد شخصا مـــا ويسأله عما ينبغي فعله . خيل اليه مرة ان شخصا يعرفه تماما انحنى على احدى الصينيات . وبعد ذلك خيل اليه ان احدا لوح لـه بيده من بعيد ، بيـــن العربات .

– يستدرجني – همـــس الكسي بتروفيتش وتوجه محني الظهر ، بطريق ملتو ، نحو تلــــك العربات .

وفي تلك الاثناء زارت الباخرة مبتعدة ، واطفئت الانوار فيها .

٣

– هيه ، تمهلوا ، انتظروا ! – صاح الاميــــر في اثر الباخرة المبتعدة وهو يعرج على المرسى .

اعترض طريقه حمال قصيـــــر القامة عريض المنكبين :

–الباخرة اقلعت يا سيدى .

واقترب منه الملاح والبائعات ورجل قميء مهموم بلحية مدببة . احاطوا به من جميع الجهات وامطروه وابلا من الاسئلة . مـــن اين جاء والى اين هـــو مسافر ؟ الم يتـــرك نقودا في الباخرة ؟ هـل هـو متزوج ؟ تأوهوا وهزوا رؤوسهم . وكان الرجـــل

المهموم اكثرهم تألما وكأنه هو الذى تخلف عن الباخرة . وقربت امرأة وجهها من وجه الامير واعلنت فجأة بصوت ملؤه الفرح والدهشة :

– سكران ! . .

عاد الهدوء اليهم جميعا في الحال واخذوا يعاملون الامير باريحية ومشاطرة .

الا انه اشمأز وانقبض من تلك التساؤلات الحمقاء ، وشق لنفسه طريقا بين الجمهور وابتعد سائرا على الشاطىء .

وفكر : «ساسقط في مكان ما وانفق . يا ليت . فلا احد بحاجة الي . سامشي ما دمت قادرا على المشي . يا للاسف ! آه ، لم اكن اتوقع هذه النهاية» .

سار الامير في بادىء الامر على امتداد الشاطىء الرملي الذى داعبته ببطء امواج خفيفة خلفتها الباخرة . وسرعان ما واجهته رمال متموجة فتعثر واستدار من النهر باتجاه الهضبة ومنها الى المروج .

وعندما تسلق الهضبة بشق الانفس رأى النجوم المنثورة بكثرة على صفحة السماء . العشب محشوش ومكدس في اكوام . توقف لحظة وانصت الى قرقرة سمانة في مكان قريب ، ثم اغذ السير باسرع مما على الشاطىء فالقدمان لا تغوصان هنا في الرمال .

وفكر اخيرا : «لم هذه العجلة وكأن احدا يطاردني ؟» وتذكر فجأة بانه لم يلتفت الى الوراء ولا مرة واحدة . فارتعب لهذه الفكرة حتى جلس

القرفصاء في الحال والتفت ببطء والقى عبر كتفه نظرة الى الوراء .

لاح من وراء الهضبة خلفه ، على الحقل الرمادى في ضوء النجوم ، شبح قاتم في قلنسوة مدببة . كان ذاك هو الدرويش .

«يلاحقني . يجب ان اختبئ» – فكر الامير واسرع محني الظهر الى اقرب كومة من اكوام الدريس وانبطح هناك وثنى ركبتيه وحاول ان يحبس انفاسه . فاحت من الاعشاب الذابلة رائحة البنج والبصل البرى . كاد الامير يختنق . وفجأة مر الدرويش قربه على عجل ، وخيل الى الامير انه رأى لمعان عينيه الازرق .

وفكر الامير خائفا : «يا للشيطان . وقعت في داهية ! هل سيراني أم لا ؟ والحمد لله . . . كلا ، عاد من جديد . يتحاشاني كأني وحش . . . ليتني لا اصرخ . . . وربما هذه رؤيا تتكرر من جديد . وربما انا راقد في قمرتي وارى حلما . . . كلا ، هذه ارض ، وهذا دريس . . . وتلك هي النجوم . يا نجوم ، يا نجوم ، يا عزيزاتي ، كنت دوما مغرما بكن . . . يا الهي ، انني اؤمن بك الان» .

امسك الكسي بتروفيتش قلبه وادار رأسه وند عنه انين . في تلك اللحظة ظهر الدرويش من خلف كومة الدريس وجلس قربه ولمس كتفه . نهض الامير بحدة واطلق صرخة مرعبة ثم سقط على

ظهره في الحال . كانت عيناه المفتحتان الواسعتان تطفحان بالجنون .

— لا تخف ، — خاطبه الدرويش بصوت خفيض — الا ترى كيف انقلبت سحنتك ؟ لماذا اختبأت عني ؟

— لن اختبىء بعد الان ، — غمغم الامير بصعوبة . — انني اعرفك . التقينا اول مرة قرب كنيسة افيرسكايا . وقد فعلت ما امرتني به . . .

ابتسم الدرويش ، وخيل للامير ان شاربيه الصغيرين ازيحا الى الجانبين وظهر من تحتهما لسانه ، كما عند الحرذون ، ظهر واختفى . . .

نهض الامير في الحال وهم بالفرار ، الا ان الدرويش امسك به وجعله يرقد على الدريس من جديد وقال :

— احمق ، والله ، احمق . لا حيلة في الامر ، سننام على العشب . حاولت في البداية ان ندبر امورنا في احدى العربات ، وكان بالامكان ان ننام فيها . . . ولكن ، نم يا عزيزى ، وساغني لك .

رقد على الدريس قرب الامير ، وبعد قليل انشد بصوت متأن رفيع :

غفوت قليلا
في مرفأ الاحلام السحرية
ورأيت في المنام
حصانا يعدو بي في السهوب
سقطت قبعتي
وواجهت الموت
فلا مفر من المصير . . .

وقالت امي :
حصان غريب
يعدو ،
عليه عروس
في فستان ابيض ،
أليست عروسك ؟

٤

انغرز شعاع شمس الصباح في جفون الامير المغمضة فاستيقظ واعتدل معتمدا على ساعديه ، فند عنه انين ، لان بدنه كله يؤلمه .

والى جانبه جلس الدرويش على الدريس وقد وضع سكينا ورغيفا وبصلتين على فوطة .

راح يقضم البصلة الثالثة باسنانه البيضاء . وتراقصت غضون مرحة على وجهه المجدر حول العينين الزرقاوين وتحت الشاربين المنتوفين . وسأله :

— هل زايلك الغثيان ؟ خذ ، اشرب . احتفظت بها لك خصيصا ، ولن اعطيك اكثر ، والله . . .

خلع قلنسوته واخرج من باطنها قنينة صغيرة فيها جرعة من الفودكا الدافئة وسلمها الى الامير . فاخذها منه وهو يحاول بصعوبة ان يتذكر ما حدث . عندما تجرع الفودكا صفا ذهنه وتحرك دمه . نهض وعدل بدلته المدعوكة ولمس رقبته التي حكتها الياقة المركبة فخلعها والقى بها جانبا . وقال له الدرويش :

– ستر تاح نفسك . تنشق الآن الهواء الطلق ، الا ترى كيف اصفر وجهك ؟

– هل اقتدتني انت من الباخرة ؟ – سأله الامير .

– نعم .

– لماذا ؟ فانا مسافر لقضاء بعض الشؤون .

– سخافة . اية شؤون يمكن ان تكون لديك ؟

– لماذا اقتدتني ؟

– لتعيش . فما الذى تفعله في الصيف ؟ انت لا تستطيع ان تعمل ، لانك اعرج نحيل . اما في الشتاء ، عندما يشتد البرد ، فالعيشة تصبح اصعب . وعند ذاك ساحاول ، يا عزيزى ، ان ادخل السجن كالعادة . ساخفي الهوية واقول لهم انني لا اعرف اقربائي وليس عندى ماوى . وسوف يطعمونني . وعندما ياتي الربيع اقول لهم الحقيقة . لقد ضربوني مرارا على هذا التصرف . تلك هي الحياة !

استمع اليه الامير باهتمام بالغ وقطب حاجبيه ، فقد بدا له الدرويش بغيضا ، لكن في كلماته وضوحا وقوة . وفكر : «فليذهب الى الشيطان . ولو ذهب ، فماذا بعد ؟ هل اعود الى الباخرة ؟ والى اين ارتحل ؟ ولماذا ؟ هل اذهب معه ؟ شيء مضحك مع ذلك . فكيف . يمكن لي ان اتسكع في الدروب ؟» .

وسأله مقلصا جفونه :

– هل تعرف مع من تتكلم ؟

غمز الدرويش بخبث وقال :

– لو كنت السلطان العثماني نفسه فهذا سواء بالنسبة لي .

وفكر الامير : «الشيطان وحده يعرف ما هذا . سخافة . يبدو انني ساتسكع معه فعلا . وسانفق في مكان ما ، انا السلطان العثماني !» . وقال بفتور :

– حدثني اكثر . كيف سنتسكع ؟

وهكذا سارا عبر الحقل المحشوش متوجهين الى ما وراء الغابة البعيدة التي شهقت فوقها غيوم بيضاء .

كانت الغيوم تسبح ببطء من وراء الغابة وتحوم فوق الحقل وتلقى عليه ظلالا باردة ومتنقلة ، ثم تلتف حول سمانه وتتكوم على الطرف المقابل من الارض . ارتفعت الشمس مشيرة الى الساعة التاسعة تقريبا . وفي الافق الرمادى تراقص الشرر على صفحة النهر الازرق الممتد الى ما وراء التلال الطباشيرية .

وقال الدرويش وهو يستدير باتجاه النهر ثم باتجاه الغابة :

– لن يستطيع احد ان يطردني من هنا . فانا كالجرذى ، لي حق مشروع ان اعيش حيث اريد . هل تعرف كيف يعيش جرذان الحقول ؟

وطفق يتحدث عن حياة جرذان الحقول . واصطاد جندبا ، ولمس لعابه . وصفق لسمانة طارت من تحت قدميه ، وهتف :

– خذى ، يا قصيرة الذيل !

سار الامير خلفه على بعد خطوات ، وضيق جفونه ، فقد خيل اليه ان الارض ستنتهي قريبا وانهما سيحلقان في الهواء البلورى حتى الغيوم ، واعلى منها ، الى حيث الريح والشمس ، ولا شيء غيرهما .

وسرعان ما تعب من المشي فجلس على حافة الدرب وطلب طعاما .

رقد على ظهره بعد الاكل وفكر : «شيء مدهش ، مدهش جدا . السماء صافية زقاء . فلاتجول حقا ، الا يتجول الناس في كل الارجاء . . . الريح ستبدد كل ما يزيد عن الحاجة . نعم ، الريح والغيوم ! اما انهم ضربوني ، فما اهمية ذلك ؟ ضربوا الدرويش ايضا . لحظة ، فلا تذكر . ماذا قال لي قرب كنيسة ايفيرسكايا ؟ طبعا ، بدأ هذا التجوال آنذاك ، من هناك ، وبدأت هذه الحرية وهذا اليسر ، وهذا العالم البلورى كله . مدهش : لا داعي لتذكر شيء ولا التعود على شيء . . .»

بلغا الغابة مع حلول المساء . وباتا الليل في مستودع القش عند فلاحة اكتفت بان سألتهما عما اذا كانا من اللصوص املا .

وفي الصباح تيمما شطر الحقول من جديد . الجودار الناضج يتموج على الجانبين ، والجنادب تقفز من تحت الاقدام ملتجئة اليه . بدأ الامير يتشكى من الم في رجليه . فخلع الدرويش الجزمة منهما وخباها في المخلاة ولف قدمي الامير بلفائف صوفية . فالمشي فيها سهل ومريح . كان الامير يفعل كل ما يقوله الدرويش . يسير برجله العرجاء

متعكزا على عصا ويفكر بان حياته كلها ظلت هناك ، في القمرة الصفراء ، وليس امامه هنا الا الريح التي تصفر بين السنابل واعمدة الغبار المتصاعد بعيدا . وعلى طرف الحقل عربة يرتفع قربها الدخان ، ووراء الافق الرمادى المتململ كبحر سرابي تقيم كاتيا ولا يرى لها اثر من هنا .

– هل تعلم ان لي اختا اسمها كاتيا تقيم في هذه الانحاء ؟ – قال الامير ذات مرة وهو راقد في حقل الجودار يتطلع الى السنابل الذهبية التي تتمايل فوق راسه على صفحة السماء .

– سنذهب اليها هي ايضا ، – اجابه الدرويش . – الصيف طويل ، والانسان ، يا عزيزى ، كالسحابة ، ما عليه الا ان يأخذ عصاه ويسير كيلا يتعود على المنزل ، ولا يمتلئ دناءة .

الا ان الامير لم يسمع هذه الحكمة حتى نهايتها . فقد راح يكرر مع نفسه «سنذهب اليها هي ايضا» . وسيذهبان اليها معا ، معا من كل بد .

كان الدرويش يتحاشى القرى الكبيرة التي يوجد فيها شرطي او مأمور شرطة . فاضطر الامير الى النوم ليلا في الوهاد التي يوقظه فيها صباحا صياح الخطاف المدبب الجناحين ، او في البيادر او تحت عربة ما في الحقل .

وصار الامير يدهش من نفسه ويتعجب لانه لم يعد يشمئز من القمل والاوساخ وروث الخيل عندما يهوى متعبا في اى مكان يصادفه وينهض في الصباح مرحا بقوى متجددة .

وفي كل مكان حظي الجوالان بمعاملة بسيطة من الناس الذين لم يسالوهما عن هويتهما ، بل كانوا في اغلب الاحوال يستمعون الى احاديث الدرويش ويفهمونها كل على طريقته الخاصة : بعضهم يضحك منها ولا يصدق بها ، وبعضهم يدهش «لسعة العالم» وبعضهم يكتفي بهزة من راسه . ويصادف ان تتنهد فلاحة دون ان تعرف السبب . كانوا ينعتون الامير «بالسيد» ويشفقون عليه ، في حين يدهش الكسي بتروفيتش لكثرة هذه الشفقة عند بسطاء الناس .

وقال الدرويش ذات مرة :

– امثالنا كثيرون يجوبون الدروب . يعيش الواحد منهم ولديه كل ما يحتاج اليه ، ومع ذلك يشعر بالملل . انا نفسي مررت بهذه المرحلة . كنت اشرب الفودكا بشكل مرعب . وكان يحدث ان انبطح على الارضية وقربي خابية وقدح ، اشرب ولا آكل شيئا حتى اسود جلدي . ادمنت على الشراب وصرت ارى ما لا يقبله العقل : يخرج من تحت السرير حصان عار بقرنين وبوزه كراس الطير . تعذبت كثيرا ، ورايت الكثير . وفي مثل هذه الحال يصل الامر بالبعض الى الانتحار بطلقة مسدس ، طلقة واحدة ، وكفى . فما اكثر الذين ينتحرون . قد يحدث ان يقدم البعض على القتل بسبب الضجر . فيتصور الواحد منهم ان حياته فيما بعد ستكون مثلما هي اليوم : يأكل وينام ثم يموت ، ولا يبقى له الا ان يفسق بجنون لكي يؤثر عليه الفسق اشد التأثير وينغزه كالابرة . فما الذى يمنعه في هذه

الحالة من ان يطعن شخصا بسكين ؟ . . ويطعنه ، والله ، بالفعل . اذ ان ذلك بسيط للغاية اذا استولت عليه الرغبة لحد الجنون . اما البعض ممن تعز عليهم انفسهم فيلجأون الى التطواف والتجوال . ثم انني شخصيا اصطحبت كثيرين . في الصيف الفائت تبعني شخص مثلك . ظل يطوف معي فترة طويلة ثم التجأ الى السلطات واعترف لها بانه قاتل .

– صحيح ، كل هذا صحيح ، – اجاب الكسي بتروفيتش (كانا يتحدثان قرب كومة عالية من قش الموسم الفائت على تلة يتطلعان منها الى قرية في الاسفل لاحت على صفحة المغيب كخط قاتم من سطوح المنازل والمداخن واعواد بيوت زرازير) . – فانا الان ، اعرف على ما يبدو ، لماذا اطوف . ربما اتطهر وتصفو سريرتي ، وعند ذاك . . . – لاذ بالصمت فجاة واشاح بوجهه واغرورقت عيناه بالدموع . ولكي يستر اضطرابه اضاف بضحكة فاترة : – اما انت فتتسكع عمرك كله كالطفيلي ، انت طفيلي حقا .

– في رايي هذه اقوال سخيفة . – اجابه الدرويش – فلكل ما له . هناك اشخاص يشعرون بفرح كبير وهم جلوس على كراسيهم ، وهناك اشخاص يشعرون بفرح كبير ايضا عندما يجوبون المدينة في العربات ويعزفون على الاكورديون . لا ضير في ذلك . الضرر كل الضرر في اضطراب الذهن وتشوشه . ما ادراك ؟ ربما انا ايضا هارب من ضميري ؟ . .

في اليوم العاشر وصلا الى الفولغا من جديد . وبعد الحوار قرب كومة القش لم يعد الدرويش يغني . بل غرق في تاملاته مطاطأ الراس . وغرق الكسي بتروفيتش هو الاخر في تاملات واضحة مفرحة . خيل اليه ان الماضي كله هوس وهلوسة ، ككابوس خانق ، وها هو الان يسير في الشمس بين الجودار ، ويشعر بحب غامر لم يشعر بمثله في السابق ابدا . . .

في قرية مطلة على النهر ، تبعد عن ضيعة الامير زهاء ثلاثين كيلومترا ، احتجز الشرطي الدرويش . ثم تفحص هوية الامير وهز راسه وقال :

— طيب ، اذهب ، لكننا لا نسمح بالتجول دون عمل . . . فخذ بالك ، يا ابن الكلب ، اذا وقعت في يدى مرة اخرى ساحبسك .

اخذ الكسي بتروفيتش الهوية وترك القرية الى اجمة البلوط على ضفة النهر . وعندما خيم الظلام لمعت انوار المدينة كالنجوم على تلال الضفة الاخرى .

كل شيء هادئ مألوف : سكون الاجمة وخرير الماء وهذه الانوار اللماعة كالنجوم . رقد الامير على العشب في الظلمة واستسلم للبكاء : «عزيزتي كاتيا ، يا زوجتي الحبيبة» .

الفصل الاخير

١

في مساء اليوم التالي اندفع الناس خارجين من مبنى فندق كراسنوف الذى يشغله مسرح المدينة . بلل المطر الرصيف المعبد بالاسفلت والمضاء بمصباح معتم . لفظ باب الفندق جمهورا متحاشكا سرعان ما توزع على الرصيف . اسرع البعض عائدين الى بيوتهم ، وتوجه البعض الاخر الى المطاعم ، بينما ظل عدد من الرجال هناك للتفرج على السيدات والآنسات . شق الاقطاعيون القادمون من الارياف النائية طريقهم بخشونة وهم يتدافعون بالمرافق ويكررون : «معذرة ، معذرة» . اما اقطاعيو الناحية فقد تنحوا بتأدب وراحوا يتجاذبون اطراف الحديث بشأن موضوع المسرحية . وعندما خرج كبير النبلاء الذى يتحلى بكل مزايا التربية الانجليزية بالاضافة الى البدانة ترك البواب موقعه وهرع صائحا باعلى صوته : «احضروا العربة !»

وقف الموظفون على جانبي المدخل يتفحصون الوجهاء بفضول . وتزاحم طلاب في قبعات بروسية الطراز عند الباب ليمتعوا انظارهم برؤية الاوانس ويهتفوا للممثلة التي ادت الدور الرئيسي في المسرحية .

وعلى الرصيف البليل سارت السيدات والاوانس وزوجات الموظفين والتجار متلفعات بالوشاحات والشيلان رافعات اطراف التنورات .

واخيرا ظهر في الباب فولكوف وكاتيا . فهمس الطلاب :

– انظروا ، كراسنوبولسكايا .

حتى موشينكين ، وهو موظف قصير القامة بشاربين طويلين للغاية ، قفز مرتبكا وكأنه ظهر من تحت قدمي كاتيا ورفع رأسه مندهشا .

حقا ، كانت كاتيا في منتهى الجمال بمعطفها الابيض وقبعتها الصغيرة المضفورة من بنفسج اصطناعي . محياها العاجي صارم التقاطيع وشفتاها مزمومتان بانفة واستعلاء وعيناها متسعتان متقدتان .

كانت منفعلة للمسرحية . فكل كلمة فيها تتحدث عن ماضي كاتيا نفسها . وكان الرجال ينظرون من المقصورات ومن القاعة الى مجلس كراسنوبولسكايا بوقاحة وخسة . فكانت تتعذب لهذه النظرات التي ظنتها متعمدة .

خلع البواب قبعته وسأل من فولكوف :

– اى حوذى انادى يا صاحب المعالي ؟

– بيوتر ، يا اخي ، بيوتر . ناده باعلى صوتك – اجاب فولكوف ، فزعق البواب في طول الساحة وعرضها :

– بيو . . تر ! احضر العربة !

عندما صعدت كاتيا العربة بعد ابيها علق فستانها بالمقبض والتفتت . «كاتيا !» – سمعت صوتا يناديها عن كثب فانتفضت وحملقت في تلك الجهة ثم رفعت راحتها في الحال وغطت عينيها وهبطت في المقعد العميق . وتحركت العربة .

كان الامير واقفا قرب عمود المصباح الكهربائي حاسر الرأس في ثياب بالية مهلهلة وفي بقية من حذاء ممزق . اشراب بعنقه وشيع العربة المنطلقة بنظراته وراح يكرر كلمة واحدة لا غير : «كاتيا . . .»

وقال له شرطي :

– ماذا تفعل هنا ؟ اذهب ، هيا .

ما ان ابتعد الامير عن عمود الكهرباء حتى راى سوروبا يتطلع فيه عبر نظارته المنفردة بفضول ما بعده فضول .

– لم هذا الزى المتنكر يا امير ؟ – هتف سوروبا وامسك بذراع الكسي بتروفيتش ثم نادى حوذيه وحمل الامير بالقوة على الصعود الى المركبة الانجليزية الصقيلة رغم محاولته للتملص من قبضته . وغمغم الامير : «هذا يلزمني ، امري وشأني ، لا اريد الذهاب» . وامر سوروبا الحوذى بالاسراع في اتجاه الهضبة كي يتمكن من بلوغ الضفة الثانية من النهر مع آخر عبارة .

هدأ الكسي بتروفيتش وسكن محني الظهر في المركبة . كان يرد على الاسئلة باقتضاب ويحاول ضبط نفسه كيلا تصطك اسنانه من شدة القشعريرة التي انتابته . وادرك الامير ان سوروبا والاخرين سيفعلون بكل بساطة ، طبعا ، ما لن يتجرأ عليه هو ابدا .

وقال فولكوف لابنته وهو يتمايل في العربة :

– الحقيقة انها مسرحية سخيفة . فعم كانوا يتصايحون ؟ ذلك ما لا افهمه . واقول لك انني

غفوت قليلا . اما انت ، يا عزيزتي ، فلا يجوز لك ان تنفعلي . هل تشعرين بالتعب ؟

— كلا ، ابدا ، يا بابا . — اجابت كاتيا ، وضغطت قبضتيها بشكل غير ملحوظ . — الا انني لا اريد المبيت في المدينة . فلنذهب الى البيت .

— انت مجنونة ! العمة اولغا تنتظرنا على العشاء . فكيف يجوز ان نغضب العجوز ؟ ولكن لا تنفعلي ، سنأكل لقمة ثم نعتذر بسبب الاشغال ونرتحل . آه يا كاتيا ، لا افهم شباب اليوم . رؤوسكم مليئة بالهوس والاباطيل . في السابق كانت الحياة ابسط .

٢

لم يكن من باب الصدفة عندما قال فولكوف ان شباب اليوم مهووسون او «هوائيون» على حد تعبير العمة اولغا . فالعام الحالي كان عاما اسود بالنسبة له . ظلت كاتيا مريضة الشتاء كله ، وما كادت تتماثل للشفاء حتى فلت لسان كوندراتي وقال لها ان الطبيب غرق آنذاك تحت جليد النهر ، وعند ذاك بدأ «الهواء» او الهوس يجول ويصول في رأسها ، حتى ان فولكوف اراد ذات مرة ان يترك المنزل ويهيم على وجهه . . . بعد ان نفد صبره ولم يعد يتحمل .

في الليل تأتي كاتيا الى والدها شبه عارية وهي ترتعش وتحدق في الاركان المظلمة وتجلس على

الاريكة متربعة دون حراك وتحملق في لهيب الشمعة . ثم تجتاح وجهها رجفة متشنجة فتنتفض كالمصروعة وتصطك اسنانها . ثم تحدث اباها للمرة المائة عن كل ما جرى في تلك الليلة المشؤومة . ولكي يصرف انتباهها ولو قليلا عن تلك الاحاديث قال فولكوف لابنته بعد تفكير :

— اعتقد ان غريغورى ايفانوفيتش لم ينتحر بمحض ارادته ، ولا علاقة لك انت بذلك . كان مقدرا له ان يموت .

— ماذا تقول ؟ — سألت كاتيا وبدنها كله يختلج ويهتز — كان مقدرا له ؟ يعني انه ضحية ، اليس كذلك ؟

وهدأت فجأة وعاد اليها اطمئنانها . وذات مرة ذكرت الامير ، ببساطة ، بابتسامة مريرة على الشفتين لا اكثر . اطلق فولكوف شتيمة فلم تواصل كاتيا كلامها ، ولكنها ، على ما يبدو ، كانت تفكر كثيرا ويحدثها قلبها بشيء . حل الربيع . وقال الاب مرة :

— كاتيا ، عزيزتي ، الا نزور العمة اولغا ؟

— لم لا ؟ — هزت كاتيا كتفيها .

اما ساشا فكان لتلك الفاجعة تأثير آخر عليها . عندما غادر غريغورى ايفانوفيتش البيت مع الاميرة ادركت ساشا بانه لن يعود ، واذا عاد فسيكون غريبا عليها . وستكون هي غريبة عليه . وادركت كذلك ان حياتها معه كانت غلطة ، فقد توجب عليها آنذاك ، عند سياج البستان ، انتنصرف ولا توافق

على الزواج . رقدت وراء الستار وطفقت تفكر برداء العجائز الذى ستلبسه وبالدروب التي ستتسكع فيها ملتمسة الصدقة لوجه المسيح . واحست بانها لن تعيش في خضم العواطف كما كانت حتى الان ، بل في هذا التأثر المستكين الدائم امام السماء والارض والبشر .

عند الفجر سمعت طرقا على الباب ، فاقشعر بدنها وارتعشت كورقة حور . التقطت انفاسها وفتحت الباب ، فدخل الاب فاسيلي والقى عليها نظرة صارمة وقال :

— غرق ، غريغورى ايفانوفيتش غرق .

طاطات ساشا راسها وغمغمت :

— رحمتك يا رب ! — رسمت شارة الصليب وجلست على المصطبة ، فلم تعد قدماها تحملانها .

قص عليها الاب فاسيلي كل ما حدثه به فلاح من قرية كوليفان كان قد شارك مع خدم الامير في انقاذ الاميرة من براثن النهر . استمعت ساشا الى القصة بهدوء وقالت اخيرا :

— خذ ، يا ابانا ، هذه النقود واقم القداس على روح عبد ربه غريغورى ، فهو لم يغرق ، بل غرقوه .

قضت ساشا الشتاء كله في منزلها دون ان تغير من عاداتها في رعاية الماشية والالتزام بالنظافة والترتيب . وفي المساء كانت تجلس الى الطاولة وتتطلع الى الكتب التي احبها غريغورى ايفانوفيتش ، وعندما يشتد صفير الزوبعة الثلجية على السطح تقطب حاجبيها ظانة ان هذا الصفير هو نحيب روح

غريغورى ايفانوفيتش التي لم يتسع لها الوقت كي تعلن التوبة .

وعندما حل الربيع غادرت ساشا القرية وقد شدت على رأسها منديلا قطنيا اسود على طريقة الراهبات . ومنذ ذلك الحين لم يصادفها احد .

٣

اصرت كاتيا على الرحيل الى البيت فور انتهاء العشاء . ولم تجد نفعا لا توسلات العمة اولغا ولا غمزات الاب وتلميحاته . وعند الفجر جلست على سريرها متعبة للغاية وقد اخذ الانفعال منها ماخذه . جلست تنتظر عودة كوندراتي الذى انشغل باعداد الفراش لابيها .

كانت كاتيا تتصور وتتوقع دوما ان الامير يعد لها اهانة اخيرة ، فصارت تستعد للدفاع . وهو في تصوراتها شخص يسخر منها دوما ، بينما هي انسانة مهانة لا جريرة لها . وافضل وسيلة للدفاع طبعا هي اللامبالاة والاستهانة والهدوء «البارد» اثناء اللقاء . لكن كل هذه الابتكارات السخيفة لم تعد تصلح لشيء الآن .

فالامير التعيس النحيل بثيابه البالية عكر صفو افكارها واثار فضولها . لم يكن ظافرا منتصرا يسخر منها ، بل كان يستجدى ، يستعطفها بان تتصدق عليه بنظرة وكان في تلك النظرة حياته او موته . هذا ما تتصوره الان ، وقلبها يتفطر من اللوعة

والألم . واغرب ما في الامر انها لم تعد تشعر بالاهانة الحاقدة كالسابق مع انها ترغب في هذا الشعور .

واخيرا جاء كوندراتي . فتح الباب برفق وسأل بلهجة مشوبة بالالغاز :

– ماذا تريدين يا سيدتي ؟

– كوندراتي ، لقد رأيت الامير . (سعل كوندراتي) . انا لا افهم شيئا على الاطلاق . . . كان يستجدى ، تعيسا نحيلا . . . ماذا ؟ هل قتل احدا ؟

– محتمل انه قتل احدا ، – اجاب كوندراتي .

– ارجوك لا تقل شيئا لبابا . اذهب الان الى ميلويه او الى المدينة . . . اذهب الى اين تريد . . . – تعذر عليها الكلام لحظة . – ابحث عنه ولا تقل له اني ارسلتك . . . آه ، لا فرق ، قل له ما تريد . . . ولكن فليكف عن تعذيبي .

انصرف كوندراتي . ظلت كاتيا جالسة على السرير تنظر الى اشعة الشمس التي خلفت من خلال الاوراق لمعا على الارضية الخشبية العتيقة . وتناهى من البستان عبر النافذة المفتوحة صوت صفارية وهديل حمامة وزقزقة عصافير . كان البستان الاخضر المتفتح لا يزال نديا . وفي القسم العلوى من النافذة راحت ذبابة حمقاء تتخبط على الزجاج دون ان تتنبه الى ضرورة الهبوط الى اسفل . ولعل الذبابة تتصور ان السماء الزرقاء خلف خيشومها المنزلق على الزجاج والاشجار والفراشات البيضاء كالزهور والاطيار والندى مجرد حلم لن تبلغه الا بعد ان تضرب جداره براسها حتى الموت .

– ذبابة مزعجة ! – قالت كاتيا وانزلقت من السرير وطبطبت على الزجاج بالمنشفة حتى طردت الذبابة الى البستان ، ثم اشبكت يديها خلف ظهرها وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا .

مر بذاكرتها شريط كامل لهذا العام المؤلم العسير . ولا اثر للفرحة فيه . لكنها الان ، وهي تستعيد الذكريات ، لم تشعر بالالم والقنوط ، حتى لكان كل ما حدث استكمل مساره وانحسر الى غياهب الضباب وتحول الى كآبة لذيذة . وظل باقيا لديها شعور بالحرية وبفرحة لا تعرف سببها كالتي تصادف عند اناس في عنفوان الشباب والحماسة .

دعكت كاتيا وجهها وعينيها براحتيها ونفضت راسها وتطلعت فجاة بمنتهى الوضوح الى اعمق اعماق الروح .

وبعد تلك الاطلاله في الاعماق عاد اليها الاطمئنان وانطبعت على شفتيها ابتسامة رقيقة صافية . وتمتمت :

– طيب ، انا مستعدة .

٤

تجمع كل خدم ضيعة ميلويه في المطبخ ليستمعوا الى الوصيف فاسيلي وهو يحدثهم عن معالي الامير الذى وصل بصورة مباغتة ليلة البارحة ولا يعلم الا الله من اين جاء .

– رأيت متشردا يدخل المنزل فصحت به :

الى اين انت يا اشعث ؟ اما هو فقد انحنى لي وقال : «مرحبا ، يا فاسيلي . كيف الحال ؟ كل شيء عندنا على ما يرام ؟» وتسمرت في مكاني . فانا اراه امامي بثياب اسوأ من ثياب راعينا يفيمكا . وبعد ذلك رافقته الى الدور الثاني ، الى غرفة النوم . اشار الى المقعد وسأل : «الاميرة جلست هنـــا ؟» فاجبت : «نعم ، الاميرة جلست في كل مكان» . واخذ ينظر الى المقعد وكانما ينظر الى امرأة . لـــم اضبط نفسي وكدت انفجر ضاحكا . ثم قال : «اذهب ، سادبر امرى بنفسي ، ولكن سخن الحمـــام» . واخذت ابص من شق البـــاب . فالى اى حد وصل . هوى على سرير الاميرة وعانق الوسائد . جاء متعطشا بعد ان نهشته نسوان المدينة . وهو الآن نائـــم . سينام يومين بكاملهما اذا لم نوقظه . نعم ، خدمت عند اسيـــاد كثيرين لكنني لم ار مثل هذه العجائب .

عدل فاسيلي صديريه الذى تتدلى منه سلسلتان واخرج حافظة السجائر التي اهداهـــا له الامير في حينه واشعل سجارة ووضع رجلا على رجل .

— لا ادرى كيف سيواجه الاميرة . سيكون ذلك صعبا جدا وستحدث عجائب كثيرة .

كان الفضول ينهش الجميع في المطبخ . وهرع آخرون من غرفة الخدم للاستماع الى فاسيلي . اما الامير فيغط في نوم عميق . وفجأة ظهر كوندراتي معبسا متربا من الباب الخلفي وسأل لاهثا :

— هل و . . صل . . الا . . مير ؟

— وصل ، ولكن ليس لدينـــا امر بايقاظه ، — اجابه فاسيلي .

— هذا لايهمني ، يجب ايقاظه .

اضطر كوندراتي الى السعال طويلا قرب عتبة غرفة النوم وطرق على الباب مرارا حتى غمغم الامير بصوت ناعس :

— ماذا ؟ سانهض . نعم ، نعـــم . . . — وبعد ذلك جلس على السرير فترة طويلة ، كما ما يبدو ، ليستعيد حالته الطبيعية ، ثـــم قال بصوت آخر : — ادخل .

دخل كوندراتي مزموم الشفتين . حدق فيه الكسي بتروفيتش عدة دقائق ، ثم قفز من السرير وهرع اليه واجلسه على كرسي وشحب لونـــه وارتعش لدرجة جعلت الخـــادم العجوز ينسى كل الكلمـــات الشائنة التي اراد ان ينهال بها على معاليه ، فاشاح بوجهه وعلك بفكيه واكتفى بان قال :

— الاميرة طلبت مني ان اسأل عن صحتك . كادت تموت في الشتاء . وهي لا تريد ان تراك ابدا .

— كوندراتي ، هل ارسلتك بنفسها ؟ — امسك الامير بيده .

— واضح انه ليس لدى ما اجيبك به طالمـــا تصرفت بنذالة . كل مـــا امروني به ان اسأل عن صحتك .

لاذ الامير بالصمت طويلا . ثم استند بمرفقيه على الطاولة وانتحب . اعتصر الالم قلب كوندراتي ، لكنه ضبط نفسه وقال متراجعا نحو الباب :

– هذا كل ما عندى .

– لا تذهب ، تمهل – غمغم الامير واشرأب بعنقه عبر الطاولة – ساكتب لها .

واخذ يسطر حروفا مرتعشة بريشة صدئة :

«عزيزتي كاتيا . . . (كتب هاتين الكلمتين ثم شطبهما) لا اطلب منك شيئا ولا اتجرأ على شيء . . . لكنك الانسان الوحيد الذى احبه في هذا العالم . كان لي رفيق ، وهو الآن في السجن ، وقد علمني كيف احب . . . عندما افكر فيك يمتلئ فؤادى بالنور والفرحة وبسعادة لم اعرفها في السابق ابدا . . . واضح انني لا املك الحق في . . . ومع ذلك سامحيني . . . اذا كنت تستطيعين ان تسامحيني . . . فسآتي زاحفا على الركبتين . . .»

٥

قبيل المساء وصل سوروبا الى ضيعة فولكوفو (وكان قد تردد عليها كثيرا خلال هذا الصيف) وتوجه مباشرة الى مكتب الكسندر فاديميتش واخذ يتحدث عن الامير بمنتهى الاستياء . الا ان فولكوف القمه حجرا :

– اعرف كل شيء ، واعتبر ذلك مصيبة كبرى شاب لها شعرى ، لكني ارجوك ، يا سيدى ، الا تذكرني بعد الآن بهذا الفاسق . – اقترب من النافذة وغير مجرى الحديث وطفق يتكلم عن الزراعة .

في تلك الاثناء دخل كوندراتي الحوش على عربة بعجلتين .

«اين كان هذا العجوز العبيط ؟» – فكر فولكوف ومد بدنه عبر النافذة وصاح به :

– اين كنت ؟

هز كوندراتي رأسه واقترب بعربته من النافذة واوضح لسيده بانه جاء برسالة الى السيدة . فقال فولكوف : «هكذا اذن !» واغلق النافذة ومضى الى ابنته .

اضطرب سوروبا اشد الاضطراب ، فقد حزر ان الرسالة من الامير .

وما ان مرت دقيقة حتى دخل فولكوف مهرولا لاحثا محتقن الوجه في حالة من الهياج الشديد .

– خالية ! – صاح وهو يهز المحبرة – اين القلم ؟ – التقط بسرعة قلما قدموه له وكتب في الحال : «س . م» (سيدى المحترم) على نفس الورقة التي رسم على صفحتها الاخرى قبل عام ارنبا وثعلبا وذئبا وكلابا . ثم غاص في المقعد ومسح حبات العرق على جبينه .

وسأله سوروبا بحذر :

– ماذا حدث ؟ خبرني ، فربما اساعدك .

– وقاحة ، تلك ابعد حدود الوقاحة ! – زعق فولكوف – كلا ، لابد ان ارد على هذا السافل . – وكتب . «س . م . تعوزني الكلمات المناسبة للتعبير عن وقاحة تصرفك» . بعث قصاصة يعتذر فيها وكأن شيئا لم يكن ! سارد عليه من كل بد : «ابنتي

ليست خادمة حتى ترسل لها قصاصة ورق . افلا يمكنك ان تاتي بالفعل زاحفا (ووضع خطا تحت هذه الكلمة) وتركع تحت نافذتها وتطلب الصفح منها ؟ . .»

– اليس في ذلك خشونة كبيرة ؟ – قال سوروبا وهو يقرأ عبر كتف فولكوف بنظارته الفردية المتقافزة على عينه . – مع ان امثال هؤلاء الاشخاص القليلي الادب لا يمكن وقفهم عند حدهم بغير هذه الصورة . انصحك ان توكل محاميا . ولكن كيف حال كاتيا ؟ هل هي متألمة ؟

– ماذا ؟ ! – زعق فولكوف بصوت اعلى – تبكي طبعا . وانت ؟ ما شأنك انت ؟ اغرب عني !

الا ان كاتيا لم تبك . كانت تنتظر عودة كوندراتي ، فتقف ازاء النافذة وتشد قبضتيها تارة او تجلس في المقعد العميق تارة اخرى وتأخذ كتابا وتقرأ فيه طوال الوقت جملة بعينها : «عند ذاك نهض يوري المفعم بالغضب النبيل وعدل قامته وهتف : – كلا ، ثم كلا» . وتلقي بالكتاب جانبا وتكرر مع نفسها : «يجب ان اكون متشددة» . وفي تلك الاثناء تحلق افكارها وتهوم بعيدا ، وترى من جديد كرة المصباح الكهربائي وتحتها ، على الاسفلت البليل ، ذاك الشخص في حالة يرثى لها بعينيه السوداوين المتسعتين في جنون . . . كانت كاتيا تغطي وجهها بيدها وتنهض وتجوب الغرفة من جديد وتأخذ الكتاب وتقرأ : «عند ذاك نهض يوري المفعم

بالغضب النبيل . . .» يا الهي ، متى يعود كوندراتي ، النهار يمتد كالدهر ولا اثر لكوندراتي !

واخيرا تناهت من الرواق خطوات الاب الثقيلة ، وفتح الباب بصخب على مصراعيه ودخل كوندراتي مع فولكوف والرسالة بيده .

شحب وجه كاتيا حتى غدا كالليمون ، وضغطت شفتيها . مزق الاب الظرف ودس الورقة بيدها . فأخذت تقرأها ببطء . وقبل ان تتم قراءتها فهمت كل شيء . . . كل المشاعر التي اعتملت في قلب الامير عندما حبر هذه السطور المعوجة الباكية . هدأت اعصابها واطمأنت نفسها . سلمت الرسالة لوالدها . فقرأها على عجل وسأل بصوت جاف من شدة الانفعال :

– هل ستردين عليه بنفسك ؟

– لا ادري . كما تشاء . بالنسبة لي سواء . . .

– سأرد عليه انا اذن – جأر فولكوف ، – سأرد عليه . . . فليزحف على ركبتيه . . . يتفاخر بانه سيزحف على ركبتيه . . . فليزحف اذن !

– معاليه في اسوأ حال ، – تدخل كوندراتي بحذر – فهو متألم جدا .

– اخرس ! . . اعرف بنفسي ما يلزم ! – زعق فولكوف ودس رسالة الامير في جيب سرواله وخرج من الغرفة راكضا . . . ونادته كاتيا :

– بابا ، تمهل . . . سأرد عليه بنفسي ! – وهمت بالتوجه الى الباب راكضة ، لكنها توقفت

واسبلت يديها ، وخاطبت كوندراتي قائلة : — كل شيء سواء ، فليكن ما يكون .

وأجابها الوصيف العجوز :

— سيأتي اليك زاحفا على ركبتيه . فهو في حالة ستجعله يزحف اليك .

بعثوا الجواب الى الامير مع تباشير فجر اليوم التالي . وكانت كاتيا تعرف ما كتبه ابوها ، ومع ذلك فهي مطمئنة صافية الذهن .

٦

سبحت فوق ضيعة فولكوفو منذ الصباح ، غيوم رمادية كالدخان . وفاحت روائح مركزة من السنابل والاعشاب ، وتصاعدت اعمدة الغبار على الدروب ، وانداحت الرعود منسحبة الى ما وراء الهضبة ، ولمعت البروق ، لكن المطر لم يهطل بعد ، فلعله ينوى مباغتة سطح المنزل والبستان والحقول بوابل غزير دافىء .

جلس فولكوف عند نافذة العلية المطلة على مدخل الدار والمحفوفة باغصان البتولا واغمض احدى عينيه وحملق بالاخرى في منظار مسلط على الطريق .

تسلق الصبيان من ابناء الخدم سطح مستودع العربات وراحوا ينظرون في نفس الاتجاه الذى يمتد فيه الطريق مطوقا الهضبة كالحزام ثم يضيع في بحر السنابل .

في بوابة المستودع المفتوحة على مصراعيها ينتظر

حصان رمادى مشدود الى عربة خفيفة جلس حوذيها على جذع قرب الجدار وهو يربت على جزمته بالسوط .

خرجت الحالبة من السرداب ووضعت دلو اللبن على العشب واخذت تتطلع هي الاخرى وقد شبكت يديها في اعلى مئزرها .

وصل فلاح في حنطور وخلع قبعته وانحني لسيده في النافذة ثم نزل وظل واقفا دون حراك . كان الجميع ينتظرون .

تمددت كاتيا بملابسها على السرير وغرزت وجهها في الوسادة . فقد عاد الرسول الذى حمل الجواب الى ميلويه وافاد بان الامير بدا زحفه .

وقبل ثلاث ساعات توجه كوندراتي للقائه . في تقدير فولكوف لا بد للامير الآن من تسلق الهضبة الرملية التي يأتي بعدها صفصاف الشاطىء ، وهي هضبة عالية حتى الجياد تلاقى صعوبة كبيرة في سحب المركبة اليها .

وفجاة صاح الصبيان على السطح :

— ها هو قادم ، قادم !

اسرع فولكوف الى ابنته وهو يحف بخفه . الا انها كانت قد خرجت الى المدخل . انفرطت ضفائرها وانساب شعرها على ظهرها . تشبثت بعمود المدخل واخذت تحدق بتوتر في ابعد جزء من الطريق .

وسأل الفلاح الواقف قرب الحنطور من الحالبة :

— من ينتظرون يا عمتى ؟ المحافظ ؟

— ربما . الله اعلم ! — اجابت المرأة ورفعت الدلو وانصرفت .

ظهر على الطريق من وراء الهضبة شخص يسير ماشيا ، فصاح الصبيان من جديد :

— امراة ، امراة متسولة . . .

وعند ذاك تركت كاتيا العمود وهبطت الى الحوش ونادت الحوذى : — اسرع بالعربة !

اندفـــع الحصان الرمادى من بوابة المستودع وجلجلت العربة فقفزت كاتيا اليها وانتزعت العنان من يد الحوذى وساطت به الحصان فانطلق مخلفـا عاصفة من الغبار .

ظلت سحابة الغبار معلقـــة فوق الطريق امدا طويلا ثم غيرت اتجاهها وتحولت الى عمود حلزوني راح يـــدور في الحقل مثيرا الرعب في قلـــوب الوسواسيين ، فهم يعتقدون بانه لو ضرب احد هذا العمود الدوار بسكين لتناثر في الحال مخلفا قطرة دم عليها .

في منتصف الطريق الصاعد الى الهضبة الرملية بين شجيرات الصفصاف المتباعدة ركع الامير الكسي بتروفيتش على ركبتيه ويداه على الرمل وقد تدلى رأسه والعرق يتصبب من وجهـــه وانفاسه تتلاحق بصفير وعروق رقبته منتفخة زرقاء .

ووقف كوندراتي خلفه ممسكا بلجام حصان اشقر يهز رأسه ليتخلص من ذباب الخيل . وقف كوندراتي يتنهد ويتحسر ويتطلـــع الى الامير بنظرة ملؤهـــا الشفقة والعطف .

حوم الذباب حول الامير ايضا ، الا ان كوندراتي

كان ينشه ويمنعه من ان يحط عليه . وقال :

— كفاية ، يا سيدى ، انهض ، فالهضبة عالية . اركب الحصان وعندما تلوح فولكوفو من بعيد يمكنك ان تزحف من جديد ، فالطريق هناك منحدر .

قوم الكسي بتروفيتش ظهره بصعوبـــة وحرك ركبته المحكوكة التي تخثر عليها الدم في سروالـــه الممزق ومضى بسرعة زاحفا الى الامام . وما كاد يتقدم بضع خطوات حتى سقط من جديد . كان وجهه رماديا وعينـــاه شبه مغمضتين وقد التصقت خصلة شعر بجبهته وتعمقت الغضون حول شفتيه .

وكرر كوندراتي :

— لا تزال المسافة بعيدة ، اركب الحصان ، ارجوك ، لخاطر المسيح !

تطلع الامير باكتئاب الى الهضبة الرملية و . . . تسمر .

فقد اندفعت كاتيـــا هابطة من الهضبة وهي تستحث الحصان الرمادى بسيور العنان . ومـا ان رأت زوجها حتى انحرفت بالعربة بشدة وقفزت منها قبل ان تتوقف وهرعت اليه . جلست القرفصاء امامه ورفعت وجهه على عجل ، فاعتدل الامير وامسك يدها بقوة وقرب وجهه من وجهها قدر ما يستطيع وحدق في عينيها الرائعتين المغرورقتين بالدموع . . .

— احبك ، احبك طبعـا ، — قالت لزوجهـــا وساعدته على النهوض .

١٩١٢

طفولة نيكيتا

(سيرة ذاتية)

الاهداء

الى ولدى
نيكيتا الكسيييفيتش تولستوى
مع وافر الاحترام .

المؤلف

صباح مشمس

تنهد نيكيتا وفتح عينيه الناعستين . الشمس مشرقة عبر دانتيلا الجليد على زجاج النوافذ ، عبر النجيمات الرائعـة والاوراق العريضة المرسومـة بالفضة المتجمدة على الزجاج . الضوء في الغرفة ناصع البياض كالثلج ، ومن طست الغسال قفزت بقعـة ضوئية الى الجدار وظلت ترتعش معلقة هناك .

حالما فتح نيكيتا عينيه تذكر مـا قاله النجار باخوم مساء أمس :

— ساطليها جيدا واصب الماء على اسفلها حتى يتجمد وعندما تستيقظ في الصباح ستكون جاهزة ، فخذها .

مساء أمس اعد النجار الاعور المجدر الوجـه مصطبة — زحافة بعد الحاح شديد من نيكيتا . وقد صنع الزحافة على النحو التالي :

في مستودع العربات ، على منضدة النجارة ، بين نشارة الخشب الفواحة ، الملتوية في حلقات لا تعد ولا تحصى ، نجر باخوم لوحين بينهما اربع قوائـم وعالجها بالمسحل حتى غدت صقيلة . قطع حافـة اللوح الاسفل بشكل مائل من طرفه البارز الى الامام كيلا ينغرز في الثلج ، وفي اللوح العلوى حفر ثقبين للساقين كي يسهل الجلوس عليـه . وطلى اللوح الاسفل من تحت بالسرقين وصب عليه الماء ثلاث مرات في الصقيع حتى تجمد وغدا كالمرآة ، وربط حبلا الى اللوح العلوى يستخدم في سحب الزحافـة وفي توجيهها عندما تنزلق بسرعة من المرتفعات .

الزحافة جاهزة الآن طبعـا وهي تنتظر عند المدخل . تلك هي عادة النجار باخوم اذا قطع على نفسه عهدا «بكلام شرف» .

جلس نيكيتا على حافة السرير واخذ يتسمع . السكون يعم المنزل . لـم يستيقظ احد بعد على مايبدو . واذا ارتدى ملابسـه على عجل ، دون ان يغتسل وينظف اسنانه طبعا ، فيمكنه ان يخرج الى الحوش من الباب الخلفـي . ومن هناك الى النهر . أكـوام الثلج كثيرة على ضفاف النهر المنحدرة ، فاجلس على زحافتك واهبط بها محلقا . . .

ترك نيكيتا سريره وسار على اطراف اصابعه في المربعات الشمسية الساخنة على ارضية الغرفة . . .

فتح الباب آنذاك ولاح منه رأس في نظارة وحاجبين اشقرين نافرين ولحية شقراء صارخة . غمز الرأس باحدى عينيه وسأل :

— نهضت ياشيطان ؟

اركادى ايفانوفيتش

كان معلم نيكيتا ذو اللحية الشقراء ، اركادى ايفانوفيتش ، قد عرف كل شيء منذ الامس ، فاستيقظ هذا الصباح قبل المعتاد . وهو داهية وحازم الى حد مدهش . دخل غرفة نيكيتا ضاحكا وتوقف عند النافذة ونفخ الهواء الحار من فمه على الزجاج حتى غدا شفافا وعدل نظارته وتطلع الى الحوش . وقال :

— قرب المدخل زحافة ممتازة .

لاذ نيكيتا بالصمت وعبس ، فلا مهرب اذن من تنظيف الاسنان وغسل الاذنين والرقبة فضلا عن الوجه . ارتدى نيكيتا ثيابه واغتسل فعانقه اركادى ايفانوفيتش من كتفيه واقتاده الى غرفة الطعام . جلست ام نيكيتا عند المائدة وراء السماور ، وكانت في فستان رمادى دافئ . لمست وجه نيكيتا وتطلعت بعينيها الصافيتين في عينيه وقبلته :

— هل كان نومك هادئا يا نيكيتا ؟

ثم مدت يدها الى المعلم وسألت برقة :

— وانت يا اركادى ايفانوفيتش ، كيف نمت البارحة ؟

— نمت ، بالطبع ، نوما جيدا — أجاب باسما لشيء لا يعلمه الا اللـه وتحرك شارباه الاشقران وجلس الى المائدة وصب القشدة السائلة في الشاى وقذف قطعة سكر في فمه وامسك بها باسنانه البيضاء وغمز لنيكيتا من وراء النظارة .

اركادى ايفانوفيتش شخص لا يطاق ، فهو يمزح ويغمز بعينيه دوما ولا يتكلم بصراحة ابدا ، بل بتلميحات ينقبض لها القلب . سألته ماما ، مثلا ، بوضوح تام «كيف نمت البارحة ؟» فبماذا اجاب ؟ «نمت ، بالطبع ، نوما جيدا» . وتعني «بالطبع» هذه «ان نيكيتا اراد ان يفر الى النهر بدون شاى الصباح تهربا من الدروس ، وانه بدلا من ترجمة النص الالمانى صرف مساء ساعتين مع النجار باخوم في مستودع العربات» .

صحيح ان اركادى ايفانوفيتش لا يتشكى ابدا ، لكن نيكيتا مضطر دوما الى الحذر والاحتراس .

اثناء احتساء الشاى قالت امه ان الصقيع اشتد في الليل ، وتجمد ماء البرميل في الدهليز ، ويتعين على نيكيتا ان يرتدى القلنسوه الواقية من الثلج عندما يذهبان للنزهة .

فقال نيكيتا :

— ماما ، الحر شديد ، والله .

— ارجوك ، البس القلنسوة .

— انها تقرص خدى . اختنق بها ، يا ماما ، وسأصاب بالرشح .

القت الام نظرة صامتة على المعلم وعلى ابنها .

ثم قالت بصوت مرتجف :

– لا ادرى كيف وصلت الى هذا الحد من المشاكسة .

– حان وقت الدرس ، فلنذهب – قال المعلم ونهض بحزم ومسح يديه على عجل وكانما لا يوجد على وجه البسيطة شيء امتع من حل مسائل الحساب واملاء الحكم والامثال التي تجلب النعاس .

في غرفة واسعة بيضاء على احد جدرانها خارطة لشطرى الكرة الارضية جلس نيكيتا الى مكتب تغطيه بقع الحبر ومختلف الرسوم . فتح اركادى ايفانوفيتش كتاب الحساب وقال بصوت نشيط :

– طيب ، اين توقفنا امس ؟ – ورسم بالقلم الرصاص الحاد السن خطا تحت رقم المسالة المطلوبة .

«باع بزاز عدة اذرعة من القماش الازرق بـ ٣ روبلات و٦٤ كوبيكا للذراع الواحد ومن القماش الاسود . .» – قرأ نيكيتا ، وتصور في الحال ، كما هي عادته دوما ، هذا البزاز الذى اطل عليه من كتاب الحساب بسترة طويلة متربة ووجه اصفر كئيب ، وهو نحيل باهت اغبر . حانوته معتم كجحر في الارض ، وعلى الرف المسطح المغبر قطعتان من القماش . مد البزاز يديه العجفاوين الى الرف واخذ القطعتين وتطلع الى نيكيتا بعينين كابيتين جامدتين كعيون الموتى .

– بم تفكر يا نيكيتا ؟ – ساله اركادى ايفانوفيتش – مجموع ما باعه البزاز ثمانية عشر

ذراعا ، كم ذراعا باع من القماش الازرق وكم من القماش الاسود ؟

انكمش وجه نيكيتا وانضغط البزاز على الجدار حتى غدا مسطحا . وغطى الغبار قطعتي القماش ثم اطبق عليهما الجدار . . .

وقال المعلم : «يا عيب الشوم !» ، واخذ يشرح ويكتب الارقام بالقلم الرصاص بسرعة ويضربها ويقسمها ويكرر : «باليد واحد ، باليد اثنان» وخيل لنيكيتا ان رقم «واحد» ورقم «اثنان» ، خلال عملية الضرب ، قفزا بسرعة من الورق الى اليد واخذا يدغدغان راحتها ، كيلا ينساهما . وازعجه ذلك كل الازعاج ، في حين يلمع شعار الشمس في نافذتي غرفة الدراسة المتجلدتين ويدعوه : «الى النهر ، هيا» .

واخيرا انتهى درس الحساب ، وبدأ الاملاء . سار المعلم على امتداد الجدار وطفق يملي بصوت متميز ناعس لا يتكلم الناس به مطلقا :

– «. . . كل الحيوانات الموجودة على الارض تكدح وتعمل دوما . التلميذ مجتهد ومطيع . . .» .

انكب نيكيتا على الكتابة وقد تدلى طرف لسانه ، وراحت الريشة تصر وتقذف حبرا .

وفجاة اصطفق باب المنزل وتناهى من الرواق وقع جزمة متجلدة . خفض اركادى ايفانوفيتش الكتاب واخذ ينصت . تعالى صوت الام فرحا من قريب :

– ماذا ؟ جلبت البريد ؟

دس نيكيتا رأسه في الدفتر كيلا ينفجر ضاحكا .
ثم كرر مرتلا :

– مجتهد ومطيع كتبت ، «ومطيع» .

عدل المعلم نظارته :

– وهكذا ، كل الحيوانات الموجودة على الارض مجتهدة ومطيعة . . . لماذا تضحك ؟ . . هل نفطت حبرا ؟ . . بالمناسبة سنأخذ فرصة قصيرة للاستراحة .

ضم اركادى ايفانوفيتش شفتيه وهدد الصبي باصبعه الطويل كالقلم وخرج من الغرفة على عجل . وفي الرواق سأل ماما :

– هل هناك رسالة لي يا الكسندرا ليونتيفنا ؟

حزر نيكيتا ممن ينتظر المعلم رسالة . لكن الوقت ضيق ولا يجوز تفويت الفرصة . ارتدى معطفه الفرائي القصير وجزمته اللباد وقبعته ودس القلنسوة تحت الخوان كيلا يعثر عليها احد وخرج راكضا .

اكوام الثلج

الحوش الفسيح ملفع عن آخره بثلج هش ناصع لماع عليه آثار بشرية عميقة زرقاء وآثار متكررة لقوائم الكلاب . الهواء الصقيعى القارس يلسع الانف وينغرز في الخدين كالاشواك . بدت الحظائر والعنابر ومستودع العربات اوطأ من المعتاد وكأنما نبتت في الثلج وارتدت قبعات بيضاء . امتد خطان

زجاجيان خلفتهما زحافة ساعي البريد من مدخل المنزل ، عبر الحوش ، الى الخارج .

هبط نيكيتا على مدرج المدخل والثلج يصر تحت قدميه ، ووجد في اسفله الزحافة الجديدة المنجورة من خشب الصنوبر والمشدودة بحبل مفتول من الالياف . تفحصها وتأكد من متانتها وجربها فاذا هي تنزلق بيسر ، ثم حملها على كتفه واخذ معه المعول ، فقد يحتاج اليه ، وركض في الطريق على طول البستان حتى السد الذى تنتصب ازاءه صفصافات ضخمة شاهقة الى عنان السماء وعريضة باغصان مكسوة بالندى المتجلد وكأن كل غصن منها مصنوع من الثج . استدار نيكيتا نحو اليمين ، الى النهر ، وحاول ان يسير على آثار خلفها آخرون في الطريق ، اما في الاماكن المغطاة بثلج لم تمسه قدم فقد سار نيكيتا بالمقلوب ، الى الخلف ، كي يضلل اركادى ايفانوفيتش .

على ضفاف نهر تشاغرا الشديدة الانحدار تجمعت خلال الايام الفائتة اكوام كبيرة من الثلج الهش . وفي بعض الاماكن اطلت تلك الاكوام كالرؤوس على النهر . حالما يمس المرء احداها بقدمه يتهاوى شلال من الثلج ويسقط متدحرجا الى الاسفل وسط عاصفة من «الغبار» الابيض .

والى اليمين يتلوى النهر كالظل الازرق بين الحقول الخالية البيضاء . وعلى ضفة النهر العالية الى اليسار تلوح المنازل السوداء وشواديف الآبار في قرية سوسنوفكا ، وفوق السطوح يتصاعد دخان

ازرق ويذوب في الاعالى . وعلى المنحدر الثلجي تنتشر بقع صفراء وخطوط من الرماد الذى جرفوه صباح اليوم من الافران والمدافئ ، وبينها تحركت اشباح صغيرة . اولئك هم اصحاب نيكيتا ، اولاد «طرفنا» . وفي مكان ابعد ، عند منعطف النهر ، لاحت اشباح باهتة لصبيان آخرين ، هم اولاد «رأس القرية» الخطرون جدا . القى نيكيتا بالمعول جانبا ووضع الزحافة على الثلج وامتطاها متشبثا بالحبل واعطاها دفعة برجليه او دفعتين وراحت الزحافة تتزحلق هابطة من تلقائها . صفرت الريح في اذنيه وتصاعد نثار الثلج من الجانبين . وانطلقت الزحافة الى الاسفل كالسهم . وفجأة حلقت في الهواء عند نهاية الثلج فوق المنحدر ثم حطت على جليد النهر وتضاءلت سرعتها بالتدريج وتوقفت .

ضحك نيكيتا ونزل من الزحافة وسحبها الى الشاطئ المرتفع وهو يغوص في الثلج حتى الركبتين . وعندما تسلق الشاطئ شاهد في الحقل الثلجي ، ليس بعيدا من هناك ، شبح اركادى ايفانوفيتش اسود واطول من البشر العاديين كما خيل اليه . التقط نيكيتا المعول والقى بنفسه على الزحافة وتزحلق الى الاسفل وركض على الثلج الى المكان الذى تطل فيه الاكوام البيضاء كالرؤوس فوق النهر .

صعد الى قاعدة احد الرؤوس وأخذ يحفر فيها كهفا . لم يبذل جهدا كبيرا في حفر الكهف ، فالثلج يتقطع بيسر تحت المعول . دخل الكهف وسحب

الزحافة اليه واخذ يرصفَ المدخل بكريات ثلجية متراصة نشأ منها جدار . انسكب في داخل الكهف ضوء خافت ازرق من شق في الجدار وشعر نيكيتا بالمتعة والارتياح .

جلس هناك يفكر : ما من أحد غيره من الصبيان يمتلك مثل هذه الزحافة الرائعة . اخرج سكينه الصغيرة واخذ يحفر بها على لوحها العلوى اسم «فيفيت» .

– نيكيتا ، اين اختبأت ؟ – سمع صوت معلمه .

دس السكين في جيبه وتطلع عبر الشق في جدار الثلج فرأى اركادى ايفانوفيتش واقفا على الجليد في الاسفل ورأسه الى الاعلى .

– اين انت يا شيطان ؟

عدل المعلم نظارته وتقدم صاعدا صوب الكهفَ، لكنه سرعان ما غاص في الثلج حتى الخصر .

– اخرج ، سأجرك من هناك على اية حال .

صمت نيكيتا ، فحاول اركادى ايفانوفيتش ان يتقدم نحوه لكنه غاص في الثلج من جديد . ودس يديه في جيبيه وقال :

– ترفض الخروج ؟ ابق اذن . لكن ماما استلمت رسالة من سامارا . . . فوداعا ، انا ذاهب . . .

– اى رسالة ؟ – سأل نيكيتا .

– هيه ! يعني انك هنا .

– خبرني ، ممن الرسالة ؟

– فيها نبأ عن مجئ بعض الاشخاص في العيد .

تطايرت كريات الثلج من اعلى الجدار في الحال . وبرز راس نيكيتـــا من الكهف . وضحك اركادى ايفانوفيتش مرحا .

رسالة الاسرار

اخيرا قرأت ماما الرسالة اثناء الغداء . وهي من بابا .

«عزيزتي الكسندرا ، اشتريت ما اتفقنـــا على اهدائه لذلك الصبي الذى لا يستحق ، على ما اعتقد ، ان نهدى له هذا الشيء الرائـــع . – اخذ اركادى ايفانوفيتش يغمز بعينيه ويكرر الغمز لدى سماع هذه الكلمات . – والشيء المذكور كبير فارسلوا زحافة اضافية من اجله . واليك نبأ آخر : آنـــا ابولوسوفنا بابكينا تنوى زيارتنـــا مع الاطفال في العيد . . .»

– اما الباقي فلا اهمية له . – قالت مامـــا واغمضت عينيها وهزت رأسها واضافت ردا على كل اسئلة نيكيتا : – لا ادرى .

صمت اركادى ايفانوفيتش ايضا ولوح بيديه ولسان حاله يقول : «لا ادرى» ، وعلى العموم كان اركادى ايفانوفيتش طول النهار مرحـــا اكثر من المعتاد ، يتكلم لا على التعيين ويخرج من جيبه بين الحين والاخر رسالة يقرأ منها سطرين ويزم شفتيه . يبدو ان لديه هو الاخر سرا .

قبيل حلول الظلام هرع نيكيتـــا عبر الحوش الى

جناح الخدم الذى ينبعث من نافذتيه المتجمدتين ضوء يستقر على الثلج البنفسجي . كان الخدم يتناولون العشاء . صفر نيكيتا ثلاث مرات ، وبعد دقيقة خرج صديقه الحميم ميشكا كورياشونوك حاسر الرأس في جزمة لبادية ضخمة ومعطف فرائي قصير القاه على كتفيه ، وفي الحال ، وراء ركن الجناح ، حدثه نيكيتا همسا عن الرسالة وسأله عن نوعيـــة الشيء الذى يمكن ان يجلبوه من المدينة .

قال ميشكا كورياشونوك واسنانه تصطك من البرد :

– شيء كبير جدا . وليقبض الله روحى ان لم يكن كما اقول . البرد شديد ، انا اذهب . ولكن . اسمع ، نريد ان نضرب اولاد رأس القرية غدا . هل تذهب معنا ؟

– بالطبع .

عاد نيكيتـــا الى المنزل وجلس يطالع «الفارس المقطوع الرأس» .

وعند المنضدة المستديرة تحت المصباح الكبير جلست ماما واركادى ايفانوفيتش يطالعان ايضا . ووراء الفرن الكبير اخـــذ جندب ينشر حطبة : – تر-تر-تر-تر . وانبعث صرير من خشبة الارضية في الغرفة المجاورة المظلمة .

الفارس يجوب البرارى مقطوع الرأس وترتطم رجلاه بالاعشاب العاليـــة . بزغ القمر احمر فوق البحيرة . واحس نيكيتا بان الشعر يدب على قفاه . التفت بحذر فرأى ظلا رماديـــا يمرق وراء النوافذ

السوداء . رآه . والله رآه . رفعت ماما رأسها عن الكتاب وقالت :

– الريح تشتد ، ستهب زوبعة في الليل .

الحلم

راى نيكيتا حلما في المنام ، نفس الحلم الذى رآه عدة مرات .

انفتح باب الصالة بيسر هدوء . على الارضية ظلال مائلة الى الزرقة تنعكس من النوافذ السوداء التي تعلق القمر وراءها بدرا منيرا كبيرا . تسلق نيكيتا طاولة لعب الورق عند الجدار بين النافذتين ورأى :

قرب الجدار المقابل الابيض كالطباشير يتمايل رقاص مستدير في هيكل ساعة مستطيل . الرقاص يتمايل وينعكس عليه ضوء القمر . وفوق الساعة في اطار على الجدار شيخ عابس يدخن غليونا ، والى جنبه عجوز تتطلع ، مزمومة الشفتين في قلنسوة خفيفة ووشاح . وعلى امتداد الجدار من الساعة حتى الركن اقعت مقاعد عريضة مخططة كل منها باربع قوائم ويدين ممدودتين . وفي الركن انبطحت اريكة واطئة كجذع شجرة . المقاعد والاريكة جلوس بلا وجوه ولا عيون وهي تحدق في القمر دون حراك .

خرج قط من تحت الاريكة ، من بين الشراشيب . مطط ظهره وقفز على الاريكة ومضى طويلا اسود بذيل متدل . قفز من الاريكة الى المقاعد وتمشى عليها ،

على امتداد الجدار ، وهو يتلوى ويدس رأسه تحت مساندها . وعندما بلغ المقعد الاخير قفز منه الى الارضية الخشبية واقعى امام الساعة وظهره الى النوافذ . والرقاص يتمايل . القى الشيخ والعجوز نظرة شزراء على القط . وعند ذاك نهض القط واستند بقائمته الامامية الى هيكل الساعة وحاول ان يوقف الرقاص بقائمته الاخرى . الهيكل غير مزجج . والقط يكاد يلمس الرقاص .

يا ليت نيكيتا يصرخ ! لكنه لا يستطيع . فقد تجمد بلا حراك ، يا للفظاعة ، ستحل المصيبة ، يا للفظاعة . . .

استقر ضوء القمر على الارضية بمستطيلات جامدة . كل ما في الصالة ساكن هادىء على قوائمه . اما القط فقد استطال وخفض رأسه وضغط اذنيه وهو يحاول ان يمسك بالرقاص ، واذا لمسه بقائمته سيتوقف . نيكيتا متأكد من ذلك ، وفي تلك اللحظة سيتحطم كل شيء ويتمزق ويدوى ثم يختفى كالغبار ، ولن تبقى هناك لا الصالة ولا ضؤ القمر .

ومن شدة الخوف أخذ الزجاج يرن ويفرقع في دماغ نيكيتا ، ودبت القشعريرة كالرمل على بدنه كله . . . استجمع قواه وهرع الى الارضية بصراخ مستغيث ! وفجأة انخسفت الارضية وغارت في الاعماق . جلس نيكيتا وتطلع حواليه . في الغرفة نافذتان متجلدتان يلوح عبر زجاجهما قمر غريب اكبر من المعتاد . وعلى الارضية قعادة وجزمة .

«الحمد لله !» – رسم نيكيتا شارة الصليب على عجل ودس رأسه تحت الوسادة . كانت الوسادة دافئة ناعمة محشوة عن آخرها بالاحلام .

وما ان اغمض نيكيتا عينيه حتى رأى نفسه من جديد واقفا على الطاولة في تلك الصالة . والرقاص يتمايل في ضوء القمر والشيخ والعجوز ينظران شزرا . وراس القط يلوح ثانية من تحت الاريكة . الا ان نيكيتا مد يديه هذه المرة وقفز من الطاولة وفرفط محركا رجليه بمنتهى السرعة وكانه يطير محلقا او يعوم فوق الارضية . ما اروع التحليق في الصالة . وعندما لمست قدماه الارضية فرفط بيديه وارتفع ببطء الى السقف واخذ يطير بتحليق متعرج على طول الجدار . ورأى الطنف المزخرف قريبا من انفه وعليه غبار رمادى دقيق ، وفاحت هناك رائحة مقبولة . ثم رأى الصدع المفطور في الجدار ، وهو يعرف هذا الصدع جيدا لانه متعرج كنهر الفولغا على الخارطة ، وبعد ذلك رأى مسمارا عتيقا وغريبا جدا ، عليه اصل من حبل مقطوع تعانقه ذبابات ميتة .

دفع نيكيتا الجدار بقدمه فحلق ببطء عبر الصالة صوب الساعة . في اعلى هيكلها مزهرية برونزية وفي قاع المزهرية شيء لم يتسن له ان يتفحصه . وفجاة خيل اليه ان صوتا يقول له «خذ ما في المزهرية» .

اقترب نيكيتا من الساعة وهم بان يدس يده في المزهرية ، لكن العجوز الشريرة امتدت بسرعة من اطار اللوحة على الجدار وامسكت رأس نيكيتا بيديها

المجفاوين . تملص منها ، لكن الشيخ نزل من اللوحة الاخرى خلفه ولوح بغليونه الطويل وضرب نيكيتا على ظهره ضربة جعلته يطير الى الارضية ويئن ويفتح عينيه .

الشمس تلمع ويتطاير منها الشرر عبر دانتيلا الجليد على الزجاج . وازاء السرير وقف اركادى ايفانوفيتش يهز كتف نيكيتا ويقول :

– انهض ، انهض ، الساعة التاسعة .

عندما جلس نيكيتا على السرير يدعك عينيه غمز له المعلم عدة مرات وراح يفرك يديه على عجل :

– اليوم ، يا أخي ، لن ندرس .

– لماذا ؟

– لان «لماذا» تتكون من «ل» و«ما» و«ذا» . انهض . وامرح قدر ما تريد اسبوعين كاملين .

قفز نيكيتا من السرير واخذ يرقص على الارضية الدافئة :

– عطلة الميلاد ! – نسي تماما ان اسبوعين طويلين من السعادة يبدآن اليوم . وعندما رقص امام معلمه نسي شيئا آخر ، نسي الحلم والمزهرية التي فوق الساعة والصوت الذى همس في اذنه : «خذ ما في المزهرية» .

المنزل القديم

انهالت على رأس نيكيتا اربعة عشر يوما من الحرية يفعل فيها ما يشاء ، حتى شعر بالملل بعض الشيء .

اثناء احتساء شاى الصباح خلط الحليب والخبز والشاى والمربى فيما يشبه العصيدة . فشبع منها حتى اضطر الى الجلوس صامتا بعض الوقت . حدق في صورته المنعكسة على السماور وظل مندهشا امدا طويلا لوجهه المشوه الطويل على امتداد السماور كله ، ثم فكر بانه لو اخذ ملعقة شاى وقطعها قسمين لنشأ من احدهما قارب ومن الاخر عود ينبش به شيئا ما .

واخيرا قالت ماما : «الافضل ان تذهب للتنزه يا نيكيتا» .

ارتدى ملابسه متمهلا وسار في الرواق الطويل المريح الدافئ الذى تفوح منه رائحة الافران واخذ يرسم باصبعه خطا على امتداد الجدار المجصص . في القسم الجنوبي من المنزل ، الى يسار الرواق ، تقع غرف السكن الشتوية المدفأة ، والى اليمين من جهة الشمال ، خمس غرف صيفية تكاد تكون فارغة وبينها صالة . افران التدفئة الضخمة المزخرفة في هذا القسم لا تسخن الا مرة في الاسبوع ، والثريات البلورية هناك ملفوفة بالشاش ، وعلى ارضية الصالة كومة من التفاح الذى تفوح رائحته العسلية العفنة بعض الشيء فيعج بها كل النصف الصيفي من المنزل .

فتح نيكيتا بصعوبة باب البلوط بدفتيه الثقيلتين وجاب الغرف الخالية على اطراف اصابعه . لاح البستان الملفع بالثلج عبر النوافذ نصف الدائرية . الاشجار تنتصب ساكنة باغصان متدلية بيضاء ، وعلى جانبي سلم الشرفة تنوء شجيرات

الليلاك بثقل الثلج . وفي الفسحة الخالية بدت آثار زرقاء خلفتها ارانب برية . وعلى غصن قرب احدى النوافذ جثم غراب اسود يشبه الشيطان برأسه الكبير . نقر نيكيتا باصبعه على زجاج النافذة فمال الغراب على جنبه ثم حلق ناثرا ثلج الاغصان بجناحيه .

بلغ نيكيتا ابعد غرفة في ركن المنزل . وفيها تنتصب على امتداد الجدران خزانات ملفعة بالغبار تلمع عبر زجاجها مجلدات الكتب القديمة ، وفوق المدفأة الجدارية المزخرفة علقت صورة لامرأة رائعة الجمال في بزة خيالة مخملية سوداء وقفاز متسع الطرف وبيدها سوط . خيل لنيكيتا انها كانت تسير ثم التفتت اليه والقت عليه نظره باسمة ماكرة من عينيها المستطيلتين الثاقبتين .

جلس نيكيتا على الاريكة وراح يتطلع الى المرأة مسندا ذقنه بقبضتيه . كان بوسعه ان يجلس بهذه الهيئة ويتطلع اليها طويلا . فبسببها — كما سمع من امه غير مرة — حدثت لجد ابيه مصائب كثيرة . صورة ذلك الجد المسكين معلقة هنا ايضا ، فوق احدى خزانات الكتب . شيخ نحيف ذو انف مدبب وعينين غائرتين ، وقد امسك رداءه عند الصدر بيده المزينة بالخواتم ، وجنبه قرطاس من البردى مطوى لحد النصف وريشة بطة . كل الدلائل تشير الى انه شيخ تعيس للغاية .

عرف نيكيتا من ماما ان ذلك الجد كان ينام في النهار عادة ويطالع ويكتب في الليل ، ولا يتمشى الا

عند الغروب . وفي الليل كان الخفراء يتجولون حول المنزل ويطقطقون بالخشخاشات ليطردوا الطيـور الليلية عن النوافذ حتى لا تخيف الجد . ويقال ان البستان امتلأ حينذاك باعشاب كثيفة عالية . وكان المنزل غير مأهول فاغلقت كل مبانيه ماعدا هذه الغرفة . وتفرق الخدم وظل الجد في حال يرثى لها .

ذات مرة افتقدوه . لم يجدوه لا في مكتبه ولا في المنزل ولا في البستان . بحثوا عنه اسبوعا بكامله دون ان يعثروا له على اثر . وبعد حوالى خمسة اعوام استلم وريثه رسالة منه وصلت من سيبيريا وكلها الغاز : «كنت أنشد الهدوء في الحكمة فوجدت السلوى في احضان الطبيعة» . والسبب في كل تلك الظواهر الغريبة هو هذه المرأة في بزة الخيالة . تطلع اليها نيكيتا بفضول وانفعال .

حط الغراب من جديد على الغصن وراء النافذة فتناثر الثلج من تحتـه . هز رأسه وفتح منقاره ونعب . فشعر نيكيتا بالخوف ، وخرج من الغرف الخالية راكضا الى الحوش .

عند البئر

وجد نيكيتا صاحبه ميشكا كورياشونوك وسط الحوش قرب البئر التي غدا الثلج المتجلد حولهـا اصفر بعد أن داسته الاقدام . كان ميشكا جالسا على حافة البئر يبلل بالماء طرف قفاز جلدى دس فيـه يده .

سأله نيكيتا لماذا يفعـل ذلك فاجابه ميشكا :

– كل اولاد رأس القريـة يبللون القفازات . وسنفعل مثلهم . فهى تتجلد وتصبح صالحة للعراك . هل ستذهب معنا الى رأس القرية ؟

– متى ؟

– بعد الغداء . لكن لا تخبر ماما .

– سمحت لي ماما بالتنزه ، لكنها منعتني من العراك .

– كيف منعتك ؟ واذا هاجمـوك ؟ اتعرف من الذى سيهاجمك ؟ ستيوبكا كارناوشكين . ستسقط من اول ضربة يسددها لك .

– ستيوبكا لن يغلبني سيسقط من ضربـة واحدة بخنصرى – قال نيكيتا ومد خنصره نحـو ميشكا .

تطلع اليه ميشكا ثم بصق وقال بصوت اجش :

– قبضة ستيوبكا مسحورة . في الاسبوع الفائت ذهب مع ابيه الى قرية اوتيوفكا لشراء الملح والسمك وهناك قرأوا تعويذة عليه . فليقبض الله روحي لو كذبت .

غرق نيكيتا في التفكير . الافضل ، طبعـا ، الا يذهب الى رأس القرية ، لكن ميشكا سيتهمه بالجبن . وسأل نيكيتا :

– كيف تقرأ التعويذة ؟

بصق ميشكا من جديد :

– قضية بسيطة . خذ في البداية سماخا ولطخ يديك بـه وكرر ثلاث مرات : «قـل اعوذ برب

الناس . . . من شر الوسواس الخناس» . هذا كل ما في الامر . . .

القى نيكيتا على ميشكا نظرة ملؤها الاحترام . وفي تلك الاثناء صرت بوابة الحوش واندفعت منها الاغنام كشليلة رمادية كثيفة متدحرجة . حوافرها تطقطق كالخرز والياتها تهتز ناثرة بعرا كالبندق . تزاحم القطيع عند البئر ، وهرعت الاغنام ثاغية تتنافس على الوصول الى المشرب وتحطم بابوازها طبقة الجليد الرقيقة وتشرب وتحمحم . سلط خروف وسخ كث نظرة من عينيـــه البيضاوين البلقاوين على ميشكا وضرب الارض باحدى قوائمه فعاكسه ميشكا قائلا : «طفيلي» ، فهجم عليه الخروف ، الا ان ميشكا قفز عبر المشرب وتمكن من الفرار .

ركض نيكيتا وميشكا في الحوش وهما يضحكان ويتحرشان بالخروف الذى طاردهما ثم عدل عن ذلك وفكر قليلا واطلق ثغاء كئيبا :

– انتما طفيلياآآآآن .

وعندما تناهى من الباب الخلفـــي صوت ينادى نيكيتا لتناول الطعام قال له ميشكا كورياشونوك :

– خذ بالك ، لا تخدعنـــا . تعال الى رأس القرية .

المعركة

توجه نيكيتا وميشكـــا كدرياشونوك الى رأس القرية باقصر طريق عبر البستان والبركة المتجمدة . كانت الريـــح قد كنست الثلج على جليد البركة .

توقف ميشكا لحظـة هناك . اخرج سكينه الصغيرة وعلبة ثقاب وجلس القرفصاء متنشقا بصفير ، والخذ ينقب الجليد الازرق على بقعة بداخلها فقاعة بيضاء . تنعت هذه الفقاعة في لغتهم «بالقطة» ، وهي عبارة عن غاز عفن يتصاعد من قاع البركة ويتجمد في طبقات الجليد بشكل فقاعات . وبعد ان ثقب ميشكا حفرة في الجليد اشعل عود الثقاب وقربه من الثقب فاشتعلت «القطة» واندلع لسان من اللهيب الاصفر الساكن فوق الجليد .

وقال ميشكا :

– خذ بالك ، لا تخبر احدا . في الاسبوع القادم سنذهب الى البركة السفلى ونشعل «القطط» . اعرف واحدة منهـــا هناك كبيرة جدا ستظل مشتعلة طول النهار .

ركض الصبيان على جليد البركة واجتازا البردى الاصفر المطروح وبلغا الضفة الاخرى ودخلا القرية .

تساقط ثلج كثير هذا الشتاء . وهو قليل بين الاحواش التي تخترقها الريح بطلاقة ، لكن اكوامه عالية جدا ، اعلى من السطوح ، في عرض الشارع بين المنازل .

كان منزل الابله مغطى بالثلج عن آخره ، ولا يرى منه الا المدخنة . وقال ميشكـا ان كل اهالي القرية انتخوا لازاحة الثلج عن منزله بالمعاول قبل ثلاثة ايام ، اما هو الاحمق فقد سخن الفرن في الليلة التي طمرت الزوبعة فيها منزله بالثلوج وطبخ حساء

من الخضر ثم أكل وصعد لينام على دكة الفرن . وجدوه نائما فايقظوه وجروا اذنه لحماقته .

القرية خالية هادئة . والدخان يتصاعد من مداخن بعض المنازل . الشمس الباهتة تنير ، على ارتفاع منخفض ، الوادى الابيض واكداس القش والسطوح الملفعة بالثلج . بلغ نيكيتا وميشكا منزل ارتامون تيورين الفلاح المخيف الذى يخشاه كل اهالي القرية لقوته الخارقة وسرعة انفعاله . رأى نيكيتا في النافذة الصغيرة لحية ارتامون الشقراء كالمكنسة . كان جالسا عند المائدة يأكل من قصعة خشبية . وعلى زجاج النافذة الاخرى التصقت ثلاثة انوف بوجوه منمشة تنظر الى الخارج . اولئك هم ابناء ارتامون : سيومكا وليونكا وارتامون الصغير .

اقترب ميشكا من المنزل واطلق صفيرا فالتفت ارتامون وهو يمضغ الطعام بفمه العريض وهدد ميشكا بالملعقة . اختفى الصبيان الثلاثة ثم ظهروا في الحال على مدخل المنزل متمنطقين باحزمة من القماش فوق معاطفهم الفرائية القصيرة . وقال ميشكا بعد ان ازاح قبعته حتى مالت على اذنه :

– هيه ، يا جبناء . . . تجلسون في البيت من الخوف .

– نحن لا نخاف – اجاب سيومكا ، وقال ليونكا :

– بابا لا يسمح لنا باتلاف الجزمات .

وقال ارتامون الصغير :

– قبل قليل ذهبت الى اولاد رأس القرية

وناديتهم ، فقالوا انهم غير زعلانين .

ازاح ميشكا قبعته الى اذنه الاخرى وتنحنح وقال بحزم :

– فلنذهب لنتحرش بهم . سنلقنهم درسا .

واجاب الاخوة الثلاثة : «طيب» . وتسلقوا جميعا تلة الثلج التي اعترضت الطريق . من هنا ، وراء منزل ارتامون ، يبدأ رأس القرية .

فكر نيكيتا بان رأس القرية غاص بالاولاد ، لكنه خال الآن وهادئ ، سوى بنتين ملتفتين بمنديلين صوفيين سحبتا زحافتيهما الى تلة الثلج ، ثم جلستا عليهما ومدتا جزمتيهما الى الامام وامسكتا بالحبلين وزعقتا وتزحلقتا عبر الشارع قرب العنبر ، ثم عبر الشاطئ المنحدر ، الى جليد النهر .

وصاح ميشكا من تلة الثلج وصاح معه ابناء ارتامون ونيكيتا :

– هيه ، يا اولاد رأس القرية !

– سنلقنكم درسا !

– اختبأوا ، خافوا !

– اخرجوا سنضربكم !

– تقدموا من جهة واحدة ، يا اولاد رأس القرية ! – صاح ميشكا وهو يصفق بقفازه .

ظهر على الطرف الاخر من التلة اربعة من صبيان رأس القرية . صفقوا وعدلوا قبعاتهم ومسحوا جنوبهم بقفازاتهم واخذوا يصيحون :

– نحن نخاف ؟

– ممن نخاف ؟

– من هذه الضفادع ؟ انعقي يا ضفادع !

وتسلق هذا الطرف من التلة صبيان جدد هم اليوشكا ونيل وفانكا ابو الاذنين السوداوين وبتروشكا ابن اخ الاعزب الابله ، وصبى صغير جدا ببطن كبير ملفوف بمنديل امه بشكل علامة ضرب . ومن الطرف الآخر ظهر ايضا خمسة او ستة صبيان جدد واخذوا يصيحون :

– هيه ، يا اولاد ، تعالوا الى هنا وسنمسح النمش من وجوهكم !

ومن هذا الطرف صاح ميشكا كورياشونوك :

– حدادون عور ، صنعوا حدوة للفأرة !

وجاءه الجواب :

– ضفادع !

تجمع من كلا الجانبين زهاء اربعين صبيا . لكنهم كانوا متهيبين يقذفون كريات الثلج ويغمزون من بعضهم البعض . ويصيحون من ذاك الطرف : «ضفادع» ! ويردون عليهم من هذا الطرف :«حدادون عور» ! وكان هذا النعت وذاك مهينين . وفجأة ظهر بين اولاد راس القرية صبي قصير القامة عريض المنكبين افنط الانف . دفع اصحابه ليفسحوا له المجال وهبط من التلة متمايلا متبخترا .

غرز يديه في جنبيه وصاح :

– يا ضفادع ! فليتقدم اشجعكم وجها لوجه !

كان ذاك هو ستيوبكا كارناوشكين الشهير بقبضته المسحورة .

قذف اولاد راس القرية قبعاتهم الى الاعلى ، اخذوا

يطلقون صفيرا حادا . هدا صبيان هذا الطرف ، وتلفت نيكيتا حواليه . كان الاخوان المنمشون معبسين ، وتراجع اليوشكا وفانكا ابو الاذنين السوداوين الى الوراء واخذ الصبي الصغير الملفوف بمنديل امه ينظر بعينيه المستديرتين الى كارناوشكين وهو على اتم استعداد للبكاء ، وغمغم ميشكا كورياشونوك وهو يشد حزامه على بطنه :

– طرحت اولادا اقوى منه ، فهل هو بطل الابطال . لا ارغب في بدء العراك والا ساغضب وافرك انفه .

اقتنع ستيوبكا كارناوشكين بان احدا لا يريد الاشتباك معه ، فاشار على اصحابه بالانصراف . . . تناثروا منزلقين في التلة الثلجية وهم يتصايحون ويصفرون .

واطلق ابناء ارتامون سيقانهم للريح ، وتبعهم ميشكا وفانكا ابو الاذنين السوداوين ، واخيرا لحق بهم سائر الصبيان . وركض نيكيتا ايضا . اما الصبى الصغير الملتف بمنديل امه فقد جلس على الثلج وانتحب .

اجتاز اولاد «طرفنا» حوش ارتامون وحوش تشيرنوخوف وارتقوا كومة من الثلج . التفت نيكيتا فرأى اليوشكا ونيل وخمسة من اولادنا منبطحين على الثلج . ربما سقط بعضهم ، وربما انبطح البعض الاخر خوفا . فشروط العراك تمنع ضرب الراقدين . . .

شعر نيكيتا بالاهانة والخجل حتى اختنق بعبراته .

فقد جبنوا ولم يدخلوا المعركة . توقف وشد قبضتيه وراى في الحال ستيوبكا كارناوشكين الافنط الواسع الفم راكضا صوبه واطراف شعره تتطاير من تحت قبعته الفرائية العالية .

خفض نيكيتا رأسه وخطا للقائه وضربه في صدره بكل ما اوتى من قوة . نفض ستيوبكا راسه فسقطت قبعته وجلس على الثلج وقال :

— ماذا بك ؟ كفاية . . .

توقف اولاد رأس القريـــة في الحال ، واسرع نيكيتا صوبهم ، فاطلقوا سيقانهم للريح . لحق اولاد «طرفنا» بنيكيتا متصايحين : «حطمناهم !» وهجموا على الاعداء هجمة رجل واحد . فر اولاد رأس القرية وطاردهم نيكيتا واصحابه على امتداد خمسة احواش تقريبا حتى انبطحوا جميعا مستسلمين .

عاد نيكيتا الى طرفه لاهثا منفعلا يتطلع حواليه ليرى هل بقى احـــد يمكن الاشتباك معه . وسمع صوتا يناديه . كان ستيوبكا كارناوشكين ينتظره وراء العنبر . اقترب منه نيكيتا ، فالقى عليه ستيوبكا نظرة شزراء وقال :

— ضربتنى بقوة . هل تريد ان نتصاحب ؟

— بالطبع — اجاب نيكيتا على عجل .

تطلع الصبيان الى بعضهمـــا البعض باسمين . وقال ستيوبكا :

— فلنتبادل .

— موافق .

فكر نيكيتا بافضل ما لديه ليسلمه الى ستيوبكا

فاعطاه السكين الصغيرة مع اربع شفرات . دسها ستيوبكـا في جيبه واخرج منه كعبا مثقلا بالرصاص المصبوب :

— خذ . لا تضيعه فهو ثمين .

هكذا انتهى المساء الممل

في المساء انشغل نيكيتا في تصفح مجلة «نيفا» وقراءة الشروح تحت الصور . ولم يكن فيها الكثير مما يستحق الاهتمام .

صورة امرأة في مدخل الدار ويداها عاريتان حتى المرفق ، وفي شعرها زهور ، وعلى كتفهـــا وعند قدميها حمام . وخلف السياج رجل كشر عن اسنانه والبندقية تتدلى من كتفه .

واكثر ما يثير الضجر في هذه الصورة هو تعذر فهم السبب الذى جعلهم يرسمونهـــا . فقد جاء في الشرح : «من منكـم لم ير الحمام الاليف ، اخلص اصدقاء الانسان ؟ (فوت نيكيتا ما كتب من تفاصيل عن الحمام) . من لا يحب نثر الحب امام هذه الطيور في الصباح ؟ الرسام الالماني الموهوب هانز فورست اختار احدى هذه اللحظات . ايلزا الشابة ، ابنـة القس ، محبوبة الحمام . حالمـــا خرجت من الدار تطايرت الحمامات وحطت عند قدميها فرحة مسرورة . انظروا حطت حمامة على كتفها ، وتلقط حمامات اخرى الحب من يدها . اما الجار الشاب الصياد فيمتـــع انظاره خلسة بهذا المنظر» .

وتصور نيكيتا ايلزا هذه منهمكة باطعام الحمام ، ثم ماذا ؟ لا شيء تفعله بعد ذلك . سيقتلها الملل . وابوها القس جالس على كرسي في احدى الغرف يتثاءب من الملل ايضا . اما الجار الشاب فقد كشر عن اسنانه وكأن بطنه يوجعه ، وسيظل مكشرا وهو يسير على الطريق وبندقيته لا تطلق النار طبعا . السماء في الصورة رمادية كالحة وضوء الشمس رمادى كالح .

بلل نيكيتا القلم الرصاص بلعابه ورسم لبنت القس شاربين .

في الصورة التالية مشهد من مدينة بوزولوك : عجلة مكسورة قرب عمود المسافات على الطريق ، وفي مكان ابعد تلوح منازل خشبية وكنيسة ومطر يتساقط مائلا من غيمة .

تثاءب نيكيتا واغلق المجلة واتكأ واخذ يتنصت .

في الجماليون ينبعث صفير حاد تارة ويهدر دوى متواصل اجش تارة اخرى . ها هو الوجه يعبس فتتكور الشفتان ويدوى الصوت الاجش — «ووووو . . .» ، ثم يتحول الى صوت رفيع حزين يصفر بمنخر واحد كخيط رقيق ، ثم تتكور الشفتان ويعود الصوت الاجش .

على المنضدة المستديرة مصباح باباجور من الفرفورى الابيض . تهادت خطوات اقدام ثقيلة وراء الجدار في الرواق . لعلها خطوات الوقاد . اهتزت الشراريب البلورية في اسفل الاباجور باعثة رنينا رقيقا .

انحنت ماما على المجلد . شعرها ناعم بلون الرماد ، اجعد عند الزلف ، حيث تبدو شامة كحبة الدخن . ومن حين لآخر تقطع الصفحات بابرة الحياكة . غلاف المجلد بني فاتح بلون الطابوق . في مكتب بابا خزانة مليئة بهذه المجلدات التي تحمل جميعا عنوان «بشير اوربا» . ما اغرب الكبار ! لماذا يحبون كل ما هو ممل . فان قراءة مثل هذه المجلة تشبه طحن الطابوق .

على ركبتي ماما ينام القنفذ الاليف اخيلكا وقد وضع انفه البليل كأنوف الخنازير على قائمتيه . عندما يذهب الناس للنوم يجول في الغرفة طول الليل بعد ان يشبع من النوم نهارا ، ويخشخش بمخالبه ويشخر ويتشمم كل الاركان والزوايا ويدس راسه في جحور الفئران .

حرك الوقاد وراء الجدار فتحة الفرن الحديدية وتناهت هسهسة الجمر وهو يقلبه ويخلطه . وفاحت في الغرفة رائحة الملاط الدافىء والارضية المغسولة . جو الغرفة ممل بعض الشيء ، لكنه مريح . اما ذاك الذى في الجماليون فقد استمر على صفيره جاهدا : «ووووو» .

— ماما ، من الذى يصفر هنالك ؟ — سأل نيكيتا .

رفعت ماما حاجبيها دون ان تحيد ببصرها عن المجلة . اما اركادى ايفانوفيتش الذى كان مشغولا بتخطيط الدفتر فقد قال فورا بكلمات متلاحقة وكأنه كان ينتظر هذا السؤال :

– عندما نتكلم عن الجماد يجب ان نستعمل اسم الاستفهام «ما» وليس «من» .

«ووووو» – استمر الدوى في الجماليون . رفعت ماما رأسها وانصتت وهزت كتفيها وتلففت بالمنديل الوبرى . اما القنفذ فقد استيقظ وتنشق بانفه منزعجا .

وعند ذاك تصور نيكيتا كيف تسرب الثلج الى كوة الجماليون البارد المعتم . تحت الواح السقف الهائلة التي بنى الحمام اعشاشه بينها تتكدس في الجماليون بقايا الارائك والكراسي والمقاعد العتيقة البالية بنوابضها المكشوفة الصدئة . وعلى احد هذه المقاعد ، قرب مدخنة الفرن ، جلست «الريح» مشعثة الشعر ملفعة بالغبار وبيوت العناكب . الليل طويل . والجماليون بارد ، وهي جالسة هناك وحيدة وادعة تسند ذقنها بيدها وتقول : «ووووو ، مللت ، يا ويلي ، ووو . . .»

ترك نيكيتا كرسيه وجلس قرب ماما . ابتسمت بحنان وجذبته اليها وقبلت رأسه :

– الم يحن وقت النوم يا ولدى ؟

– كلا يا ماما ، نصف ساعة اخرى ، ارجوك .

مال نيكيتا برأسه على كتف امه . صر الباب في طرف الغرفة وظهر القط فاسكا منتصب الذيل قنوعا كالناسك المتعبد . فتح فمه الوردى واطلق مواء خافتا . وسأله اركادى ايفانوفيتش دون ان يرفع رأسه عن الدفتر:

– ماذا تريد يا فاسكا ؟

اقترب فاسكا من ماما وتطلع اليها بعينين خضراوين مداهنتين يتوسطهما شقان ضيقان واطلق مواء اعلى . فتململ القنفذ منزعجا من جديد . وخيل لنيكيتا ان فاسكا يعرف شيئا يريد ان يقوله . والا لما جاء الآن .

عوت الريح في الجماليون عواء مستميتا . وفي تلك الاثناء تناهت من وراء النافذة صيحة غير عالية وصرير الثلج واصوات . نهضت ماما على عجل . وتدحرج اخيلكا من ركبتيها وهو يشخر .

هرع اركادى ايفانوفيتش الى النافذة وتطلع باهتمام وهتف :

– وصلوا !

– يا الهى ! – تمتمت ماما بانفعال – هل جاءت آنا ابولوسوفنا في هذه العاصفة ؟ . .

بعد لحظات راى نيكيتا كيف انفتح الباب الثقيل الملبس باللباد واندفعت منه الى الرواق سحابة من البخار الصقيعي ، ثم ظهرت امرأة مكتنزة فارعة القامة ترتدى معطفين من الفرو ومنديلا والثلج منثور عليها بغزارة . وقد امسكت بيد صبي يرتدى معطفا رماديا ذا ازرار لماعة وعلى رأسه قلنسوة واقية من الثلج . وطقطقت خلفهما جزمة لبادية متجلدة . فقد دخل حوذى بلحية متجمدة وعلى جانبى انفه اصابع من الجليد الاصفر بدلا من الشاربين وعلى جفونه رموش كثة بيضاء . كان يحمل طفلة بمعطف ابيض من فرو الماعز . رأسها مائل على كتف الحوذى وعيناها مغمضتان ، ووجهها رقيق ماكر .

ما ان دخلت المرأة الطويلة حتى هتفت بصوت عال أجش :

– استقبلي ضيوفك يا الكسندرا ليونتيفنا – ورفعت يديها لتحل عقدة المنديل – لا تقتربي مني ، والا ستبردين . الحقيقة طريقكم سيئ للغاية . . . حتى قرب بيتكم انزلقت بنا الزحافة ومالت الى الشجيرات .

تلك هي آنا ابولوسوفنا بابكينا صديقة ماما . وهي تقيم في سامارا بصورة دائمية . اما ابنها فكتور فراح ينظر الى نيكيتا شزرا وهو ينتظر ان يخلعوا القلنسوة عن راسه . اخذت ماما من الحوذى البنت النائمة وخلعت قبعتها الفرائية فتناثر من تحتها فورا شعر ذهبى فاتح . قبلتها ماما وقالت :

– عزيزتي ليليا ، وصلتم .

تنهدت البنت وفتحت عينيها الزرقاوين الواسعتين ، ثم تنهدت مرة اخرى لتستيقظ نهائيا .

فكتور وليليا

استيقظ نيكيتا وفكتور بابكين في الصباح الباكر . جلسا على سريريهما في غرفة نيكيتا يتطلعان الى بعضهما البعض عابسين . وقال نيكيتا :

– انا أتذكرك .

– وانا أتذكرك جيدا – اجاب فكتور على الفور – كنت عندنا مرة في سامارا . واتذكر انك اكلت لحم البط المحمر بالتفاح حتى انتفخت بطنك وسقوك زيت الخروع .

– لا أتذكر ذلك .

– انا أتذكره .

لاذ الصبيان بالصمت . وتثاءب فكتور عمدا .

وقال نيكيتا بلهجة تنم عن الاستهانة :

– معلمي اركادى ايفانوفيتش صارم جدا ، خنقني بالدروس . وهو يقرأ اى كتاب ، مهما كان كبيرا ، في نصف ساعة .

ابتسم فكتور ساخرا :

– انا اتعلم في المدرسة ، في الصف الثاني . المعلمون عندنا صارمون حقا ، حتى انهم يتركونني دوما بلا غداء .

– ماقيمة الغداء ؟ – قال نيكيتا .

– كيف ؟ البقاء بلا غداء صعب مع انني استطيع ان لا آكل ألف يوم .

– ماذا تقول ؟ هل جربت ؟ – سأله نيكيتا .

– لم اجرب بعد . ماما تمنعني .

تثاءب نيكيتا وتمطط :

– هل تعلم ؟ قبل ثلاثة ايام تفوقت على ستيوبكا كارناوشكين .

– ومن هو ؟

– اقوى ولد في القرية . سددت له ضربة سقط بعدها فورا ثم اهديت له سكيني الصغيرة مع اربع شفرات . واهداني كعبا مصبوبا بالرصاص ساريك اياه فيما بعد .

هبط نيكيتا من السرير واخذ يرتدى ملابسه على مهل .

– اما انا فاستطيع ان ارفع قاموس ماكاروف بيد واحدة – تمتم فكتور بصوت مرتعش كئيب ينم عن الاستسلام . اقترب نيكيتا من التخت ازاء الفرن المزخرف ، وقفز اليه دون ان يلمسه بيديه ثم ثنى ركبته وقفز من التخت الى الارضية بقدم واحدة وقال وهو يتطلع باهتمام في عيني فكتور :

– يمكن ان نطير اذا فرفطنا بارجلنا بسرعة كبيرة جدا .

– شيء بسيط . فالكثيرون عندنا في الصف يطيرون .

ارتدى الصبيان ملابسهما وتوجها الى غرفة الطعام ، حيث تفوح رائحة الخبز الساخن والبقسماط ، ويتصاعد من السماور الصقيل بخار يصل الى السقف ويجعل زجاج النوافذ غائما . جلست ماما واركادى ايفانوفيتش عند المائدة ومعهما ليليا اخت فكتور التي وصلت نائمة ليلة البارحة ، وهي في حوالي التاسعة من العمر . ومن الغرفة المجاورة دوى صوت آنا ابولوسوفنا الاجش :«اعطوني منشفة» .

كانت ليليا ترتدى فستانا ابيض بشريط حريرى ازرق معقود على ظهرها . وعلى شعرها الذهبي الاجعد شريط آخر ازرق ايضا مشدود بشكل فراشة .

تقدم اليها نيكيتا واحتقن وجهه وصفق قدما بقدم . التفتت ليليا اليه ومدت له يدها وهي جالسة على الكرسي وقالت بمنتهي الجدية :

– مرحبا يا صبي . – وارتفعت شفتها العليا .

وخيل لنيكيتا انها ليست بنتا حقيقية . فهي

جميلة جدا ، وخصوصا عيناها الزرقاوان الاكثر سطوعا من الاشرطة ، اما رموشها الطويلة فكأنها من حرير . لم تعد تعير نيكيتا اهتماما بعد ان سلمت عليه ، فتناولت بكلتا يديها كوب الشاى الكبير واخذت تشرب منه . جلس الصبيان جنبا الى جنب عند المائدة . واتضح ان فكتور يشرب الشاى كالطفل الصغير . فقد انحنى على الكوب وراح يرتشف الشاى بشفتين طويلتين . وضع قطع السكر خلسة في الكوب حتى صار الشاى كثيفا ، عند ذاك طلب بصوت متكاسل ان يضيفوا الى الشاى ماء . دفع فكتور نيكيتا من ركبته وسأل هامسا :

– اختي تعجبك ؟

لم يرد نيكيتا وتوردت وجنتاه .

– خذ حذرك منها – همس له فكتور – فهي تخبر ماما بكل شيء .

انتهت ليليا من شرب الشاى ومسحت فمها بالفوطة ونزلت من الكرسي على مهل واقتربت من الكسندرا ليونتيفنا وقالت بكل تأدب :

– شكرا لك يا خالتي .

ثم مضت الى النافذة وصعدت الى المقعد البني الضخم واخرجت من جيبها علبة صغيرة فيها ابر وخيوط واخذت تخيط . ولم يعد نيكيتا يرى منها غير الشريط الكبير المشدود بشكل فراشة وخصلتين متدليتين يتحرك بينهما طرف لسانها الممتد قليلا . فهو يساعد ليليا في الخياطة .

اختلطت افكار نيكيتا وتشوشت . اراد ان

يستعرض امام فكتور كيفية القفز من فوق ظهر الكرسي ، لكن ليليا لم تلتفت اليه ، بينما قالت ماما :

– نيكيتا ، فتور ، اذهبا الى الحوش ولا تشوشا علينا !

ارتدى الصبيان ملابسهما وخرجا الى الحوش . الصباح ضبابي ناعم ، والشمس المائلة الى الاحمرار معلقة على ارتفاع منخفض فوق غيوم متعددة الطبقات وطويلة كحقول من الثلج . وفي البستان انتصبت الاشجار بلون وردى تقريبا والندى المتجمد يغطيها . الظلال الباهتة على الثلج مشبعة بنفس ذلك الضوء الدافىء . السكون المطبق في كل مكان ، لا يعكره سوى شاروك وكاتوك للذين وقفا جنبا الى جنب قرب المدخل الخلفي ينبحان على بعضهما ، ادار كل منهما راسه نحو الاخر وكان بوسعهما ان ينبحا بعواء لاهث وانياب مكشرة امدا طويلا جدا حتى يرميهما احد الخدم بقفازه ، وعند ذاك يقفان على قوائمهما الخلفية ويكادان يختنقان من شدة الغضب ويشتبكان في عراك يتطاير له شعرهما نتفا . كانا يخافان من الكلاب الاخرى ويكرهان المتسولين ، وبدلا من حراسة المنزل في الليل ينامان قرب مستودع العربات .

وسأل فكتور :

– ماذا سنفعل ؟

تطلع نيكيتا الى غراب اشعث حلق غاضبا من البيدر الى حظيرة الماشية . لم يكن نيكيتا راغبا في اللعب ، فقد انتابه حزن لا يعرف سببه . واقترح

ان يذهبا الى صالة الاستقبال ليطالعا شيئا ما على الاريكة ، الا ان فكتور قال له :

– اسفي عليك ، يبدو انك لا تصلح الا للعب مع البنات .

– لماذا ؟ – سأله نيكيتا وقد احمر وجهه .

– انت تعرف لماذا .

– لا تضايقني ، انا لا اعرف اطلاقا . فلنذهب الى البئر .

مضيا الى البئر . كانت الابقار قد خرجت من البوابة المفتوحة متوجهة الى المشرب قربها . وعلى مسافة ابعد كان ميشكا كورياشونوك يطبطب بسرط الرعاة الطويل فتنبعث منه اصوات كطلقات البندقية ، ثم صاح فجأة :

– بايان ، بايان ، خذ بالك يانيكيتا !

التفت نيكيتا فرأى الثور الطويل الرمادى الوردى ذا الجبهة العريضة الجعداء والقرنين القصيرين يتجه نحوهما بعد ان ترك القطيع .

«مو – و» – اطلق بايان خوارا متقطعا وضرب جنبه بذيله .

– فلنهرب يا فكتور ! – صاح نيكيتا وسحب فكتور من يده وركضا نحو المنزل .

انطلق الثور يلاحق الصبيين بسرعة : «مو – ووو !» .

التفت فكتور وصرخ وسقط على الثلج وغطى راسه بيديه . وكان الثور على بعد خمس خطوات عنه . وعند ذاك توقف نيكيتا وقد فار الدم في عروقه

من شدة الغضب ، خلــع قبعته وركض نحو الثور
وانهال عليه ضربا بالقبعة :
– اذهب من هنا ، اذهب !
توقف الثــور وخفض قرنيه . وهرع ميشكــا
كورياشونوك اليه وساطه في جنبــه . فاطلق بايان
خوارا مستغيثا واستدار عائدا الى القطيع . واصطكت
اسنان نيكيتا من شدة التهيج والانفعــال . ارتدى
قبعته والتفت فرأى فكتور قرب المنزل يلوح لــه
بيده . تطلع نيكيتا عفويا الى النافذة الثالثة على يسار
المدخل . ورأى فيهــا عينين زرقاوين مشدوهتين
وفوقهما شريط الفراشة الزرقاء . صعدت ليليا الى
رف النافذة ونظرت صوب نيكيتا ، وابتسمت فجأة .
اشاح نيكيتا بوجهه في الحال ، ولم يلتفت الى النافذة
بعد ذلك . فقد غمرته فرحة عارمة ، وصاح :
– فكتور ، هيا نتزحلق من التلة !
ظلا يتزحلقان من التلة الثلجية طول الوقت ،
حتى الغداء ، وهما يقهقهان و«يتشيطنان» . وبرقت
في ذهن نيكيتا فكرة عابرة :
«عندما اعود الى البيت من امام النافذة ، هل
ألتفت اليها املا ؟ كلا ، سأمر ولن التفت» .

علبة الكارتون

حاول نيكيتا اثناء الغداء الا ينظر صوب ليليا ،
مع ان محاولاته هذه لا موجب لها على اية حال ، لان
آنا ابولوسوفنا جلست بينه وبين ليليا في بلوزة

مخملية حمراء بدون ردنين وراحت تلوح بيديهــا
وتتكلم بصوت ثخين عال جعل الشراريب البلورية
في الاباجور تهتز وترن . وجلجل ذلك الصوت :
– كلا ، ثــم كلا . علمي ابنك يا الكسندرا
ليونتيفنا في المنزل . فالنظام في المدرسة مشوش
الى درجة . ولو كان الامــر بيدى لاخذت المدير من
خناقه وطردته حالا . . . يا فكتور – خاطبت ابنها
فجأة – لا يجوز لك ان تصغى الى ما تقوله ماما عن
الكبار . يجب عليك ان تحترم الرؤسـاء . خذى يا
الكسندرا ليونتيفنا ، معلمينا مثلا . ما اشد حماقتهم ،
واحدهم اغبى من الثاني . اما عن معلم الجغرافية . . .
ما لقبه يا فكتور ؟
– سينيتشكين .
– كلا ليس سينيتشكين ، بل سينيافكين . انه
غبي لدرجة لا توصف . زار احد البيوت مرة ، وعندما
خرج اخذ بدلا من القبعة قطة نائمة على الصندوق
في الدهليز وارتداها . . . وضعهــا على رأسه .
فكتــور ، كيف تمسك الشوكــة والسكين ؟ عدل
وضعيتهما ، ولا تتمطق . . . اقترب من المائدة .
اجل ، يا الكسندرا ليونتيفنا ، ماذا اردت ان اقول
لك ؟ . . نعم ، تذكرت . احضرت معي حقيبة مملوءة
بمختلف الالاعيب لشجرة الميــلاد . غدا يجب ان
يلصقها الاطفال .
– يجب ان يبدأوا من اليوم . – قالت ماما .
– طيب ، افعلوا ما تريدون . اما انا فساذهب
لاكتب الرسائل . شكرا لك يا صديقتي على الغداء .

مسحت آنا ابولوسوفنا شفتيها بالفوطة وازاحت الكرسي بصخب ومضت الى غرفة النوم وفي نيتها ان تكتب رسائل ، لكن نوابض السرير هناك سرعان ما صرت وزمجرت بشكل مرعب وكأن فيلا هوى عليه .

رفعوا السفرة من المائدة الكبيرة في غرفة الطعام وجلبت ماما اربعة مقصات وبدأت تعد صمغ النشاء على النحو التالي : «احضرت من دولاب الصيدلية المنزلية في الركن علبة النشاء ونثرت منه في قدح ما لا يزيد عن ملعقة شاى وصبت عليه ملعقتين من الماء البارد واخذت تخلطه حتى تحول الى عصيدة . وعند ذاك صبت على العصيدة ماء يغلي من السماور وهي تخلطه طول الوقت بالملعقة حتى صار النشاء شفافا كالمهلبية ، وتحول الى صمغ ممتاز .

جلب الصبيان الحقيبة الجلدية ووضعاها على المائدة . فتحتها ماما وانهمكت باخراج محتوياتها : اوراق مذهبة ، صقيلة ومحببة ، واوراق فضية ، وزرقاء وخضراء وبرتقالية وورق مقوى انجليزى وعلب فيها شموع وشمعدانات صغيرة لشجرة العيد وسميكات ذهبية وديكة وعلبة فيها كريات زجاجية منفوخة تربط بخيوط وعلبة فيها كريات ملونة مضغوطة من اربعة جوانب وباعلى كل منها عروة فضية ، وعلبة اخرى فيها مفرقعات ورقية وحزم من الخيوط الذهبية والفضية وفوانيس بزجاج لدائني ملون ونجمة كبيرة . وكان الاولاد يطلقون صيحات الفرح والاعجاب كلما فتحت ماما علبة جديدة . وقالت ماما وهي تدس يديها في الحقيبة :

– توجد اشياء لطيفة اخرى ، لكننا لن نفتحها الان . تعالوا نلصق الملاعيب .

انهمك فكتور بلصق السلاسل الورقية وانشغل نيكيتا بلصق الاكياس للحلويات ، واخذت ماما تقص الورق والكارتون . وسألت ليليا بلهجة مؤدبة :

– هل تسمحين لي يا خالتي بان الصق علبة كارتون ؟

– الصقي يا غزيزتي ما تريدين .

اخذ الاولاد يعملون صامتين ، فيسمع زفيرهم وشهيقهم ، ويمسحون ايديهم الملوثة بالنشاء على البستهم . وحدثتهم ماما آنذاك ان الاعيب شجرة الميلاد لم تكن موجودة في السابق . وكان الاطفال مضطرين ان يصنعوها كلها بانفسهم . كان هناك اولاد تفننوا في لصق حصن كامل بابراج وسلالم حلزونية وجسور ترفع وتخفض . وقد رأت ماما ذلك بنفسها . كانت امام الحصن بحيرة مصنوعة من زجاج مرآة مطوقة بطحلب اصطناعي . وفي البحيرة يسحب اثنان من طيور التم قاربا ذهبيا .

كانت ليليا تعمل بصمت وهدوء وهي تستمع الى الحديث وتساعد نفسها بطرف لسانها في اللحظات الحرجة . كف نيكيتا عن لصق الاكياس واخذ يتطلع اليها عندما خرجت ماما . علق فكتور على الكراسي زهاء عشرة اذرع من السلاسل الملونة . وسألها نيكيتا :

– ماذا تلصقين ؟

ابتسمت ليليا دون ان ترفع راسها ، وكانت تقص نجمة من الورق المذهب وتلصقها على الغطاء الازرق .

– ماحاجتك الى هذه العلبة ؟ – سأل نيكيتا بصوت يقرب الى الهمس .

– هذه العلبة لقفازات العرائس – اجابته ليليا بجد – انت صبي ولن تفهم ذلك . رفعت راسها والقت على نيكيتا نظرة من عينيها الزرقاوين الصارمتين . ازداد وجهه احمرارا بالتدريج حتى غدا ارجوانيا في آخر الامر . فقالت له :

– وجهك احمر كالبنجر .

وانحنت من جديد على العلبة . وطغت على محياها مسحة من المكر .

ظل نيكيتا ملتصقا بالكرسي . ولم يعد يعرف ما يقول . وما كان بوسعه ان يغادر الغرفة باية حال . ضحكت البنت عليه ، لكنه لم يزعل ولم يشعر بالغيظ . وطفق ينظر اليها لا غير . وفجأة سألته ، دون ان ترفع راسها ، بصوت آخر وكأن بينهما سرا يتحدثان عنه :

– هل تعجبك هذه العلبة ؟

– نعم ، تعجبني .

– تعجبني انا ايضا – تمتمت وهزت راسها فاهتزت خصلاتها مع الشريط . ارادت ان تضيف الى ذلك شيئا ، الا ان فكتور اقترب منهما في تلك اللحظة ودس راسه بينهما وسأل بمنتهى السرعة :

– اى علبة ؟ اين العلبة ؟ . . سخافة ، علبة عادية استطيع ان اصنع عشرات مثلها .

– والله يا فكتور سأشتكى لماما واقول لها انك تشوش على – غمغمت ليليا بصوت مرتعش ، وحملت الصمغ والورق الى الطرف الآخر من المائدة .

وغمز فكتور لنيكيتا :

– قلت لك خذ حذرك منها ، فهي نمامة .

وفي ساعة متأخرة من الليل سأل نيكيتا بصوت مكبوت من تحت البطانية التي سحبها حتى غطت راسه وهو راقد على السرير في الغرفة المظلمة :

– فكتور ، نمت ؟

– كلا . . . لا ادرى . . . ماذا ؟

– اسمع يا فكتور . . . اريد ان اخبرك بسر رهيب . . . فكتور . . . لاتنم . . . اسمع يا فكتور . . .

– غوم-غوم ، فو-فو – اجابه فكتور .

ماذا في الزحافة الاخيرة ؟

في الفجر سمع نيكيتا وهو بين اليقظة والنوم طقطقة في مدافىء المنزل واصطفاق الباب في آخر الدهليز ، فقد كان الوقاد يحضر حزم الحطب والسرقين المجفف .

استيقظ نيكيتا من فرط السعادة وكان الصباح صحوا قارسا .

تجمدت النوافذ وتكدس الجليد بشكل طبقة

سميكة من الاوراق العريضة . وكان فكتور لا يزال نائما . رماه نيكيتا بالوسادة ، فاطلق الصبي خوارا قصيرا وسحب البطانية وغطى بها راسه . حملت الفرحة نيكيتا على ترك السرير بسرعة ، فارتدى ملابسه وفكر : الى اين ؟ وجرى الى اركادى ايفانوفيتش .

كان المعلم قد استيقظ توا وشرع يقرأ مستلقيا نفس الرسالة التي قراها ثلاثين مرة . وعندما وقع بصره على نيكيتا رفع ساقيه مع البطانية ثم صفق السرير بهما وهتف :

— عجيب ! نهض نيكيتا قبل الجميع !

— ما اروع الصباح يا اركادى ايفانوفيتش .

— الصباح ، يا اخي ، رائع حقا .

— اردت ان اسألك يا اركادى ايفانوفيتش — قال نيكيتا وهو ينبش ضلع الباب باصبعه — هل تعجبك عائلة بابكين ؟

— اى منها بالتحديد ؟

— الصبي والصبية .

— طيب . . . وأى منهما بالتحديد ؟ — قال المعلم بصوت عادى ، ولكن بمنتهى السرعة . اتكأ على الوسادة وتطلع الى نيكيتا . صحيح ان نظرته خالية من الابتسام ، لكنها نظرة متمعنة للغاية . يبدو انه ، هو الآخر ، يعرف شيئا . اشاح نيكيتا بوجهه فجأة وترك الغرفة راكضا ، ثم تفكر قليلا ومضى الى الحوش .

الدخان الازرق معلق كالاعمدة المتجمدة فوق

جناح الخدم ، فوق الحمام في المنخفض ، وابعد منه فوق القرية كلها وراء الحقل الابيض . خلال الليل استقرت على الاشجار طبقة سميكة من الندى المتجلد ، وتدلت على البركة اغصان ثلجية ثقيلة من اشجار الحور السوداء الضخمة ، ولاحت تلك الاغصان بوضوح على خلفية السماء الزرقاء الجامدة . كان الثلج يلمع ويصر ، الهواء القارس يلسع الانف ويجعل الرموش تتلاصق .

كان شاروك وكاتوك ينبحان على بعضهما عند كومة من الرماد يتصاعد منها دخان خفيف قرب المدخل . سار ميشكا كورياشونوك يحمل هراوة على خط مستقيم عبر الحوش نحو نيكيتا وهو يغوص في الثلج . كان يريد ان يلعب بدحرجة كريات الجليد . وفي تلك الاثناء ظهرت على الطريق الى يمين القرية قافلة من الزحافات التي لاحت الواحدة تلو الاخرى من المنخفض وانزلقت واطئة قاتمة على الثلج ، على طول البركة السفلى نحو السد .

وضع ميشكا كورياشونوك ابهام قفازه على منخاره وتمخط ثم قال :

— قافلتنا قادمة من المدينة محملة بالهدايا .

انزلقت الزحافات على السد تحت طاق هائل من اشجار الصفصاف في حللها الثلجية . وتنامى صرير الثلج وهسيس بطون الزحافات ولهاث الخيول .

وكما هي العادة كان الخادم الاقدم فكتور ، وهو عجوز قصير القامة عريض المنكبين ، اول من دخل الحوش في مقدمة القافلة على ظهر فرسه الشقراء

الضخمة فيستا . تهادى فكتور بخفة جنب الزحافات في جزمة لبادية متجلدة وملفوفة بحبل . معطفه القصير مفتوح الازرار وقد غطى الندى المتجمد ياقته الفرائية المرفوعة الى اعلى وقبعته ولحيته وحاجبيه . اما فيستا التي اسودت من العرق فكان جنباها يرتفعان ويهبطان وهي تتنفس بطلاقة والبخار يتصاعد منها كالدخان . التفت فكتور دون ان يتوقف وصاح بصوت مبحوح قوى مخاطبا من في الزحافات الخلفية :

— هيه ، استديروا نحو العنابر ، ما عدا الزحافة الاخيرة ، اوصلوها الى المنزل .

في القافلة ست عشرة زحافة . الجياد تجرى بانتعاش وقد فاحت رائحة عرق الخيل وتناهى حسيس بطون الزحافات واصوات السياط والبخار يتصاعد فوق القافلة .

وعندما تركت الزحافة الاخيرة السد واقتربت لم يتمكن نيكيتا في الحال من معرفة ما تحمله . كانت تحمل شيئا كبيرا ذا شكل غريب ، اخضر اللون بخط احمر طويل . انتفض قلب نيكيتا ، فعلى الزحافة الاخيرة التي شدت اليها من الخلف زحافة اضافية قارب محني المقدمة يصر ويتمايل وقد لاح جنبه مجذافان اخضران وصارية ذات نهاية نحاسية .

تلك هي ، اذن ، الهدية الموعودة في رسالة الاسرار !

شجرة الميلاد

سحبوا شجرة شوح كبيرة متجمدة وادخلوها صالة الاستقبال . ظل النجار باخوم امدا طويلا يطرق ويشذب بفأسه قاعدتها الصليبية . واخيرا رفعوا الشجرة فاتضح انها عالية حتى ان قمتها الخضراء الفاتحة انحنت تحت السقف .

كان البرد ينبعث من الشجرة ، الا ان اغصانها المتهدلة اخذت تتخلص بالتدريج من بقايا الجليد وتنتصب منفوشة ، ففاحت رائحة الصنوبر في المنزل كله . حمل الاطفال الى صالة الاستقبال اكوام السلاسل الورقية وعلب الزينة وقربوا الكراسي من الشجرة واخذوا يعلقون الالاعيب عليها . وسرعان ما اتضح ان تلك الالاعيب قليلة . وتعين عليهم ان يجلسوا من جديد للصق الاكياس وتلوين الجوز بالذهب وشد البقسماط وتفاح القرم بخيوط فضية . صرف الاولاد المساء كله في هذا العمل حتى خر رأس ليليا بشريطه المدعوك على مرفقها وغفت بهذه الصورة على المائدة .

حلت عشية عيد الميلاد . زينوا الشجرة ونثروا خيوط العناكب الذهبية عليها وعلقوا السلاسل الورقية ووضعوا الشموع في القراصات الملونة . وعندما فرغوا من التزيين قالت ماما :

— والآن اذهبوا يا اولادى ولا تدخلوا صالة الاستقبال حتى المساء .

تناولوا طعام الغداء ذلك اليوم بعجالة وفي ساعة

متاخرة . اكتفى الصغار بكعكة «شارلوتكا» فقط . عم الهرج والمرج المنزل . وكان الصبيان يتراكضان من ركن لآخر ويلحفان على الجميع بسؤال واحد : متى يأتي المساء ؟ وحتى اركادى ايفانوفيتش الذى ارتدى سترة سوداء طويلة الاذيال وقميصا منشى كورق المقوى لم يقر له قرار . كان يجوب الصالة من نافذة الى اخرى وهو يصفر من حين لآخر . ومضت ليليا الى امها .

الشمس تزحف نحو الافق ببطء فظيع ، تتورد وتكتسي بغيوم رمادية ، ويستطيل ظل البئر البنفسجي على الثلج . واخيرا امرت ماما الاولاد بان يرتدوا حلة العيد . وجد نيكيتا على سريره قميصا حريريا ازرق مطرزا بشكل اغصان الشوح على الياقة والاذيال والردنين ، وحزاما مفتولا ينتهى بشراريب وسروالا مخمليا . ارتدى نيكيتا ملابسه وهرع الى ماما . مشطت شعره الى جهتين بينهما مفرق واحتضنته من كتفيه وتفرست في وجهه واقتادته الى مرآة الابنوس الكبيرة .

راى في المرآة صبيا مهذبا انيقا . فهل يعقل ان هذا الصبى هو نيكيتا ؟

— آه ، يا ولدى — تمتمت ماما وهي تقبل راسه — ليتك تبقى هكذا دوما .

خرج نيكيتا على اطراف اصابعه الى الرواق ورأى البنت تتهادى متبخترة في حلة بيضاء . كانت ترتدى فستانا شفافا فاخرا ، وعلى راسها شريط ابيض كبير ، وتتدلى ست خصلات ثقيلة على جانبي وجهها

الذى تغير كليا هو الاخر ، وتستقر على كتفيها النحيلتين . اقتربت من نيكيتا والقت عليه نظرة متعالية وقالت :

— لماذا ارتعبت ؟ تصورتني شبحا ؟ — ومضت الى المكتب وجلست على الاريكة دون ان تخفض قدميها .

تبعها نيكيتا وجلس على الطرف الآخر من الاريكة . الحطب يستعر ويطقطق في مدفاة الغرفة ويتساقط نثاره متفحما . ويتراقص ضوء مائل الى الحمرة على ظهور المقاعد الجلدية وعلى زاوية اطار ذهبي لصورة في الجدار وعلى تمثال بوشكين بين خزانتي الكتب .

جلست ليليا بلا حراك . ما اروع وجنتها وانفها الصغير النافر في الضوء المنكس من المدفاة . وجاء فكتور في بدلة زرقاء بازرار فاتحة وياقة مطرزة ضيقة يصعب معها حتى الكلام .

جلس على احد المقاعد وصمت هو الآخر . ومن صالة الاستقبال المجاورة تناهى همس ماما وآنا ابولوسوفنا وهما تحلان صررا وتضعان شيئا ما على الارضية . حاول فكتور ان يبص من ثقب المفتاح لكن الثقب كان مسدودا بورقة من الجهة الاخرى .

ثم اصطفق باب في الرواق وتهادت اصوات وخطوات صغيرة كثيرة . فقد جاء اولاد من القرية . كان لا بد من الاسراع اليهم ، الا ان نيكيتا عاجز عن الحركة . وعبر نقوش الجليد على النافذة شبح

ضوء دافىء مائل الى الزرقة . وقالت ليليا بصوت رفيع :

– بزغت نجمة .

في تلك الاثناء فتح باب المكتب . وقفز الثلاثة من مقاعدهم . شجرة الميلاد تتوهج بعدد كبير جدا من الشموع من ارضية صالة الاستقبال حتى سقفها . كانت منتصبة كشجرة من اللهيب يلمع فيها الذهب والشرر والاشعة الطويلة . الضوء ينسكب منها كثيفا دافئا يفرح برائحة الصنوبر والشمع والمندرين والحلوى العسلية .

وقف الثلاثة مشدوهين بلا حراك . فتحت ابواب اخرى على صالة الاستقبال ودخل اولاد القرية وتزاحموا قرب الجدار . وكلهم في جوارب صوفية بعد ان خلعوا جزماتهم اللبادية . وكانوا يرتدون قمصانا حمراء ووردية وصفراء ومناديل صفراء وحمراء وبيضاء .

وعند ذاك عزفت ماما على البيانو الحان رقصة البولكا والتفتت بمحياها الباسم صوب شجرة الميلاد وانشدت :

الكراكي الطويلة السيقان
ضيعت الدرب ، ضلت الطريق . . .

مد نيكيتا يده صوب ليليا ، فمدت له يدها وظلت تتطلع الى الشموع وانعكست في عينيها الزرقاوين ، في كل منهما ، شجرة ميلاد . ووقف الثلاثة جامدين .

هرع اركادى ايفانوفيتش الى حشد الصبيان والصبيات واخذهم من ايديهم وحام معهم في رقصة سريعة حول الشجرة . رفرفت اذيال سترته ، ثم سحب راكضا صبيين آخرين . ثم نيكيتا وليليا وفكتور ، واخيرا انخرط جميع الاطفال في رقصة صاخبة حول الشجرة . وانشد اولاد القرية :

جمعت الذهب ، كنزته
جمعت الفضة كنزتها . . .

انتزع نيكيتا مفرقعة من الشجرة ومزقها فوجد فيها طربوشا بنجمة . وطقطقت المفرقعات الاخرى في الحال ، وفاحت رائحة البارود ، وتعالت خشخشة الطرابيش الورقية .

وكان من نصيب ليليا مئزر ورقي بجيبين . ارتدته واحمرت وجنتاها كتفاحتين ، وكانت شفتاها ملطختين بالشوكولاته . وهي تضحك طوال الوقت وتنظر بين حين وآخر الى العروس الكبيرة الجالسة تحت الشجرة والى السلة التي فيها ثياب العروس .

تحت الشجرة اكياس ورقية هدايا للصبيان والصبيات ملفوفة بمناديل ملونة . وقد استلم فكتور فوجا من الجنود مع مدافع وخيام ، كما استلم نيكيتا سرجا جلديا حقيقيا ولجاما وسوطا .

وتعالت اصوات تكسير الجوز والقشور التي تطقطق تحت الاقدام وانفاس الاطفال المبهوتة وهم يفتحون اكياس الهدايا .

وعزفت ماما على البيانو من جديد ، ورقص

الاطفال حول الشجرة منشدين ، لكن الشموع ذابت وبدأت تحترق ، فاخذ اركادى ايفانوفيتش يطفئهـا متقافزا حول الشجرة حتى بهتت واحلولكت . واطبقت ماما غطاء البيانو وطلبت مـن الجميع ان يذهبوا الى غرفة الطعام لاحتساء الشاى .

الا ان اركادى ايفانوفيتش لم يهدأ هنا ايضا ، فقد شكل سلسلة هو في مقدمتها ووراءه خمسـة وعشرون طفلا وركض بهم في طريق غير مباشر عبر الرواق الى غرفة الطعام .

وفي الدهليز انفصلت ليليا عن السلسة وتوقفت لتلتقط انفاسها وهي تلقى على نيكيتا نظرة مـن عينين ضاحكتيـن . كانا واقفين قرب مشجب المعاطف ، فسألته ليليا :

– لماذا تضحك ؟

– انت تضحكين وليس انا – اجابها نيكيتا .

– فلماذا تنظر الي ؟

احمر وجه نيكيتا ، ومع ذلك اقترب منهـا وانحنى عليها ، دون وعى منـه ، وقبلها . فردت عليه في الحال بكلمات متلاحقة :

– انت صبي طيب . لم اقل لك ذلك كيـلا يعرفه احد ، فهذا سر بيننا – استدارت وركضت الى غرفة الطعام .

بعد الشاى رتب اركادى ايفانوفيتش لعبـة الغرامات ، لكن الاطفال تعبوا وكانوا قد اكلوا كثيرا فلم يعودوا يفهمون اصول اللعبة جيدا . واخيرا غفا طفل صغير جدا فـي قميص مشجر ، فهوى مـن

الكرسي واخذ ينتحب بصوت عال .

واعلنت ماما عن انتهاء الحفلة ، فخرج الاولاد الى الرواق حيث كانت معاطفهم وجزماتهم مصفوفة عـلى طول الجدار . ارتدوها وهرعوا مـن المنزل الى الصقيع متزاحمين .

رافق نيكيتا الاولاد حتى السد . وعندما عاد الى المنزل وحيدا كان القمر ينير السماء في هالة بهيجة شاحبة .

وكانت الاشجار على السد وفي البستان تنتصب هائلة بيضاء وكأنها قد نمت وسمقت في ضوء القمر . والى اليمين انبسطت صحراء بيضاء ذابت اطرافها في عتمة صقيعية تفرق الوصف . والى جنب نيكيتا كان ظل طويل ضخم الرأس يحرك ساقيه ماشيا .

خيل لنيكيتا انه يسير في المنام ، في مملكـة مسحورة . فالنفس لا تشعر بمثل هذه الفرحة العجيبة الا في مملكة مسحورة .

خيبة فكتور

تصادق فكتـور في هذه الايـام مع ميشكا كورياشونوك ورافقـه الى البركة السفلى لاشعال «القطط» . فاشعلا «قطة» رهيبة وانطلق اللهيب من تحت الجليد باعلى من قامة الانسان . ثم أنشآ عـلى الترعة وراء البركة قلعة مكونة من برج ثلجي حوله سور بطيقان وبوابة . وبعد ذلك كتب فكتور رسالة الى اولاد «رأس القرية» :

«يا اولاد رأس القرية ، انتم حدادون عور كل ما صنعتموه هو حدوة للفأرة . سنضربكم ضربة تظلون تتذكرونها الى الابد . تعالوا . نحن ننتظركم في القلعة . القومندان فكتور بابكين ، التلميذ في الصف الثاني» .

دقوا الرسالة بمسمار على عصا ، حملها ميشكا كورياشونوك الى القرية وغرزها على كومة ثلج قرب منزل ارتامون . تسلق سيومكا وليونكا وارتامون الصغير واليوشكا وفانكا ابو الاذنين السوداوين وبتروشكا ، ابن اخ الاعزب ، كومة الثلج قرب العصا وراحوا يهددون اولاد رأس القرية امدا طويلا ويرمونهم بكسر الجليد ، ثم ذهبوا مع ميشكا كورياشونوك وتحصنوا معه في القلعة . امر فكتور باعداد كتل وكريات ثلجية رصفوها داخل القلعة على طول الاسوار وغرزوا على البرج عصا في اعلاها حزمة من البردى وظلوا ينتظرون .

جاء نيكيتا وتفقد التحصينات ودس يديه في جيبيه وقال :

— لن يأتي اليكم احد . قلعتكم لا تصلح لشيء ، فلن العب معكم . انا ذاهب الى البيت .

— هذا الفارس لا يتحمل فراق البنت ! — صاح فكتور من سور القلعة .

وقهقه اولاد ارتامون واطلق فانكا ابو الاذنين السوداوين صفيرا باصبعه المعقوف . فقال نيكيتا :

— لو اردت لنثرتكم جميعا مع قلعتكم ، ولكن لا

اريد ان الوث يدى — ومد لسانه لفكتور ومضى نحو المنزل عبر جليد البركة .

رموه بكريات الثلج فلم يلتفت .

لم يطل انتظار الصبيان في القلعة . فمن جهة القرية ، من وراء اكداس القش الملفعة بالثلوج لاح اولاد «رأس القرية» . ساروا صوب القلعة مباشرة وهم يغوصون في الثلج حتى الركب . وكانوا زهاء خمسة عشر صبيا .

تباهى فكتور بانه سيحول عظام هؤلاء الاولاد الى حطب . قال ذلك وهو يتنشق بصفير من انفه المحمر في الصقيع . وكانت عيناه تتراقصان . اقترب اولاد «رأس القرية» واخذوا مواقعهم امام بوابة القلعة وجلس بعضهم على الثلج . وجاء معهم الصبي الصغير الملتف بمنديل امه . جاءوا وفي مقدمتهم ستيوبكا كارناوشكين الذى تفحص القلعة واقترب من سورها وقال :

— اعطونا هذا الصبي ذا الازرار الفاتحة لنفرك اذنيه بالثلج . . .

شهق فكتور مهموما . وهمس له ميشكا : «اقذفه بكتلة ثلجية !» . رفع فكتور كتلة من الثلج ورماه بها فاخطأ . انسحب كارناوشكين عائدا الى اصحابه ، وكانوا قد نهضوا واخذوا يصنعون كريات من الثلج . وانطلقت من القلعة كتل ثلجية صوبهم . وكان اولاد ارتامون يرمون تلك الكتل بتصويب جيد . فقد اسقطوا في الحال الصبي الصغير الملتف بمنديل امه . واخذ اولاد «رأس القرية» يردون على

الرمي بالمثل . وانطلقت الكريات الثلجية كثيفة من كلا الجانبين . سقطت صارية البرج ، وهوى فانكا ابو الاذنين السوداوين من فوق السور واستسلم للعدو . وفجأة طارت طاقية فكتور وضربته كتلة ثلجية اخرى في وجهه . وتعالى صياح اولاد «رأس القرية» وزعيقهم وصفيرهم ، فقد هجموا لاقتحام القلعة . . .

فتحوا ثغرة في السور فهرب حماة القلعة عبر البردى على جليد البركة .

ماذا في المزهرية على ساعة الحائط ؟

لم يفهم نيكيتا سبب عزوفه عن اللعب مع الصبيان . عاد الى المنزل وخلع ثيابه ومضى من غرفة الى اخرى ، فسمع ليليا تقول :

— ماما ، اعطيني ، من فضلك ، خرقة نظيفة ، فان ساق العروس الجديدة فالينتينا تؤلمها وانا قلقة على صحتها .

توقف نيكيتا واحس بفرحة غامرة من جديد ، كما في كل هذه الايام . كانت تلك الفرحة كبيرة جدا حتى خيل اليه ان صندوقا موسيقيا يجول في داخله وتنساب منه الحان مرحة رقيقة .

دخل نيكيتا المكتب وجلس على الاريكة ، في نفس المكان الذى جلست فيه ليليا امس الاول ، وراح ينظر بعينين شبه مغمضتين الى زجاج النوافذ والى النقوش المختلفة التي رسمها الجليد عليه .

هذه النقوش الرقيقة الغريبة كأنما جاءت من المملكة المسحورة التي يبث منها الصندوق السحرى موسيقى صامتة . هذه النقوش عبارة عن اغصان واوراق واشجار واشباح غريبة لوحوش وبشر . احس نيكيتا وهو يتطلع الى النقوش ان كلمات تتراصف من تلقاء ذاتها وتغني . وبسبب هذه الكلمات المذهلة والانشاد المدهش انتصب الشعر على هامة راسه واخذ يدغدغه .

نزل نيكيتا من الاريكة بحذر وبحث في مكتب ابيه عن قصاصة ورق واخذ يكتب قصيدة باحرف كبيرة :

يا غابتي السحرية
تملؤك الاطيار والوحوش
والبهجة والافراح . . .
ما اشد حبي لك
يا غابتي السحرية . . .

الا انه وجد صعوبة في اضافة شيء الى هذه السطور . اخذ يحدق في السقف ويقضم القلم . ثم ان الكلمات التي كتبها لم تكن نفس الكلمات التي صدحت تلقائيا قبل قليل .

قرأ نيكيتا القصيدة ، فاعجبته على كل حال . طوى الورقة بحرص عدة طيات ودسها في جيبه ومضى الى غرفة الطعام حيث جلست ليليا تخيط قرب النافذة . تندت يده وهي تمسك بالورقة في جيبه ، لكنه لم يجد الشجاعة ليعرض القصيدة على الصبية .

قبيل المساء عاد فكتور بوجه ازرق من البرد وانف متورم . وصفقت آنا ابولوسوفنا يدا بيد :

– حطموا له انفه من جديد ! مع من تعاركت ؟ اجبني حالا .

– لم اتعارك ، انفي تورم بنفسه – اجاب فكتور عابسا ومضى الى غرفته وارتمى على السرير .

جاءه نيكيتا ووقف ازاء المدفاة الحجرية . انيرت في السماء المائلة الى الخضرة بضع نجوم كأن احدا لسعها بابرة . وقال نيكيتا :

– هل تريد ان أقرأ لك شعرا عن الغابة ؟

هز فكتور كتفيه ووضع ساقيه على ظهر السرير :

– بلغ ستيوبكا كارناوشكين ان الافضل له ان يتحاشاني .

– في هذا الشعر وصف لاحدى الغابات – قال نيكيتا – وهي غابة لا ترى بالعين لكن الجميع يعرفونها . . . اذا اصابك حزن اقرأ هذا الشعر وسيتبدد حزنك فورا . يصادف ان ترى في المنام شيئا رائعا لا تعرف ما هو ، لكنه رائع حقا ، وعندما تستيقظ وتحاول ان تتذكره لا تستطيع . . . هل تفهم ؟

– كلا . – اجاب فكتور – لا افهم ولا اريد الاستماع الى اشعارك .

تنهد نيكيتا . ظل واقفا قرب المدفاة برهة ثم انصرف . في الدهليز الواسع المنار بالحطب المستعر

في المدفاة جلست ليليا على صندوق مغطى بجلد ذئب قبالة المدفاة وراحت تراقب اللهيب المتراقص .

جلس نيكيتا جنبها على الصندوق . الدهليز يعبق بروائح الدفء ومعاطف الفرو وبنفح عسلي حزين ينبعث من الحاجيات القديمة التي تعج بها ادراج الخوان الضخم . وقالت ليليا متألمة :

– تعال نتحدث . قص علي شيئا ممتعا .

– هل تريدين ان احكي لك الحلم الذى رأيته مؤخرا ؟

– نعم ، حدثني عن هذا الحلم ، ارجوك .

طفق نيكيتا يقص عليها الحلم الذى رأى فيه القط والصورتين اللتين دبت فيهما الحياة ، وحدثها عن تحليقه تحت الصقف وعما رآه هناك . استمعت اليه ليليا باهتمام وفي حضنها العروس المضمدة الساق .

عندما فرغ من حديثه التفتت اليه بعينين جاحظتين من الخوف وحب الاستطلاع . وسألته بهمس :

– ماذا في المزهرية ؟

– لا ادرى .

– فيها شيء هام حتما .

– هذا مجرد حلم .

– مع ذلك ، كان يجب ان تتأكد منه . انت صبي ولا تفهم شيئا في هذه الامور . ولكن هل عندكم مزهرية مثل تلك في الواقع ؟

– عندنا ساعة بالفعل ، ولكنني لا اتذكر

المزهرية . الساعة موجودة في مكتب جدي ، وهي معطلة .

- فلنذهب لنراها .

- المكتب مظلم .

- سنأخذ مصباحا من شجرة الميلاد . احضر المصباح ارجوك .

مضى نيكيتا راكضا الى صالة الاستقبال وانتزع من الشجرة مصباحا بزجاج لدائني ملون وعاد به الى الدهليز .

القت ليليا منديلا وبريا كبيرا على كتفيها ، وخرج الاثنان خلسة الى الرواق وتسللا الى النصف الصيفي من المنزل . نوافذ الصالة المعتمة العالية السقف مغطاة بندى متجلد كثيف ، وقد استقرت عليها ظلال الاغصان في ضوء القمر . الصالة باردة تفوح فيها عفونة التفاح . دفتا باب البلوط في الغرفة المجاورة المظلمة مواربتان . وسألت ليليا :

- الساعة هناك ؟

- كلا ، في الغرفة الثالثة .

- نيكيتا ، الا تخاف ؟

سحب نيكيتا دفة الباب فانبعث منها صرير كالانين اجتاح سائر الغرف الخالية . تشبثت ليليا بيد نيكيتا . وارتعش المصباح فترآقصت اشعته الحمراء والزرقاء على الجدران .

دخلا الغرفة المجاورة على اطراف الاصابع . كان ضوء القمر قد تسرب من النوافذ واستقر على الارضية الخشبية بشكل مربعات مائلة الى الزرقة .

وعلى امتداد الجدار انتصبت المقاعد المخططة ، وفي الركن امتدت الاريكة الواطئة كجذع شجرة . ألم الدوار بنيكيتا ، وخيل اليه انه رأى هذه الغرفة قبلا كما هي الآن .

- ينظران الينا - همست ليليا مشيرة الى الشيخ والعجوز في الصورتين القاتمتين على الجدار .

اجتازا الغرفة راكضين وفتحا الباب الثاني . كان المكتب مغمورا بضوء القمر الساطع . والزجاج يلمع على دفات خزائن الكتب وتلمع اجلدتها المذهبة . ومن فوق المدفأة الحجرية تطلعت اليهما المرأة في بزة الخيالة مغمورة بالضوء وعلى شفتيها ابتسامة كلها الغاز .

- من هذه ؟ - سألت ليليا وهي تقترب من نيكيتا . فاجابها همسا :

- هذه هي .

هزت ليليا رأسها . ثم التفتت وهتفت فجأة :

- المزهرية ، انظر يا نيكيتا ، هذه هي المزهرية !

بالفعل . ففي اعماق الغرفة ، بين ضفيرتين خشبيتين على ساعة الابنوس العتيقة ذات الرقاص الثابت ، مزهرية برونزية يزينها رأس اسد . لم يكن نيكيتا قد لاحظ وجودها في السابق ، لكنه عرفها الآن ، فهي نفس المزهرية رآها في المنام .

قرب كرسيا من الساعة وصعد عليه واستطال على اطراف اصابعه ودس يده في المزهرية فلمس في قاعها غبارا وشيئا صلبا .

- وجدتها - هتفَ وقفز الى الارضية بقبضة مضغوطة .

في تلك الاثناء هر عليه من وراء خزانة الكتب القط فاسيا الذى قفز بعينين بنفسجيتين براقتين . كان يتصيد الفئران في المكتبة .

لوحت ليليا بيديها واطلقت ساقيها للريح ، وركض نيكيتا في اثرها . كان مرتعبا جدا وكان يدا مجهولة لمست شعره . ركض القط فاسيا هو الآخر خافضا ذنبه ، فمرق على مربعات ضوء القمر وسبق نيكيتا وليليا دون ان يحسا به .

هرعا الى الدهليز وجلسا على الصندوق قرب المدفاة وهما يلهثان من الخوف . توهجت وجنتا ليليا وسألت وهي تتطلع في عيني نيكيتا مباشرة :

- ماذا ؟

عند ذاك فتح اصابعه فرأت ليليا على راحته خاتما رفيعا بفص ازرق . وصفقت يدا بيد صامتة . ثم قالت :

- خاتم !

- خاتم سحرى ! - قال نيكيتا .

- ماذا سنفعل به ؟

قطب نيكيتا حاجبيه ، واخذ يدها والبس الخاتم على سبابتها . فقالت له :

- كلا ، لماذا تعطيني اياه ؟ - تطلعت الى الفص وابتسمت وتنهدت ثم طوقت رقبة نيكيتا وقبلته .

احتقن وجه نيكيتا فاضطر الى الابتعاد عن المدفاة . ثم استجمع قواه وتمتم :

- وهذه لك ايضا - اخرج من جيبه الورقة المطوية المدعوكة التي سجل عليها قصيدة الغابة وسلمها الى ليليا .

فتحت الورقة واخذت تقرأها محركة شفتيها ، ثم قالت متاملة :

- اشكرك يا نيكيتا . هذا الشعر اعجبني كثيرا .

المساء الاخير

اثناء شاى المساء تبادلت ماما النظرات مع آنا ابولوسوفنا وهزت كتفيها مرارا . وغرز اركادى ايفانوفيتش وجهه الخالي من اى تعبير في كوبه حتى يخيل اليك انه لن ينطق بكلمة ولو ذبحته . فرغت آنا ابولوسوفنا من احتساء الكوب الخامس مع القشدة والفطائر الساخنة وابعدت الاكواب والصحون عنها ونظفت البقعة التي امامها من فتات الطعام ووضعت راحة يدها الكبيرة على السفرة وقالت بصوتها الاجش :

- كلا ، ثم كلا ، ياعزيزتي الكسندرا ليونتيفنا ، ما دمت قد قلت فلا جدال في اقوالي . اذا كان صاحبك حلوا فلا تاكله كله . اسمعوا يا اولاد - استدارت وغرزت سبابتها في ظهر فكتور

كيلا يجلس محدودبا – غدا الاثنين ، وقد نسيتم ذلك طبعا . انهوا الشاى واذهبوا للنوم فورا . ففي فجر غد سنرتحل .

كور فكتور شفتيه صامتا ومططهما حتى تجاوزتا انفه . وغضت ليليا بصرها بسرعة وانحنت على الكوب . اما نيكيتا فقد غامت عيناه في الحال وداهمتهما اشعة تنبعث من لسان المصباح . اشاح بوجهه واخذ ينظر الى القط قاسيا .

ربض القط على الارضية النظيفة ومد قائمته الخلفية كالمسدس وراح يلعقها وقد ضيق جفونه . لم يكن يشعر بالضجر ولا بالمرح . وهو غير مستعجل في الذهاب الى اى مكان . وفكر في نفسه : «غدا ، بالنسبة لكم انتم البشر ، يوم عمل . ستبدأون من جديد بحل مسائل الحساب وكتابة الاملاء ، اما انا فلم اعيد في الاعياد ولم انظم الاشعار ولم اتبادل القبلات مع البنية . سأكون غدا ايضا في اطيب حال» .

فرغ فكتور وليليا من احتساء الشاى . تطلعا الى حاجبي امهما الكثيفين اللذين بدآ يتحركان فنهضا وودعا الحاضرين وخرجا مع نيكيتا من غرفة الطعام . وهتفت آنا ابولوسوفنا :

– فكتور !

– نعم يا ماما .

– كيف تسير ؟

– كيف ؟

– كأنك تجرجر قدميك على مطاط . اخرج

بسرعة ولا تتسكع في الغرفة ، فالباب امامك . عدل ظهرك . . . اى نفع ينتظر منك في الحياة ؟ لا ادرى والله !

انصرف الاولاد . في الدهليز الدافىء المعتم حيث يتعين على الصبيين ان يستديرا الى اليمين توقف نيكيتا امام ليليا وقال وهو يعض على شفتيه :

– هل ستأتين الينا في الصيف ؟

– ذلك يتوقف على ماما – اجابت ليليا بصوت رفيع دون ان ترفع بصرها .

– هل ستراسلينني ؟

– نعم . ساراسلك يا نيكيتا .

– وداعا اذن .

– وداعا يا نيكيتا .

هزت ليليا رأسها فتحركت الفراشة عليه ومدت اطراف اصابع يدها لنيكيتا وانصرفت لا تلوى على شيء في مشية مؤدبة وقامة معتدلة . فلم يفهم نيكيتا شيئا وهو يشيعها بنظراته ، اذ انها «ذات طبع متحفظ جدا» كما قالت عنها آنا ابولوسوفنا .

ظل فكتور يدمدم متذمرا وهو يجمع الكتب واللعب في سلة ويخلع صورا ما ويخبئها في علبة ، ثم راح يبحث عن سكينه الصغيرة تحت المنضدة . اما نيكيتا فلم ينبس بكلمة . خلع ملابسه على عجل وغطى رأسه بالبطانية متظاهرا بالنوم .

خيل اليه ان كل ما في العالم قد انتهى . ومن خلال النعاس الذى اثقل على جفنيه ظهرت الفراشة

الهائلة لاخر مرة كظل على الجدار ، ولن ينسى صورتها بعد الآن مدى العمر . وسمـــع بين اليقظة والنوم اصواتا ، واشخاصا اقتربوا من سريره ، ثم ابتعدت الاصوات . ورأى اشجارا كبيرة ذات اوراق عريضة دافئة ودربـــا ضيقا مائلا الى الاحمرار عبر حشائش كثيفة تفسح المجال امامه بسهولـــة . وشعر بلذة مدهشة في هذه الغابة الغريبـــة الحمراء تقريبا في الضوء واراد ان يبكى لحزن انتابه ولم يكن يعرف الحزن من قبل . وفجأة برز من بين اوراق راعـــي الحمام رأس احد الهنود الحمر المتوحشين في نظارة مذهبة . وصاح بصوت عال : «آ ، لا تزال نائما» .

فتح نيكيتا عينيـــه . كان وجهه مغمورا بضوء الصبـــاح الساخن وامـــام السرير وقف اركادى ايفانوفيتش يداعب انفـــه ، هو ، بطرف قلـــم الرصاص :

— انهض ، انهض يا شيطان .

الفراق

في يناير بعث فاسيلـــي نيكيتيفيتش ، والـــد نيكيتا ، رسالة جاء فيها :

«. . يؤلمنـــي جدا ان قضيـــة الميراث ستؤخر عودتي لامد طويل ، يا عزيزتي الكسندرا . فمن اللازم ان اسافر الى موسكو لمراجعة القضية . وعلى اية حال ساكون معكم في الصوم الكبير . .»

حزنت ماما حزنا شديدا لهذه الرسالة وعرضتها في المساء على اركادى ايفانوفيتش وقالت :

— تبا لهذا الميراث اذا كان يسبب كل هذه المشاكل . الشتاء كله نعيش في فراق . حتى يخيل الي ان نيكيتا بدأ ينسى اباه .

اشاحت بوجهها واخذت تحدق في النافذة المتجلدة المعتمة . وخلفها ليل بهيم وصقيع شديد جعل اشجار البستان تطقطق والواح سقف الجاليون تبعث بين الحين والاخر فرقعة يرتجف لها الجميع ، والعصافير تقع على الثلج فيجدونها ميتة في الصباح . مسحت ماما عينيها بالمنديـــل بحركة خفيفـــة . فقال اركادى ايفانوفيتش :

— نعم ، ما اشد الفراق — غمغم بهذه الكلمات متاملا ، ولعله كان يفكر بالفراق الذى يعاني منه شخصيا . فقد امتدت يده لتلمس الرسالة في جيبه .

كان نيكيتا آنذاك يرسم خريطة امريكا الجنوبية . فقد جرى بينه وبين ماما اليوم حديث طويل اعربت فيه ماما عن قلقها واعتقادها بانه تكاسل خلال العيد وتدهور الى حالة تؤهله ، على ما يبدو ، ليكون من الكتبة في الناحيـــة عمال التلغراف في محطة قطار بيزينتشوك . وامرته ماما : «في المساء ارسم امريكا الجنوبية بدلا من الصور السخيفة» .

انهمك نيكيتا في رسم امريكا وراح يفكر : هل يعقل انه نسي بابا ؟ كلا . وفي البقعة التي تتقاطع فيها خطوط الطول والعرض على نهر الامازون رأى وجه وجه ابيه المرح بوجنتيه الموردتين وعينيـــه

البراقتين واسنانه اللماعة ولحيته القاتمة المنفرجة الى شطرين ، وسمع صوته العالي يقهقه . كان يستطيع ان يتطلع طوال ساعات الى فم ابيه ، وهو يتحدث ، فيتملكه ضحك شديد . ماما كثيرا ما تلوم بابا على خلو باله وطيشه ، لكن السبب في ذلك هو خفة طباعه ومرحه . فمثلا ، يخطر على باله فجأة ان الضفادع التي تعج بها البرك الثلاث في الضيعة تهلك بلا فائدة ، فيستغرق خلال امسيات بكاملها في الحديث عن كيفية تربيتها وتسمينها ورعايتها ثم ارسالها في براميل الى باريس . وقال لماما التي اضحكها هذا الحديث حتى تساقطت الدموع على خديها : «انت تضحكين الآن ، لكنك سترين كيف ساجمع ثروة من الضفادع» . أمر بابا بتسييج بقع في البركة وطبخ عصيدة لاطعام الضفادع واحضر بعض تلك الضفادع الى المنزل حتى هددته ماما بان يختار واحدا من اثنين ، فاما هي واما هذه الضفادع التي تخشاها حتى الموت . وقالت بانها لن تعيش في بيت مليء بهذه المخلوقات المقرفة . ذات مرة سافر بابا الى المدينة وبعث من هناك عربات محملة بابواب بلوط واطر نوافذ عتيقة ومعها رسالة : «عزيزتي الكسندرا ! تسنى لي صدفة ان اشترى مجموعة رخيصة جدا من الابواب والنوافذ . وقد جاءت بالمناسبة لانك كنت تحلمين ببناء جناح على تلة الحور . هل تذكرين ؟ تكلمت مع المعمارى فنصحني ببناء جناح شتوى ليكون بالامكان العيش فيه شتاء ايضا . وانا مسرور مسبقا ، فان منزلنا واقع في

منخفض ولا يرى من نوافذه اى منظر» . بكت ماما . كانت مدينة لاركادى ايفانوفيتش برواتب الشهور الثلاثة الماضية ، فمن اين تأتي بالنفقات الجديدة ؟ . رفضت بناء الجناح رفضا باتا ، وظلت الابواب والنوافذ تتفسخ في المستودع . واستولت على بابا ، مرة ، فكرة ساخنة لتحسين الزراعة . وكانت تلك مصيبة اخرى . فقد اوصى على آلات من امريكا ، وذهب بنفسه للاشراف على نقلها من محطة القطار ، وكان غاضبا ، وهو يعلم العمال على كيفية قيادتها ، ويصيح على الجميع : «على مهلكم يا ملاعين !»

وبعد فترة قصيرة سألته ماما :

— كيف حال آلتك العجيبة لحزم السنابل ؟

— ماذا ؟ — قال بابا وهو ينقر على النافذة باصبعه . — آلة ممتازة .

— رأيتها في المستودع .

هز بابا كتفه ومسد لحيته بشطريها الاثنين على عجل وسألته ماما بصوت وديع :

— هل تعطلت ؟

— ليس الذنب ذنبي — قال بابا متأففا — الامريكان البلهاء يبتدعون آلات تتعطل كل دقيقة .

رسم نيكيتا نهر الامازون وروافده وراح يفكر بابيه فامتلأ فؤاده بالحب والمرح الرقيق . ضميره لا يؤنبه ، وماما غير محقة عند ما قالت ان نيكيتا نسي اباه .

وفجأة طقطق الجدار كطلقة المسدس . ندت عن

ماما صرخة وسقطت الحياكة على الارضية . وهر القنفذ اخيلكا تحت الخوان ونفث الهواء من منخره غاضبا . تطلع نيكيتا الى اركادى ايفانوفيتش الذى تظاهر بالمطالعة لكن عينيه مغمضتان في الواقع مع انه ليس نائما . وشعر نيكيتا بالعطف عليه : مسكين ، ذهنه مشغول دوما بخطيبته فاسا نيولوفنا المعلمة في المدينة . فما اصعب الفراق !

اسند نيكيتا خده بقبضته واخذ يفكر بفراقه هو . ها هو الكرسي الذى جلست ليليا عليه قرب المائدة . وهي الان غير موجودة . فما اشد حزنه ! كانت هنا وارتحلت . وها هي البقعة التي خلفتها على المائدة عندما سال الصمغ من يدها . وعلى هذا الجدار كان يستقر ظل شريطها . «مرت الايام السعيدة بلمح البصر» . اختنق نيكيتا من هذه الكلمات الحزينة جدا التي ابتدعها توا . وكيلا ينساها سجل تحت خريطة امريكا : «مرت الايام السعيدة بلمح البصر» ، واستمر يرسم . مال بنهر الامازون الى جهة غير صحيحة فمده عبر باراغواى واورغواى الى ارخبيل ماجلان .

— اعتقد انك محقة يا الكسندرا ليونتيفنا . فهذا الصبي يتهيأ للعمل في تلغراف محطة بيزينتشوك — قال اركادى ايفانوفيتش بصوت هادئ يقشعر له البدن . وكان يتطلع من زمان الى ما يفعله نيكيتا بالخريطة .

مشاغل الايام

اخذ الصقيع يشتد يوما بعد يوم . الريح القارسة تعبث بالاشجار فيتساقط منها الندى المتجلد . واكتست الثلوج بطبقة جليدية صلبة وصارت الذئاب الجائعة المرتجفة تمشي عليها في الليالي فرادى وازواجا حتى تقترب من الضيعة .

ويتحسس شاروك وكاتوك وجود الذئاب فيطلقان صاصاة كئيبة اقرب الى العواء ويختبأن تحت مستودع العربات ويعويان من هناك بصوت رفيع مقرف : وووو . . .

كانت الذئاب تعبر جليد البركة وتقف بين البردى وتتشمم روائح الضيعة المأهولة . ثم تتشجع وتمر عبر البستان وتقعى على ثلج الفسحة امام المنزل وتنظر بعيونها البراقة الى النوافذ المتجلدة المعتمة وترفع ابوازها في الظلمة القارسة وتشرع بالعواء بصوت واطئ في البداية ، وكأنها تتشكى وتنوح ، ثم يرتفع العواء تدريجيا ويعلو بلا انقطاع حتى تجهد الحناجر الجائعة وتخدش اصواتها الاذان .

وخوفا من عواء الذئاب يغرز شاروك وكاتوك بوزيهما في القش تحت مستودع العربات حتى ليكادا يفقدان رشدهما . وفي جناح الخدم كان النجار باخوم يتململ على دكة الفرن متدثرا بفرو الغنم ويدمدم ناعسا :

— يا الهي ، اغفر لنا ذنوبنا .

الاشغال في المنزل على قدم وساق . والجميع
ينهضون من النوم في ساعة مبكرة ، حالما تنساب
من النوافذ السوداء المائلة الى الزرقة خطوط
قرمزية من ضوء الفجر ، ويتكشف شيئا فشيئا الزجاج
المزخرف بالجليد وتظل اعاليه زرقاء .

تصطفق فتحات مدافئ المنزل وافرانه ، ويظل
فانوس الكيروسين المصفح مشتعلا في المطبخ وتفوح
رائحة السماور والرغيف الساخن . لم يكونوا
يطيلون الجلوس لاحتساء شاى الصباح . وبعده
تنظف ماما المائدة في غرفة الطعام وتضع عليها ماكنة
الخياطة . وتاتي خياطة المنزل صوفيا التي
يستاجرونها من قرية بيوسترافكا . وهي مجدرة
الوجه مائلة على جنبها ، وقد تسوست سن من
اسنانها الامامية لامعانها في قطع الخيوط بها . كانت
تخيط مع ماما ثيابا للاستعمال اليومي ايضا .
وتتحدثان همسا اثناء الخياطة وتمزقان القماش
فينبعث منه صوت كالفرقعة . كانت صوفيا عبوسا
وكانما تركت وراء الدولاب سنين عديدة فعثروا
عليها ونفضوا الغبار عنها واجلسوها لتخيط الثياب .

ركز اركادى ايفانوفيتش خلال هذه الايام على
الدروس وقام بطفرة – حسب تعبيره المحبب – حيث
شرع بتدريس الجبر وهو مادة جافة للغاية .

فاثناء دراسة الحساب يمكن على الاقل التفكير
بمختلف الاشياء المسلية ، وان كانت غير نافعة .
يمكن التفكير ، مثلا ، بالاحواض الصدئة التي تطفو
فيها فئران ميتة وتصب فيها ثلاثة انابيب ، او

بشخص ما في سترة لدائنية وانف طويل يخلط ثلاثة
انواع من البن ويشترى بضع اوقيات من النحاس ، او
بذلك البزاز المنحوس وقماشه الاسود والازرق .
اما الجبر فليس فيه ما يمكن التعلق به وليس فيه
شيء حي على الاطلاق ، سوى رائحة الصمغ المنبعثة
من جلد الكتاب ، بالاضافة الى انعكاس وجه اركادى
ايفانوفيتش ، المستدير المكور كالابريق ، في
المحبرة عندما ينحني على كرسي نيكيتا ليشرح له
الغاز الجبر .

واثناء دروس التاريخ يقف اركادى ايفانوفيتش
وظهره الى المدفاة الحجرية . وعلى خلفية قراميدها
البيضاء تبدو سترته السوداء ولحيته الشقراء ونظارته
المذهبة على اروع ما يكون . وعندما تحدث عن بيبين
القصير الذى استعرض قوته في سواسون رفع المعلم
يده وشق الهواء براحته وقال مخاطبا نيكيتا :

– لاحظ ان اناسا مثل بيبين القصير كانوا
يتميزون بارادة لا تقهر وبسالة منقطعة النظير . وهم
لا يتكاسلون عن العمل مثلما يتكاسل البعض ، ولا
يحملقون كل لحظة في المحبرة التي لم يكتب عليها
شيء ، بل ولم يكونوا يعرفون الكلمات المخبلة مثل
«لا استطيع» و«تعبت» . ولم يدعكوا جباههم باصابعهم
بدلا من استيعاب الجبر . ولذا لا يزالون حتى الان
قدوة لنا . . . – تلفظ الكلمات الاخيرة وهو يرفع
الكتاب بعد ان دس اصبعه في منتصفه .

وبعد الغداء تقول ماما للمعلم عادة :

– اذا كانت درجة الحرارة اليوم ايضا عشرين درجة تحت الصفر فلن يذهب نيكيتا للتنزه .

وكان اركادى ايفانوفيتش يقترب من النافـذة وينفخ على الزجاج في البقعة التي يوجد المحرار وراءها ويقول :

– واحـد وعشرون ونصفٌ يـا الكسندرا ليونتيفنا .

– حقا هذا ما تصورتـه . اشغل نفسك بشيء يا نيكيتا .

مضى نيكيتا الى مكتب ابيه وجلس على الاريكة الجلدية القريبة من المدفأة وفتح كتاب فينيمور كوبر السحرى .

كان السكون مخيما على غرفة المكتب الدافئة حتى سمع نيكيتا دويا خفيفـا في اذنيه . فمـا اغرب القصص التي يمكن ان يبتدعها في وحدته هذه على الاريكـة وسط ذاك الدوى . كان الضوء الابيض ينساب عبر زجاج النوافذ المتجلد . قرأ نيكيتا في كتاب كوبر ، ثم قطب حاجبيـه واخذ يتصور امدا طويلا ، بلا بداية ولا نهاية ، تلك البرارى الشاسعة الخضراء التي توشوش اعشابها متموجة في الريح ، والجياد الرقطاء التي تصهل منطلقة باقصى السرعة ورؤوسها المرحة ملتوية . ويتصور الشعاب المعتمة في جبال كورديليراس والشلال الابيض الذى يطل عليه ، من فوق صخرة جبلية تشبه راس السكر ، زعيم الهنود الحمر من قبيلة الهورون مزينا بالريش وبيده بندقية طويلة . ويتصور نيكيتا نفسه في خضم

الغابة جالسا على حجر بين اصول شجرة هائلة وقد اسند خده براحته ، والدخان يتصاعد من موقـد امامه . الهدوء يخيم على الغابة فيسمع نيكيتا دوى اذنيه وهو يبحث هنا عن ليليا التي سرقوها منه غدرا . اجترح مآثر كثيرة وحمل ليليا مرارا على حصان هائج وتسلق صخور الشعاب واطلق النار بمهارة فاصاب زعيم الهورون وارداه قتيلا ، لكن هذا الاخير كان يقوم من جديد ويقف في مكانه بلا حراك المرة بعد المرة . ظل نيكيتا طوال الوقت ينقذ ليليا بلا كلل .

وعندما يسمح الصقيع ومامـا لنيكيتا بمغادرة المنزل كان يتجول في الحوش وحيدا . فقد عافت نفسه الالعاب السابقة مع ميشكا كورياشونوك ، ثم ان ميشكا نفسه صار يلازم جناح الخدم وقتا اطول ويلعب الورق هناك ، اذ يسحبون الخاسر من شعره جزاء له .

كان نيكيتا يقترب من البئر ويتذكر : من هنا راى في نافذة المنزل الشريط الازرق الوحيد من نوعه في الدنيا . النافذة خالية الان . ولكن شاروك وكاتوك نبشا قرب مستودع العربات وانتشلا من تحت الثلج زاغا ميتا . انه نفس الزاغ الذى انحنت عليه ليليا وقالت : «انظر يا نيكيتـا ، هذا طير ميت ، اسفي عليه» . انتزع نيكيتا الزاغ من الكلبين وحمله الى ما وراء مبنى السرداب ودفنه في الثلج .

وعندما سار نيكيتا على السد تذكر كيفَ مر هنا في الليل بعد انتهاء حفلة عيد الميلاد وتمشى تحت

اشجار الصفصاف الهائلة الشفافة في ضوء القمر وكان ظله ينزلق جنبه فلماذا عجز آنذاك عن ادراك ماحدث له ؟ كان يتعين عليه ساعتها ان يغمض عينيه ويتحسس تلك السعادة باهتمام كبير .

اما الان فالريح الشائكة توشوش بين الصفصافات المتجمدة السوداء ، والتلة الجليدية على البركة مغطاة كليا بالثلج . وقد تزحلق منها هو وليليا انذاك على زحافتين . فكانت ليليا صامتة بعينين شبه مغمضتين ، وتشبثت بجنبي الزحافة قدر ما تستطيع . لقد محا الثلج كل الاثار .

مضى نيكيتا على طبقة جليدية متينة الى ما وراء الحوش حيث كومت الريح من جهة الشمال تلالا من الثلج بارتفاع سطوح القش . ومن هنا يلاحظ الحقل الابيض المستوى كبادية تندمج مع السماء في الافق الصقيعي الملفع بالضباب . والريح تدوم كالدخان ، وتتلاعب باذيال معطفه الفرائي ويتطاير الثلج من قمة التلة . لم يكن نيكيتا يعرف السبب الذى جعله يتوقف هنا وينظر الى هذه البادية البيضاء .

لاحظت ماما الحزن باديا على نيكيتا ، فتحدثت بهذا الخصوص مع اركادى ايفانوفيتش . قررا الغاء دروس الجبر وجعل الصبي ياوى الى الفراش في ساعة مبكرة و«زقه» بزيت الخروع ، على حد تعبير المعلم الذى لا يدل على ذكاء مطلقا .

طبقت كل هذه الاجراءات فتحسن مزاج نيكيتا كما لاحظ المعلم . الا ان الطبيب الحقيقي وصل بعد ثلاثة اسابيع : انه الربيع برياحه الشديدة الرطبة

التي هبت من الجنوب ولفت الحقول والبستان والضيعة بغلالة من الضباب الرمادى وحملت غيوما ممزقة مسعورة تجرى بسرعة جنونية على ارتفاع منخفض فوق سطح الارض .

غربان القيظ

يوم الاحد اجتمعوا يلعبون الورق في جناح الخدم . العامل فاسيلي وميشكا كورياشونوك والراعي الصغير ليكسيا وكذلك ارتيوم ، الفلاح الفارع القامة جدا والمحدودب الظهر بانفه الطويل المقوس . وهو اعزب لا يمتلك حصانا ، لذا مارس العمل الفلاحي بالاجرة طول عمره ، وكان يريد ان يتزوج من زمان الا ان البنات لا يرضين به زوجا . قبل ايام اخذ يلاحق بنظراته حالبة الابقار دونياشا ، وهي فتاة جميلة موردة الوجنتين . كانت طول النهار تنطلق كالمكوك بين الحظيرة ومبنى السرداب والمطبخ ، وتجلجل بدلاء الزنك الاسطوانية ، وتفوح منها دوما رائحة اللبن الطازج الطيبة . وعندما يتساقط الثلج يخيل للرائى ان حباته تغلى بفحيح على وجنتيها . كانت فتاة ضحوكا . حالما يراها ارتيوم ، اينما وجد ، سواء كان يحمل العصافة والتبن من البيدر او ينظف مرابض الغنم ، يغرز المذراة في الارض ويتوجه صوبها على قدمين طويلتين كقوائم الجمل . يقترب منها ويخلع قبعته وينحني لها :

— مرحبا ، دونياشا .

— مرحبا — تجيبه دونياشا وتضع دلويها وتغطي فمها بطرف المئزر .

— الا تهتمين بغير الحليب ، يادونياشا ؟

عند ذاك تجلس دونياشا القرفصاء ، فان ساقيها لا تحملانها من شدة الضحك ، ثم تأخذ الدلوين وتنطلق على الممشى المتجلد بين الثلوج الى مبنى السرداب وتلقى بالدلوين على الارضية بصخب وتقول لمدبرة المنزل فاسيليسا بكلمات تتناثر بمنتهى السرعة : «الجمل طلب مرة اخرى ان اتزوجه ، ياالهي ، سأموت من الضحك» وتقهقه بصوت رنان يسمعه كل من في الحوش .

دخل نيكيتا جناح الخدم . كانوا يطبخون حساء من رؤوس الخراف ، وتفوح رائحة طيبة من لحم الغنم والرغيف المخبوز . عند الباب الذى علق قربه غسال خزفي ذو صنبور فوق طست بدت اثار الثلج الذى كان عالقا بجزماتهم . جلس باخوم على مصطبة قرب الفرن ، وتهدل شعره الاسود على جبهته المجدرة وعلى حاجبيه المقطبين . كان يخيط جزمته : يغرز المخرز في الجلد بحذر ويميل برأسه ويضيق جفوفه ويثقب ثغرة ويدس فيها طرف الخيط المشمع ، ممسكا الجزمة بين ركبتيه ، ثم يسحب الخيط من طرفيه . نظر الى نيكيتا شزرا . فهو غاضب جدا ، لانه تشاجر اليوم مع الطباخة . فقد نشرت لفافات قدميه قرب الفرن لتجف فاحترقت اطرافها .

تحلق اللاعبون حول المائدة في قمصان نظيفة وشعر مصفف مدهون بمناسبة يوم الاحد . وكان

ارتيوم الشخص الوحيد في سترة بالية وشعر اشعث ، فلا احد يعتنى به ويغسل ثيابه .

كان اللاعبون يطرقون ورقا فواحا ويكررون :

— غطيت . العب بعشرة .

— غطيت . العب بخمسين .

— وهذه الورقة ، هل رأيتها ؟

— وانت ؟ هل رأيت هذه ؟

— كل ورقاتي رابحة .

— آه !

— يا ويلك يا ارتيوم !

— كيف ؟ يا ويلي انا ؟ — قال ارتيوم وهو يحدق في الورق مندهشا — غير صحيح . اخطأتم .

— مد انفك .

اخذ ارتيوم ورقتين ، في كل يد ورقة ، وغطى بهما عينيه .

وبدأ فاسيلي يضرب انفَ ارتيوم الطويل بثلاث ورقات ضربات متانية بينما راح سائر اللاعبين ينظرون ويحسبون عدد الضربات ، ويصيحون بارتيوم غاضبين كيلا يتحرك ويتململ .

جلس نيكيتا يلعب فخسر في الحال وتلقى خمس عشرة «ضربة» على الانف . وفي تلك الاثناء وضع باخوم الجزمة وادوات الترقيع تحت المصطبة وقال بخشونة :

— الناس يعودون من صلاة الظهر ، اما هؤلاء فلم يرسموا شارة الصليب على جباههم ولا شغل لهم غير لعب الورق وانتظار اللقمة الدسمة . . يا

ستيبانيدا – صاح ونهض متوجها نحو الغسال – اعدي المائدة !

في المطبخ سقط غطاء القدر من يد الطباخة المرتعبة . وجمع الخدم الورق . استدار فاسيلي الى الركن صوب الايقونة الورقية الملوثة باثار الصراصر ورسم شارة الصليب على صدره .

احضرت الطباخة ستيبانيدا قصعة خشبية تحتوى على رؤوس الخراف . كان يتصاعد منها بخار فواح حجب وجه الطباخة فاشاحت عنه . جلس الخدم صامتين جديين الى المائدة والتقطوا الملاعق . بدأ فاسيلي يقطع الخبز ويوزعه بشرائح طويلة عليهم ثم ضرب القصعة بملعقته ايذانا ببدء الغداء . كان الحساء لذيذا .

لم يجلس باخوم الى المائدة . اخذ قطعة من الخبز ومضى الى نفس المصطبة قرب الفرن . قدمت له الطباخة بطاطس ساخنة وناولته المملحة الخشبية . فهو لا يأكل لحما اثناء الصيام . وقال لها وهو يسحق بحذر حبة بطاطس يتصاعد منها البخار ويدس نصفها في المملحة :

– احرقت لفافاتي . انت ، والله ، فلاحة حمقاء . . .

خرج نيكيتا الى الحوش . النهار ملفع بالضباب ، والريح ندية ثقيلة . وبرزت من تحت الثلج الرمادى المحبب كالملح بقايا الروث الصفراء . كان درب الزحافات المنعطف صوب السد اعلى من الثلج ، وهو ملئ بالروث والبرك . وكانت جدران الاكواخ المبنية

من الجذوع وسطوح القش القاتمة والاشجار العارية والمنزل الخشبي الكبير غير المطلي عبارة عن كتلة رمادية سوداء واضحة المعالم .

مضى نيكيتا الى السد . ومن بعيد تناهى اليه حفيف الاشجار البليلة الذى يشبه خرير الماء عبر بوابات السد . قمم اشجار الصفصاف المتمايلة ملفعة بغيوم ممزقة تحلق على ارتفاع منخفض . وبين تلك الغيوم على الاغصان العارية المهتزة حومت طيور سوداء تنعق باصوات قلقة منبعثة من اعماق الحناجر .

وقف نيكيتا ورفع راسه وفغر فاه . خيل اليه ان هذه الطيور ظهرت من الريح الرطبة الكثيفة التي حملتها مع الغيوم ، وتشبثت باغصان الصفصاف المتمايلة وراحت تنعق لتخبرنا عن شيء غامض مخيف ومفرح . واحتبست انفاس نيكيتا وانتفض قلبه .

تلك هي غربان القيظ المهاجرة تعود مع اول عاصفة ربيعية الى اماكنها القديمة ، الى اعشاشها المخربة . فقد لاحت تباشير الربيع .

منزل بعجلات

ظلت الريح البليلة تعصف ملتهمة الثلوج طوال ثلاثة ايام . وعلى الهضاب تعرت الارض المحروثة باخاديد سوداء . والهواء مشبع برائحة الثلج الذائب والروث وعرق الدواب . وعندما تفتح بوابة الحظيرة تخرج الابقار الى المشرب وهي تتزاحم بخوار صاخب

وقرونها تتلاطم وتطقطق . الثور بايان يجول ويصول هائجا ويعب من ريح الربيع . وجد ميشكا كورياشونوك وليكسيا صعوبة كبيرة في اقتياد الماشية بسوطيهما وحملها على العودة الى مرابطها الغاصة بالسرقين . ثم تفتح بوابة الاسطبل وتخرج الخيول ناعسة ، كأنها ثملة ، بشعرها الذى تغير لونه واحلولك وعفراتها القذرة المسترسلة وبطونها المنتفخة . ولدت فيستا مهرا في زريبة انفرادية قرب الاسطبل . وكانت الزيغان المبتلة تحلق فوق السطوح وتنعق صاخبة متحيرة . وفي المنطقة الخلفية ، وراء مبنى السرداب ، تنهش الغربان الجيف التي تعرت من تحت الثلج . اما الاشجار فقد ظلت تبعث حفيفا ثقيلا مقلقا . وفوق السد وعلى الصفصاف وبين الغيوم تحلق غربان القيظ ويتعالى نعيقها .

الم بنيكيتا صداع استمر كل هذه الايام . كان يجوب الحوش والدروب الموحلة ، ناعسا قلقا ، ويمضي الى البيدر الذى تفوح من اكوام العصافة والتبن فيه رائحة غبار القمح والفئران . كان معتكر المزاج مهموما وكان شيئا فظيعا سيحدث ، شيئا يستحيل فهمه او قبوله . كل ما حواليه – الارض والدواب والماشية والطيور – لم يعد مفهوما بالنسبة له ولا عزيزا عليه . كل ذلك غدا غريبا عدائيا مشئوما . سيحدث شيء غير مفهوم اطلاقا ، خطيئة فظيعة . ومع ذلك ، ورغم النعاس والدوار اللذين يلاحقانه بسبب الريح وروائح الجيف وسنابك الخيل

والروث والثلج الهش ، استولى عليه حب الاستطلاع وجذبته تلك الاشياء .

عندما كان يعود الى المنزل مبللا مستوحشا تفوح منه رائحة كرائحة الكلاب تحدق فيه ماما بنظرة متفحصة مستنكرة لا اثر فيها للرقة والحنان . وهو لا يفهم السبب في غضب ماما . فيتعكر مزاجه ويتعذب اكثر . لم يفعل ما يسيء خلال هذه الايام ، ومع ذلك كان قلقا وكأنما هو ايضا مذنب في جريمة تقترف على وجه البسيطة دون اى مبرر .

سار نيكيتا على امتداد اكوام الدريس من الجهة غير المعرضة للريح . لا تزال موجودة في هذه الاكوام الجحور والمغارات التي حفرها الفلاحون والفلاحات في اواخر الخريف عندما انجزوا درس آخر حزم القمح . وفي هذه الجحور والمغارات تحت الاكوام كانوا ينامون ليلا . وتذكر نيكيتا الاحاديث التي سمعها هناك ، في ظلمة القش الدافيء الفواح . وبدت له تلك الاكوام مخيفة .

اقترب من قمرة محراث قائمة في الحقل على مقربة من البيدر . وهي كمنزل خشبي صغير بعجلات . بابها معلق على رزة واحدة ، وهو يبعث صريرا كئيبا . كان «المنزل» خاليا . صعد اليه نيكيتا على سلم من خمسة عيدان عرضانية . وفي الداخل نافذة صغيرة من اربع زجاجات . والثلج لا يزال يغطي الارضية . وعلى رف عند الجدار ، تحت السقف ، بقيت من الخريف الماضي ملعقة خشبية مقظومة وقنينة زيت نباتي فارغة ومقبض سكين . والريح تصفر فوق

السطح . وقفَ نيكيتا يفكر بانه الان وحيد لا يحبه احد والجميع غاضبون عليه . كل شيء على وجـه البسيطة رطب اسود شرير . وانسدلت غشاوة على عينيه واختنق بعبراته : كيف لا وهو وحيد في هذا العالم ، وحيد في القمرة الخالية ؟ . .

– يا الهي – تمتم نيكيتـا بصوت كالهمس واقشعر بدنه وكان نملا باردا يسرى على ظهره . – ياالهي ، ساعدني لتتحسن حالي من جديد ، واجعل ماما تحبني ، واجعلني اطيع معلمي . . . واجعـل الشمس تشرق والعشب ينمو . . . والغربان لا تنعق بهذه الصورة المخيفة . . . والثور بايان لا يزأر كالوحش . . . يا الهي ، ساعدني وخفف علي من جديد .

تمتم نيكيتا بهذه الابتهالات وهـو يحني ظهره ويقومه ويرسم شارة الصليب باستعجال . تطلع الى الملعقة والقنينة ومقبض السكين فخفف عليـه ذلك فعلا . ظل واقفا دقائق اخرى في هذا «المنزل» المعتم بنافذته الصغيرة ، ثم مضى الى البيت .

حقا ، ساعده المنزل ذو العجلات . ففي الدهليز عندما كان يخلع معطفه مرت ماما قربه والقت عليه نظرة متفحصة كعادتهـا في هذه الايام ، من عينين رماديتين صارمتين ، لكنها ابتسمت بحنان ومسدت شعره براحتها وقالت :

– ماذا ؟ شبعت من التجول ؟ تريد شايا ؟

مفاجأة وصول فاسيلي نيكيتيفيتش

واخيرا هطل المطر غزيرا في الليـل ، وراح يطرق بشدة على النافذة وعلى السطح المعدني فايقظ نيكيتا حتى جلس على السرير يستمع باسما .

ما اروع حفيف المطر في الليـل . فهو يطرق باستعجـال على زجاج النافذة : «نم ، نم ، نم» ، وتتلاعب الريح المتقطعة باشجار الحور في الظلمـة امام المنزل .

قلب نيكيتا المخدة لتكون صفحتها الباردة الى اعلى ورقد من جديد ، وتقلب تحت البطانية الصوفية ليتخذ افضل وضعية ممكنـة . «كل شيء سيكون باروع شكل . . . شكل . . .» – فكر وهو يغوص في غيوم الكرى الناعمة الدافئة .

انقطع المطر في الصباح ، لكن السماء لا تزال ملبدة بسحب رمادية ثقيلة تتحرك من الجنوب الى الشمال . تطلع نيكيتا عبر النافذة وندت عنه صرخة استغراب . فلم يبق اثر للثلوج . الحوش الفسيح مغطى ببرك زرقاء تترجرج في الريح . عبر البرك ، على العشب البني المدعوك ، يمتـد ممشى ممسوح بالروث لم تلتهمه مياه الامطار بالكامل بعد . اغصان الحور البنفسجية الناقعة تتراقص بمرح واستعجال .

ومن جهة الجنوب ، بين السحب الممزقة ، ظهرت بقعة من السماء اللازوردية تغشى زرقتها الابصار وانطلقت بسرعة رهيبة صوب الضيعة .

اثناء احتساء الشاى كانت ماما تتطلع الى النوافذ بانفعال بين حين وآخر . وقالت للمعلم :

— لم يصل البريد من خمسة ايام . انا متحيرة . . . لماذا بقى حتى بدأت الفيضانات ؟ ستتعطل الطرق اسبوعين . . . ما اشد طيشه !

فهم نيكيتا ان ماما تقصد اباه . فقد كانوا ينتظرون وصوله ساعة بعد اخرى . مضى اركادى ايفانوفيتش ليستفسر من وكيل الضيعة عن امكانية ارسال شخص على ظهر حصان لاحضار البريد . ولكنه عاد في الحال الى غرفة الطعام وقال بصوت عال يختلف عن صوته العادى :

— يا سادة ، انظروا ما حدث ! . . الماء يبقبق ويوشوش .

فتح نيكيتا باب المدخل على مصراعيه . الهواء الطلق النفاذ مشبع بخرير الماء الذى يتلوى ويجرى بشدة . جداول الثلج الذائب تتراكض في كل الاخاديد والسواقي والقنوات الى المنخفضات . طفحت تلك المنخفضات بمياه الربيع وراحت تلفظها الى النهر . حطم النهر جليده وطفح على الضفاف وتلاطمت الكتل الجليدية فيه والشجيرات التي اقتلعها من الجذور ، وجرى فوق السد ليسقط كالشلال في الوهدات العميقة وراءه .

البقعة اللازوردية المسرعة صوب الضيعة مزقت كل الغيوم وبددتها . وانسكب من السماء ضوء بارد مائل الى الزرقة . وصارت البرك في الحوش زرقاء بلا قاع ، وارتسمت معالم الجداول ببقع ضوئية

تتراقص فوقها ، وراحت المنخفضات الجارية والبحيرات الهائلة في الحقول تعكس حزما من اشعة الشمس .

— يا الهي ، ما اروع هذا الهواء — تمتمت ماما وهي تضغط يديها على صدرها تحت الوشاح الوبرى . وجهها يبتسم وعيناها الرماديتان تبعثان وميضا اخضر . عندما تبتسم ماما تغدو اجمل من كل البشر على الارض .

طاف نيكيتا حول الحوش ليرى ماذا حدث . الجداول تجرى في كل مكان وتختفي احيانا تحت اكوام الثلج الرمادى المحبب . وتتهاوى تلك الاكوام منسحقة تحت قدميه . المياه في كل جهة تتجه اليها . والضيعة كجزيرة في بحر . تمكن نيكيتا من الوصول الى ورشة الحدادة الواقعة على الرابية . وركض على المنحدر الناشف الى المنخفض . كان الماء الصافي الفواح الناشىء عن ذوبان الثلوج ينساب ويجرى ساحقا اعشاب العام الفائت . اغترف نيكيتا من هذا الماء وشرب .

وعلى مسافة ابعد ، على طول المنخفض لم يذب الثلج بعد . كان مغطى ببقع صفراء وزرقاء ، يشق الماء مجراه فيه تارة وينساب فوقه تارة اخرى . وليحفظ الله الخيالة من الوقوع في هذه العصيدة الثلجية . سار نيكيتا على العشب بامتداد الماء : ياليته يعوم في مياه الربيع من منخفض الى منخفض ، قرب الضفاف الرخوة التي بدأت تجف ، عبر البحيرات اللماعة المترجرجة في ريح الربيع .

على الطرف الثاني من المنخفض ينبسط حقل مستو ، عار في بعض المواضع ومغطى بالثلج في بعضها الاخر ، والجداول الملتوية تلمع فيه . ومن بعيد ، عبر الحقل يسير ببطء خمسة خيالة على ظهور جياد بلا سروج . التفت اولهم وصاح ، على ما يبدو ، وهو يلوح بشليلة من الحبال . انه ارتامون تورين ، عرفه نيكيتا من حصانه الابقع . وكان الخيال يحمل على كتفه وتدا . كانوا متجهين صوب قرية خومياكوفكا الواقعة على الضفة الثانية من النهر وراء المنخفضات . وكان منظرهم وهم يخوضون في المياه على ظهور الجياد ، بعيدا عن الطريق ، يبعث الدهشة والاستغراب .

بلغ نيكيتا البركة السفلى التي تصب فيها مياه المنخفض عبر غشاوة عريضة على ثلج اصفر . المياه تغطى كل جليد البركة وتنساب عليه بموجات قصيرة . ومن اليسار يتناهى حفيف اشجار الصفصاف الهائلة العريضة الناقعة . وعلى اغصانها العارية جثمت غربان القيظ متمايلة مهتزة وقد تبللت حتى العظام خلال الليل .

ظهر «فارس» بين جذوع الاشجار العوجاء على السد . كان يضرب الفرس الهزيلة بكعبيه ويتمايل ويحرك مرفقيه . انه ستيوبكا كارناوشكين . صاح بنيكيتا وقال له شيئا وهو مسرع قربه في برك الماء والرذاذ ونتف الثلج الوسخ تتطاير من تحت سنابك الفرس .

واضح ان شيئا ما قد حدث . ركض نيكيتا الى

المنزل فوجد عند المدخل الخلفي فرس كارناوشكين تتنفس بعسر محركة جنبيها المنتفخين ، وقد لوت راسها صوب نيكيتا . وما ان دخل المنزل حتى سمع صرخة قصيرة مرعبة اطلقتها امه . ظهرت في الرواق بوجه ملتو متشنج وعينين بيضاوين جاحظتين من شدة الخوف ووراءها ظهر ستيوبكا ، ومن باب جانبي آخر هرع اركادى ايفانوفيتش . كانت ماما مسرعة في الرواق وكأنها تطير ولا تسير .

– اسرعوا ، عجلوا – صاحت ماما وهي تفتح باب المطبخ على مصراعيه – ستيبانيدا ، دونياشا اركضا الى جناح الخدم . . . فاسيلي نيكيتيفيتش يغرق قرب خومياكوفكا .

كان افظع ما في ذلك كلمة «خومياكوفكا» . اسودت الدنيا في عيني نيكيتا : في الرواق فاحت فجأة رائحة بصل مقلي . وقالت ماما فيما بعد ان نيكيتا ضيق جفونه كالارنب وصرخ . لكنه لا يتذكر هذا الصراخ . امسك به اركادى ايفانوفيتش واقتاده في الحال الى غرفة الدراسة .

– كيف لا تخجل يا نيكيتا ؟ وتعتبر نفسك رجلا ؟ – كرر المعلم وهو يضغط بكل قواه على يدى الصبى في اعلى المرفقين . – ماذا بك ؟ عيب ! ماذا بك ؟ . . فاسيلي نيكيتيفيتش سيأتى قريبا . . . يبدو انه سقط في ساقية وتبللت ثيابه لا اكثر . . . لكن هذا الاحمق ستيوبكا ارعب ماما . . . اقسم بالله ، سافرك اذنيه الاثنتين . . .

ومع ذلك رأى نيكيتا ان شفتي اركادى

ايفانوفيتش ترتعشان وان بؤبؤى عينيه اصبحـــا كنقطتين .

ثم ان ماما ركضت بالمنديل وحده الى جناح الخدم مع انهم جميعـــا علموا بالحادث وتجمهروا منفعلين صاخبين قرب مستودع العربات وراحـــوا يشدون الحصان القوى الجموح «الزنجي» الى زحافــــة بدون مزلقين حديديين ويتصيدون افراس الركـــوب من الاسطبل المكشوف ، وسحب بعضهم كلاّبا من سقف القش وتراكض بعضهـــم الاخر حاملين المعـــاول والحبال . وركضت دونياشا من المنزل وفي يديها معطفان من فرو الغنم . وجاء باخوم الى ماما وقال لها :

— يا الكسندرا ليونتيفنا ارسلى دونياشـــا الى القرية لشراء الفودكا . حالما نحضره الى هنا يجب ان نسقيه الفودكا . . .

— سأذهب معكم يا باخوم .

— كلا ، اذهبـــي الى البيت ، والا ستصابين بالبرد .

جلس باخوم على جانب من الزحافة وامسك العنان بشدة وصاح بالشابين المتشبثين بلجام الحصان : «اتركاه !» . اقعى «الزنجي» بين العريشين وشخر ثم انطلق يجر الزحافة بيسر عبر الاوحال والبرك . وعلى اثره انطلق الخدم يتصايحون ويستحثون بالحبال جيادهم التي كانت تتدافع فيما بينها .

شيعتهم ماما بنظراتها امدا طويلا ، ثم اطرقت براسها ومضت الى المنزل على مهل . جلست عند

النافذة في غرفة الطعام حيث يلوح الحقل وصفصاف خومياكوفكا وراء الهضبة . نادت نيكيتا فهرع اليها وطوق رقبتها ومال براسه على كتفها ، على المنديل الوبرى . . .

— المصيبة ستهون ان شاء اللـه يا عزيزى — تمتمت ماما بصوت متقطع خافت والصقت شفتيهـــا بشعر نيكيتا وظلت على هذه الحال امدا طويلا .

كان اركادى ايفانوفيتش يتردد على الغرفة مرة بعد اخرى ويمسح نظارته ويفرك يديه . خرجت ماما الى المدخل مرارا مؤملة ان يصلوا ، وكانت تعود الى مقعدها عند النافذة دون ان تبعد نيكيتا عنها .

تحول ضوء النهار الى بنفسجي قبيـل المغيب ، وارتسمت في اسفل زجـاج النوافذ ، عند الاطر ، نقوش ثلجية كاغصان الشوح . فالبرد يشتد مـع اقتراب الليل . وفجاة طقطقت سنابك قرب المنزل ولاح «الزنجي» والزبد يرغي عـلى جنبي خطمه ، وظهر باخوم جالسا على حافة الزحافة ، وفي الزحافـة نفسها ، تحت كومة من المعاطـــف ، لاح بين فرو الضان وجه فاسيلي نيكيتيفيتش قرمزيا باسما وعليه اصبعان جليديان كبيران بدلا من الشاربين . نهضت ماما بسرعة وندت عنها صرخــــة وارتعش وجهها ، وهتفت :

— حي ! — وانفرطت الدموع من عينيهـــا اللامعتين .

هكذا غرقت

جلس بابا ، فاسيلي نيكيتيفيتش ، على مقعد جلدى ضخم قرب المائدة المستديرة في غرفة الطعام . كان يرتدى برنسا وبريا ناعما وجزمة لبادية منفوشة . شارباه ممشطان الى الجانبين ، وكذلك لحيته الكستنائية الرطبة . وجهه المرح الاحمر ينعكس على السماور الذى يطقطع الشرر في قسمه السفلي ويغلي الماء فيه بصخب متميز خاص ، شانه شأن كل احداث هذا المساء .

ضيق فاسيلي نيكيتيفيتش جفونه من شدة الارتياح ومن الفودكا التي احتساها ، ولمعت اسنانه البيضاء . كانت ماما في نفس الفستان الرمادى والمنديل الوبرى ، ولكنها بدت على غير عادتها ، فلم تتمالك نفسها عن الابتسام وراحت تمطط شفتيها وذقنها يرتعش . وارتدى اركادى ايفانوفيتش نظارته العاجية الجديدة المخصصة للمناسبات . جلس نيكيتا على الكرسي وثنى ركبتيه واتكأ ببطنه على المائدة وراح يحدق في فم ابيه . كانت دونياشا تدخل الغرفة راكضة كل دقيقة ، فتاخذ شيئا او تجلب شيئا وهي تحملق في سيدها . واحضرت ستيبانيدا على مقلاة حديدية فطائر كبيرة مما يخبز على جناح السرعة . كان الدهن يوشوش ويفح في تلك الفطائر ، فما الذها وما احلاها ! كان القط فاسيا يتمشى مرفوع الذنب ويتخطر ويحوم حول المقعد الجلدى ويحك ظهره وجنبه وقفاه عليه

ويطلق مواء اعلى من المعتاد . وكان القنفذ اخيلكا يبص من تحت الخوان ببوزه الشبيه بسحنة خنزير ، واستقرت اشواكه ممسدة من الجبهة باتجاه الظهر . مما يدل على انه هو ايضا يشعر بالرضا والارتياح .

التهم بابا فطيرة ساخنة لذيذة – عفارم يا ستيبانيدا ! – وطوى فطيرة ثانية بشكل انبوبة والتهمها – عفارم يا ستيبانيدا ! – وارتشف جرعة كبيرة من الشاى مع القشدة ومسد شاربيه وضيق احدى عينيه ، وقال :

– والآن اسمعوا ، ساحكي لكم كيف غرقت . – وطفق يحكي القصة كاملة . – غادرت سامارا اول امس وفي الحقيقة ، يا الكسندرا ، – اكتسى وجهه بمسحة جدية للحظة – كانت هناك فرصة نادرة للشراء بثمن بخس للغاية . فقد الح على بوزدونين بان اشترى منه حصانه الكميت الغامق «اللورد بايرون» . وقلت له : ما حاجتي الى حصانك ؟ فقال : «تعال وانظر اليه» . وعندما رايت الحصان اغرمت به . ما اجمله وما اذكاه ! نظر الي بعين بنفسجية وكاد يقول : اشترني . اما بوزدونين فقد الح على ان اشترى منه ، بالاضافة الى الحصان ، زحافة وطقما . . . يا عزيزتي ، ألست زعلانة على بسبب هذه المشتريات ؟ – اخذ بابا يد ماما – اعذريني ! – تأثرت ماما حتى اطبقت جفونها : فهل تستطيع ان تزعل عليه اليوم حتى وان اشترى رئيس البلدية بوزدونين نفسه . – هكذا ، اذن ،

امرت بان يجلبوا لي «اللورد بايرون» . وفكرت :
ما العمل ؟ فانا لا اريد ان اترك الحصان وحده في
سامارا . حزمت مختلف الهدايا في الحقيبة — ضيق
بابا احدى عينيه بمكر — واعداوا لي «بايرون» عند
الفجر فغادرت سامارا لوحدى . في البلداية كان
الثلج لا يزال منتشرا في بعض الاماكن ، وبعد ذلك
صار الطريق موحلا حتى تصبب العرق من حصاني ،
وخارت قواه . فعزمت على قضاء الليل في كولديبان
عند الاب فوزدفيجينسكي . اطعمني الاب سجقا لا
اطيب منه . وقال : «لن تصل الى اهلك يا فاسيلي
نيكيتيفيتش . هذه الليلة ستذوب الثلوج في
المنخفضات من كل بد» . وقلت له باني سارتحل
مهما كلف الامر . وبقينا نتجادل على هذه الصورة
حتى منتصف الليل . وسقاني نبيذ عنب الثعلب . ما
الذه ! والله لو ارسلنا هذا النبيذ الى باريس لفقد
الفرنسيون عقلهم . . . ولكننا سنتحدث عن ذلك
فيما بعد . حالما رقدت على السرير هطل مطر
غزير . فهل تتصورين ، يا الكسندرا ، مدى حزنى
واكتئابي : كيف اجلس على بعد عشرين كيلومترا
عنكم ولا اعرف متى ساصل اليكم ؟ . . الله مع
ذاك الاب ونبيذه . . .

— فاسيلي — قاطعته ماما والقت عليه نظرة
صارمة — ارجوك كل الرجاء الا تقوم بمثل هذه
المجازفة بعد الآن . . .

— اعدك بشرفي — اجاب فاسيلي نيكيتيفيتش
فورا — هكذا اذن . . . في الصباح انقطع المطر ،

ومضى الاب لصلاة الظهر ، اما انا فقد طلبت ان
يشدوا «بايرون» الى الزحافة وتحركت . يا
الهي ! . . المياه تغطى كل الانحاء . لكن المياه
اسهل على الحصان من الثلوج . سرنا بلا طريق ،
والماء يصل الى الركبة . . . سرنا كانما عبر
البحيرات . ما اجمل ذلك . . . الشمس مشرقة
والنسيم عليل . . . وزحافتي تعوم . وقدماى
مبللتان . ما اروع ذلك ! واخيرا رأيت صفصافنا
من بعيد . اجتزت خومياكوفكا واخذت ابحث عن
مكان اسهل لعبور النهر . . . ملعون بوزدونين —
ضرب فاسيلي نيكيتيفيتش مسند المقعد بقبضته . —
ساريه اين يجب بناء الجسور ! اضطررت الى قطع
ثلاثة كيلومترات وراء خومياكوفكا ، وهناك عبرنا
النهر خوضا . عفارم على «اللورد بايرون» . فقد
صعد بخفة الضفة العالية ، وفكرت : النهر عبرناه ،
فكيف سنعبر المنخفضات الثلاثة الافظع من النهر ؟
المنخفضات امامنا وليس هناك مخرج آخر . وصلنا
الى المنخفض الاول . هل تتصورين ، يا الكسندرا ،
انه غاص عن آخره بالمياه والثلوج . وعمقه ، كما
تعلمين ، اكثر من ستة امتار .

— فظيع . — دمدمت ماما وشحب وجهها .

— حللت عدة الحصان ورفعت الطوق والسرج
عنه ، ووضعتها في الزحافة ، ولم انتبه الى ضرورة
خلع معطف الفرو الثقيل ، وهذا ما كاد يؤدى الى
هلاكي . وصعدت على ظهر الحصان . اعوذ بالله !
في البداية تعنت وعاند . فسددته ولاطفته . تشمم

الماء وشخر . ثم تراجع قليلا واندفع نحو المنخفض ، الى عصيدة الثلج وغاص فيها حتى الرقبة . فرفط بقوائمه عبثا دون ان يتقدم خطوة . نزلت من على ظهره وغصت انا ايضا فلا يرى غير راسي . واخذت اتحرك في هذه العصيدة ولا ادرى هل كنت اعوم ام ازحف . وعندما رآني الحصان ابتعد عنه اطلق صهيلا حزينا وكأنه يقول : لا تتركني ! واخذ يفرفط ويقفز في اثرى . لحق بي وضرب بقائمتيه الاماميتين معطفي المفتوح وسحبني الى تحت الماء . فرفطت بكل قواى والاعماق تمتصني والقاع بعيد . من حسن الحظ ان معطف الفرو كان مفتوحا فانخلع من تلقاء ذاته عندما كنت افرفط تحت الماء . وظل هناك ، في المنخفض . . . عومت الى السطح واخذت اتنفس راقدا على العصيدة منشور اليدين والساقين كالضفدع . وسمعت بقبقة . التفت فرأيت نصف بوز الحصان تحت الماء والفقاعات تتصاعد منه . فقد داس على عنانه . وتعين علي ان اعود اليه . حللت العنان وخلعت اللجام عنه . فرفع بوزه نترا وتطلع الي كالانسان . وبقينا نفرفط في العصيدة على هذه الصورة اكثر من ساعة . وشعرت بان قواى خارت واني اخذت اتجمد . بدأ قلبي يتجلد . وفي تلك اللحظة توقف الحصان عن القفز واستدار وطفا . يعني اننا وصلنا اخيرا الى الماء الخالص من الثلج . وكان العوم في الماء اسهل ، فحملنا التيار الى الضفة الاخرى . خرج «بايرون» من الماء الى الاعشاب اولا ، ولحقت به انا . امسكت بعفرته وسرنا نتمايل

جنبا الى جنب . ولا يزال امامنا منخفضان . لكنني رايت في تلك الاثناء فلاحين على ظهور الجياد . . .

تلفظ فاسيلي نيكيتيفيتش بضع كلمات غامضة اخرى وخر رأسه فجأة . كان وجهه قرمزيا واسنانه تصطك وتنبعث منها طقطقة خافتة متكررة . ثم قال :

– لا بأس ، لا تهتموا . ارتخيت من سماوركم .

– ومال على ظهر المقعد واسبل جفونه .

انتابته قشعريرة . فنقلوه الى السرير ، واخذ يهذى . . .

اسبوع الآلام

لازم بابا الفراش ثلاثة ايام في حمّى شديدة ، وعندما عاد الى رشده كان اول ما سأل عنه هو «اللورد بايرون» ، هل هو حي ؟ وكان الحصان الجميل في صحة وعافية .

فاسيلي نيكيتيفيتش يتحلى بطبيعة مرحة حية . وهذه الطبيعة بالذات سرعان ما جعلته يغادر الفراش ، فلا مجال للرقاد في وقت بدأت فيه المشاغل قبيل بذار الربيع . في ورشة الحدادة كانوا يصنعون سكك المحاريث ويصلحون ما تحطم منها ويستبدلون حدوات الخيل . وفي العنابر كانوا يقلبون القمح بالرفوش وينشرونه كيلا يتعفن ، فيثيرون رعب الفئران ويستثيرون عواصف الغبار . وتحت الظلة يتعالى صخب المذراة . وفي المنزل حملة تنظيف . كانوا يمسحون النوافذ ويغسلون

الارضية وينتزعون بيوت العناكب من السقف ، ويحملون السجاجيد والمقاعد والارائك الى الشرفة وينفضون عنها آثار الشتاء . كل الاشياء التي تعودت على اماكنها خلال الشتاء زحزحوها من تلك الاماكن ونفضوها من الغبار ثم وضعوها بترتيب جديد . اما اخيلكا الذى لا يحب الهرج والمرج فقد اشتاط غضبا ومضى ليقيم في مستودع العفش .

ونظفت ماما بنفسها طقوم الطعام الفضية واطارات الايقونات المفضضة وفتحت الصناديق العتيقة ففاحت منها رائحة النفثالين ، وتفحصت ثياب الربيع المدعوكة في الصناديق والتي بدت جديدة بعد السبات الشتوى . وفي غرفة الطعام سلال فيها بيض مسلوق راح نيكيتا واركادى ايفانوفيتش يصبغان بعضه بنقيع قشور البصل فيغدو اصفر ويلفان بعضه الآخر بورق مخرم ويلقيان به في ماء يغلي بالخل فيغدو البيض مزركشا مزينا بالرسوم ، ويصبغان البعض الثالث باللك وبلون ذهبي وفضي .

يوم الجمعة فاح المنزل كله برائحة الونيلية والهيل . فقد بدأوا باعداد خبز الفصح وفطائره الاسطوانية . وما ان حل المساء حتى رقدت على سرير ماما ، لترتاح تحت مناشف نظيفة ، عشر فطائر تقريبا بعضها رفيع طويل وبعضها سميك قصير .

الطقس متقلب كل ايام هذا الاسبوع . تارة تتلبد السماء بغيوم سوداء وتتساقط حبات البرد ، وتارة ينساب من السماء الصافية ، من الاعالي

الزرقاء ، ضوء الربيع البارد ، وتارة ثالثة تدوم عاصفة ثلجية رطبة . وفي الليل تتجمد مياه البرك في الخلاء .

يوم السبت خلت الضيعة ، فقد ذهب نصف الخدم ونصف سكان المنزل الى قرية كولوكولتسوفكا على بعد سبعة كيلومترات لاداء صلاة الفجر الكبرى في كنيسة القرية .

كانت ماما متوعكة ذلك اليوم بعد متاعب الاسبوع . وافاد بابا بانه سيذهب للنوم فور انتهاء العشاء . اما اركادى ايفانوفيتش الذى كان طوال هذه الايام ينتظر عبثا وصول رسالة من سامارا فقد انزوى في غرفته حزينا كالغراب واغلق الباب بالمفتاح .

وعرضوا على نيكيتا ان يذهب لحضور صلاة الفجر ، اذا اراد ، ويبحث عن ارتيوم ويخبره بان يشد الفرس افروديت الى العربة الخفيفة . فهذه الفرس قد جددت حدواتها الاربع . وكان من اللازم السفر قبل حلول الظلام والمبيت في كولوكولتسوفكا عند احد معارف بابا القدامى ، وهو البقال بيوتر بيتروفيتش ديفياتوف . وقالت ماما : «بالمناسبة ، بيته يعج بالاطفال ، وانت وحيد دوما . الوحدة قاتلة» .

قبيل المساء استقل نيكيتا العربة وجلس جنب ارتيوم الطويل الذى شد سترته البالية بزنار جديد استقر اسفل بطنه . وقال ارتيوم : «هيا ، يا عزيزتي ، اوصلينا» – وتحركت افروديت العجوز

برقبتها المرتخية وعجيزتها العريضة وسارت في خبب بطيء .
اجتازت العربة الحوش ومرت بورشة الحدادة ، ثم عبرت المنخفض الذى يبلغ ماؤه الاسود محورها . ولسبب ما كانت افروديت تنظر بين حين وآخر الى ارتيوم عبر عريش العربة .
اضواء المساء الزرقـاء تنعكس في البرك التي قيدتها غشاوة جليدية رقيقة . وينبعث صرير من تحت السنابك ، وتنتفض العربـة . جلس ارتيوم صامتا وقد تدلى انفه الطويل . كان يفكر بجبـه التعيس وبمحبوبته دونياشا . وعلى صفحة المغيب الباهتة ، في السماء الخضراء ، تلألأت نجمة صافيـة كبلورة من جليد .

اولاد بيوتر بيتروفيتش

من حلقة حديدية في السقف يتدلى فانوس ينير الغرفة بلهب ازرق خافت تنبعث منه رائحة مقرفة . وعلى الارضية حشيتان بقماش قطني تفوح منهمـا رائحة الدفء والراحـة والصبيان . تمدد عليهما نيكيتا مع اولاد بيوتر بيتروفيتش الستة ، وهـم فولوديا ، وكوليا وليوشكا وليونكا الشاكي وصبيان صغيران لم تكن معرفة اسميهما بذات بال .
الاولاد الاكبر سنا يحكـون القصص باصوات خافتة ، اما ليونكا الشاكي فكان يتلقى صفعة من هنا ولطمة من هناك على اذنه او صدغه كي يكف

عن التذمر والتشكي . وغفـا الصغيران وقد غرزا انفيهما في الحشية .
سابع اطفال بيوتر بيتروفيتش بنت منمشـة الوجه بعينين ثاقبتين مستديرتين كعيون الطيور لا اثر فيهما للابتسامة ، وانف صغير قاتم من النمش . اسمها آنا وهي بعمر نيكيتا . كانت تظهر بخفة من الرواق على عتبة باب الغرفة بين الحيـن والآخر . وعند ذاك ينهرها احد الصبيان قائلا :
– آنا ، لا تتدخلي فيما لا يعنيك ، والا ساقوم و . . .
وتختفي آنا بنفس الخفة التي تظهر بها . ويعم المنزل الهدوء .
ذهب بيوتر بيتروفيتش الى الكنيسة قبل حلول الظلام ، فهو عمدة الابرشية .
وقالت زوجته ماريا ميرونوفنا للاطفال :
– اذا تصايحتم ساقطع رقابكم . .
ومضت الى سريرها لتأخذ قسطا من الراحـة قبيل صـلاة الفجر . تلقـى الاولاد أمرا بالنوم والهدوء . وتحدث ليوشكا ذو الوجه المستديـر والشعر الاشعـث وقد سقطت اسنانـه الامامية ، فقال :
– في عيد الفصح الماضي لعبنا لعبة الخبايـا وغلبت مائتي بيضة . اكلـت الكثير حتى انتفخ بطني .
ودمدمت آنا مـن وراء الباب خشية ان يصدق نيكيتا ما قاله ليوشكا :

— كذب . لا تصدق به .

— ساقوم ، والله . . . — هددها ليوشكا .

وخيم الهدوء وراء الباب .

قال فولوديا ، الابن الاكبر ، وهو صبي اسمر اجعد الشعر جلس متربعا على الحشية :

— سنذهب غدا الى برج الكنيسة وندق النواقيس . حالما اهز النواقيس يهتز البرج كله . باليد اليسرى اهز النواقيس الصغيرة — درلين ، درلين ، وبهذه اليد اهز الناقوس الضخم — بم ، بم ، ووزنه مليون كيلو .

— كذب — تناهى همس من وراء الباب .

التفت فولوديا التفاتة سريعة تطايرت لها خصلاته الجعداء . وقال :

— آنا ! . اخرسي ! . . — واسترسل : — ابونا قوي جدا يستطيع ان يرفع الحصان من قائمتيه الاماميتين . . انا طبعا لا استطيع ان افعل مثله بعد . ولكن تعال الينا ، يا نيكيتا ، في الصيف . وسنذهب الى البركة . بركتنا طولها ستة كيلومترات . استطيع ان اتسلق الشجرة الى قمتها ، ومن هناك اقفز الى الماء ، راسي تحت ورجلاي فوق .

— وانا استطيع ان لا اتنفس تحت الماء مطلقا وارى كل شيء — قال ليوشكا — في الصيف الماضي سبحنا . عششت في راسي ديدان وبراغيث وخنافس ضخمة . . .

— كذب — تناهت من وراء الباب تنهدة لا تكاد تسمع .

— آنا ، ساسحبك من ضفيرتك ! . .

— بنت مزعجة جدا — قال فولوديا بامتعاض — تتحرش بنا دوما . وتتقل علينا ، وبعد ذلك تشتكي عند ماما وتقول اننا نضربها .

وتناهى نحيب من وراء الباب . كان الصبي الثالث ، كوليا ، راقدا على جنبه متكئا على قبضته يتطلع الى نيكيتا طوال الوقت بعينين طيبتين حزينتين بعض الشيء . وجهه مستطيل وديع وشفته العليا بعيدة عن ارنبة انفه . وعندما يلتفت اليه نيكيتا تبتسم عيناه . ساله نيكيتا :

— هل تجيد السباحة ؟

ابتسمت عينا كوليا ، فاجاب فولوديا بدلا عنه بلهجة مستهينة :

— انه مغرم بالمطالعة . في الصيف يعيش على السطح . عندنا هناك كوخ من البردى ، يتمدد فيه ويقرا طول الوقت . بابا يريد ان يرسله الى المدينة ليتعلم . اما انا فساهتم بالشؤون المنزلية . ليوشكا لا يزال صغيرا ، فليلعب . ليونكا الشاكي مصيبتنا . — سحب ليونكا من الشعر المنتصب كعرف الديك على هامته — صبي كريه . بابا يقول : في بطنه ديدان .

— الديدان المخيفة في بطني وليس في بطنه — قال ليوشكا — لاني آكل اوراق راعي الحمام وبذور الاقاصيا ، واستطيع ان آكل حتى افراخ الضفادع .

– كذب – تهادى من جديد انين من وراء الباب .

– يا ويلك يا آنا ! – هرع ليوشكا راكضا على الخشبية صوب الباب ودفع اخاه الصغير فغمغم هذا دون ان يستيقظ . لكن حفيفا مرق في الرواق وكان اوراقا تتطاير . لم يبق اثر لآنا طبعا ، وصر باب من بعيد . عاد ليوشكا وقال : – اختبأت في غرفة ماما . لن تتخلص مني مع ذلك . سأحشو شعرها بالشوك .

– اتركها يا ليوشكا . لماذا تتحرش بها ؟ – قال كوليا فانهال عليه ليوشكا وفولوديا وحتى ليونكا :

– نحن نتحرش بها ؟ انها هي تتحرش بنا . حتى لو قطعنا الف كيلومتر والتفتنا نجدها وراءنا حتما . . تكذب كل ما نقول ونفعل ، وتذكرنا بما هو ممنوع علينا . .

وقال ليوشكا :

– مرة جلست يوما كاملا في الماء بين البردى ، كيلا اراها . حتى أكلني العلق .

وقال فولوديا :

– حالما جلسنا نتغدى قالت لماما : «ماما ، اصطاد فولوديا فارة ، وهي في جيبه» . ربما كانت هذه الفارة اعز شيء علي .

وقال ليونكا :

– تحملق فينا دوما حتى تسيل دموعنا .

تشكى الصبية لنيكيتا من آنا ونسوا تماما ان

ماما امرتهم بان يرقدوا بهدوء ويصمتوا قبيل صلاة الفجر . وفجأة دوى من بعيد صوت ماريا ميرونوفنا ثخينا مهددا متوعدا :

– هل اكرر الف مرة ؟

هدأ الاولاد في الحال . وفيما بعد اخذوا يرتدون جزماتهم ومعاطفهم هامسين متدافعين ، ولفوا رقابهم بالاوشحة وهرعوا الى الشارع .

خرجت ماريا ميرونوفنا بمعطف جديد من القطيفة ووشاح مطرز بالورد . امسكت آنا بيد امها وقد لفت رأسها بمنديل كبير .

كانت السماء مرصعة بالنجوم في تلك الليلة . وتفوح رائحة التربة والصقيع الخفيف . وعلى امتداد البيوت القروية القاتمة ، على البرك المتجلدة التي تنعكس فيها نجوم السماء ، سار الرجال والنساء والاطفال صامتين . وفي ساحة السوق ، بعيدا ، لاحت قبة الكنيسة الذهبية على صفحة السماء المعتمة . وتحت القبة ، في ثلاث شرفات دائرية ، الواحدة اوطأ من الاخرى ، انيرت سرج الزيت يداعبها النسيم ويدغدغ لهيبها .

قلب لا يلين

بعد صلاة الفجر عادوا الى المنزل . كانت المائدة جاهزة ، والورود الورقية الحمراء تزهو بين اهرام القريشة العسلية والفطائر الاسطوانية وحتى على الجدران حيث شكت بدبابيس ، والكنارى يضاصىء

في قفصه على النافذة مستثارا بضوء المصباح .
بيوتر بيتروفيتش في سترة سوداء طويلة الاذيال .
سالت ضحكاته متقطعة بين شاربيه الملتويين ،
فتلك هي عادته ، وصب للجميع نقيع الكرز في
اقداح صغيرة . قشر الاولاد البيض المسلوق
ولحسوا الملاعق . جلست ماريا ميرونوفنا متعبة
دون ان تخلع الوشاح ، وكانت عاجزة حتى عن تناول
طعام الافطار بعد الصوم ، وظلت تنتظر حتى تهدأ
«الجوقة» اخيرا ، كما تسمى اطفالها .

ما ان رقد نيكيتا على الحشية في ضوء المصباح
الازرق والتحف بمعطف فرو الضأن حتى صدحت في
اذنيه اصوات رفيعة ترتل بلهجة باردة بعض
الشئ «قام المسيح ، حقا قام . . .» ، ورأى من
جديد الجدران الخشبية البيضاء تسيل عليها ابخرة
الانفاس الباردة كالدموع وضوء الشموع الكثيرة امام
اطارات الايقونات المذهبة . ومن خلال سحب
البخور الزرقاء في الاعلى ، تحت قبة الكنيسة الزرقاء
المرصعة بنجوم ذهبية ، اطلت حمامة منشورة
الجناحين . ووراء النوافذ المشبكة ليل بهيم ، بينما
ترتل الاصوات وتفوح رائحة فرو الضأن والقماش
وتنعكس اضواء الشموع في آلاف العيون . ثم فتحت
البوابة الغربية وحملت رايات القديسين محنية عند
العتبة . وغفرت للناس في تلك الليلة كل الذنوب
التي اقترفوها خلال العام . ومالت آنا بانف منمش
وشريطين ازرقين فوق اذنيها على اخوتها
لتقبلهم . .

كان صباح اليوم الاول رماديا دافئا دقت فيه كل
نواقيس العيد . ومضى نيكيتا واولاد بيوتر بيتروفيتش
حتى اصغرهم الى عنبر القرية في المرعى الناشف ،
فوجدوا هناك حشدا مبرقشا صاخبا . الصبيان
يلعبون الصقلولاق والكعاب ويتشقلبون ويمتطون
ظهور بعضهم البعض . وعلى الجذوع الملقاة عند
جدار العنبر جلست البنات في شالات مبرقشة منوعة
وفساتين قطنية جديدة منفوشة . وبيد كل منهن
منديل فيه بزر عباد الشمس او كشمش او بيض .
كن يمضغن ويضحكن وينظرن بمكر من حين اخر .

وعند الطرف ، على الجذوع ، قعد زير النساء
بيتكا ، ابن عمدة القرية ، متراخيا مادا
جزمته الفاخرة ، دون ان ينظر الى احد . كان يعزف
على الاكورديون برفق ، وفجأة مطه بشدة وانشد :
آه ، ياليل ، ياليل ! . .

وعند الجدار الاخر تحلقت جماعة تلعب الطرة
ياظ . في يد كل لاعب قطع نقدية متلاصقة ببعضها .
والذي يأتي دوره يضرب الارض بقطعة من خمسة
كوبيكات ويدوسها بنعله ويسحقها ثم يرفعها ويلقي
بها الى اعلى : طرة ام ياظ ؟

وهنا ، على الارض ، على اعشاب الموسم الفائت
التي انبجست من تحتها زهيرات العماء الصفراء ،
جلست بنات يلعبن لعبة الخبايا . يخبئن بيضتين في
كل كومة من العصافة ، نصف الاكوام خالية ، فاحزر
اين البيضتين ؟

اقترب نيكيتا من الاكوام واخرج بيضة من

جيبه ، لكن آنا بادرته من الخلف ، من فوق اذنه ، والله وحده يعلم من اين جاءت ، وقالت هامسة :

— لا تلعب معهن . فهن خداعات وسيغلبنك .

تطلعت آنا الى نيكيتا بعينين مستديرتين لا اثر للابتسام فيهما وتنشقت بانفها الصغير المنمش .

مضى نيكيتا الى الصبيان الذين يلعبون الكعاب : الا ان انا ظهرت هذه المرة ايضا من جهة لا يعلمها الا الله . وهمست له بطرف شفتيها الملتصقتين :

— لا تلعب معهم . يريدون ان يخدعوك . سمعت ذلك بنفسي .

اينما يتوجه نيكيتا كانت آنا تلاحقه كورقة لزجة وتهمس في اذنه . ولم يفهم السبب الذى يجعلها تفعل ذلك . فشعر بالخجل والامتعاض . لاحظ الصبيان يلتفتون اليه ويضحكون . وصاح به احدهم :

— تعلق بالبنت !

ذهب نيكيتا الى البركة الزرقاء الباردة . كان الثلج الوسخ الهش لا يزال قابعا تحت ضفتها الطينية الشديدة الانحدار . وعلى مسافة ابعد كانت غربان القيظ تنعق فوق اشجار الاجمة العالية العارية . . .

— اسمع — همست آنا مجددا من وراء ظهره — اعرف جحر فارة ، هل تريد ان تراه ؟

هز نيكيتا راسه غاضبا دون ان يلتفت . فهمست آنا من جديد :

— لن اخدعكَ ، فليعم الله عيني لو خدعتك . لماذا لا تريد ان ترى الفارة ؟

— لا اريد .

— هل تريد ان نقتلع زهر العماء ونمسح به عيوننا فلا نرى شيئا .

— لا اريد .

— الا تريد ان تلعب معي ؟

زمت آنا شفتيها . وتطلعت الى البركة والى مائها الازرق المترجرج ، وتلاعب النسيم من جانب بضفيرتها المشدودة ، واحمر طرف انفها المنمش المدبب وترقرقت الدموع في عينيها ، وطرفت جفونها . وفي الحال فهم نيكيتا كل شيء : كانت آنا تلاحقه طوال الصباح لانه حدث لها نفس ما حدث له مع ليليا .

اسرع نيكيتا الى حافة الضفة ، ولو لحقت به آنا هذه المرة لالقى بنفسه في البركة . كان في اقصى درجات الخجل والاضطراب . فلا يجوز ان تكون له مع احد ، ما عدا ليليا ، مثل تلك الكلمات الغريبة والنظرات الخاصة والابتسامات . واذا كانت له مع بنت اخرى فتلك هي الخيانة بعينها .

وقالت آنا :

— اخواني حذروك مني . ساشكوهم جميعا الى ماما . . . سالعب لوحدى . . . لست بحاجة الى احد . . . اعرف مكان شيء ممتع جدا . . .

استمع نيكيتا الى غمغمة آنا صامتا دون ان يلتفت . فقلبه لا يلين .

الربيع

لم يعد بالامكان التطلع الى الشمس . فاشعتها تنسكب من فوق شديدة منفوشة تغشى الابصار . وفي السماءالزرقاء تسبح غيوم كاكوام الثلج وتفوح من نسيم الربيع رائحة العشب الطرى واعشاش الطيور .

تفتحت براعم كبيرة على اشجار الحور الفواحة امام الدار . وراحت الدجاجات تئن في الشمس . وانبجست الاعشاب في تربة البستان الساخنة ابرا خضراء تنز من تحت الاوراق العفنة ، والمرج كله مرصع بنجيمات بيضاء وصفراء . ومن يوم لاخر يزداد عدد الطيور في البستان . الشحارير السوداء تتراكض بين الجذوع ، فهي ماهرة في المشى والجرى . وبين اغصان الزيزفون اضطربت صفارية كبيرة ذات ريش اخضر موشى بزغب ذهبي اصفر على الجناحين وراحت تغرد بصفير معسول .

ما ان تشرق الشمس حتى تستيقظ على كل السطوح وفي كل بيوت الاطيار زرازير تزغرد بمختلف الاصوات ، تارة كالبلابل وتارة كالقبرات ، واحيانا كالطيور الافريقية التي سمعت تغريدها اثناء الهجرة شتاء الى ماوراء البحار . كانت تلك الاصوات مجرد تقليد مضحك ناشز منفر . مرق نقار الخشب كمنديل رمادى عبر اشجار البتولا الشفافة وحط على جذع وتلفت ذات اليمين وذات الشمال وانتصب ريش قنبرته الحمراء .

وفي صباح الاحد المشمس ، عند البركة ، ناح

وقواق على الاشجار التي لم يجف الندى من اوراقها بعد . بارك بوقوقته الرقيقة الحزينة اليتيمة كل من يعيش في البستان ، ابتداء من الديدان :

— تنعموا بالحياة والحب والسعادة ، كو-كو ، اما انا فساعيش وحيدا ، كو-كو . . .

استمع البستان كله صامتا الى وقوقة الوقواق . واخذت الدعاسيق والاطيار والضفادع المندهشة دوما والجاثمة على بطونها ، بعضها على الممشى وبعضها على درجات الشرفة ، تحسب الوقوقة وسني العمر التي تتنبأ بها لها . وصمت الوقواق اخيرا ، وتعالت اهازيج البستان وحفيف الاوراق بمزيد من الفرح والابتهاج .

ذات مرة جلس نيكيتا على حافة الترعة قرب الطريق واتكأ على قبضته يراقب قطيع الخيل وهو يسير في المرعى الاخضر المنبسط على شاطىء البركة العليا . كانت الجياد الرصينة تدلى رؤوسها وتقضم العشب القصير على عجل وتذب بذيولها ، اما الافراس فكانت تتلفت بعيون ساهرة على الامهار التي تتراكض على قوائمها الطويلة الضعيفة السميكة عند الركب وتحوم خببا حول امهاتها خائفة من الابتعاد عنها . والواحد منها يضرب امه بين حين وآخر عند الضرع ويرضع اللبن رافعا ذيله ، فما احلى اللبن في هذا اليوم الربيعي !

الافراس الفتية تتملص من القطيع محمحمة مترافسة وتتراكض في المرعى مستشرسة هازة

ابوازها ، وتتمرغ احداها على الارض ، وتزمجر اخرى مكشرة عن اسنانها لتعض من يتعرض لها .

وعلى الطريق اجتازت السد عربة خفيفة تقل فاسيلي نيكيتيفيتش في معطف من قماش غليظ . الريح تدفع لحيته الى جانب وعيناه مرحتان شبه مغمضتين ، وعلى خده لطخة وحل . شد العنان عندما رأى نيكيتا وقال :

– اى حصان من هذا القطيع يعجبك ؟

– لماذا ؟

– بدون «لماذا» !

ضيق نيكيتا عينيه ، مثل ابيه ، واومأ باصبعه الى «كلوبيك» الاشقر القاتم ، فهو معجب به من زمان ، ومبعث اعجابه اساسا هو رقة طباعه والطيبة المدهشة التى تعلو سحنته وقال :

– هذا .

– طيب . طالما يعجبك فليكن .

اغمض فاسيلي نيكيتيفيتش احدى عينيه وتمطق لحصانه القوى وهز العنان فانطلق هذا يجر العربة بخفة على الطريق المطروق . شيع نيكيتا اباه بنظراته : يبدو ان وراء هذا الحديث ما وراءه .

رفع العلم

ايقظت شقشقة العصافير نيكيتا . فتح عينيه واخذ ينصت الى تغريد الصفارية المعسول الذى ينساب كانغام الناى . النافذة مفتوحة ، والغرفة

مفعمة بعطر الاعشاب والطراوة ، والاوراق المبللة تحجب ضوء الشمس .

اخترق النافذة نسيم فسقطت قطرات ندى على رفها . وتناهى صوت اركادى ايفانوفيتش من البستان :

– يا اميرال ، هل ستفتح عينيك ؟

– نهضت ! – صاح نيكيتا وظل راقدا برهة : فما اروع الانصات الى صوت الصفارية في الصباح ، وما اروع التطلع الى الاوراق المبللة عبر النافذة !

اليوم هو الحادى عشر من ايار ، عيد ميلاد نيكيتا . ولذا تقرر ان يرفعوا العلم بهذه المناسبة قرب البركة . ارتدى نيكيتا ثيابه على مهل – فلم يكن يريد للوقت ان يمضي بسرعة – لبس قميصا جديدا من الشيت الازرق المشجر وسروالا جديدا من قماش سميك لماع يتحمل التسلق على الاشجار مهما كانت اغصانها . ونظف اسنانه معجبا بسلوكه اشد الاعجاب .

في غرفة الطعام باقة كبيرة من سوسن الوادى على شرشف مكوى ناصع البياض . والغرفة كلها تعج برائحة تلك الزهور . جذبت ماما نيكيتا ، ناسية رتبة الاميرال التي يحملها ، وراحت تتطلع في وجهه كأنها لم تره منذ عام ، ثم قبلته . مسد بابا لحيته وحملق بعينيه وافاد بلهجة رسمية :

– اتشرف يا صاحب المعالي باحاطتكم علما بان التقويم الشمسي الجديد وحسابات علماء الفلك في العالم كله تؤكد بانكم بلغتم اليوم العاشرة من

العمر ، ولذا فانا مكلف بان اسلمكم هذه السكين الصغيرة مع اثنتي عشرة شفرة وهي تصلح تماما للاستفادة منها في الشؤون البحريـــة ، كما تصلح لتضييعها في اى وقت .

بعد الشاى توجهـوا الى البركة . راح فاسيلي نيكيتيفيتش يعزف مارش البحرية بشفتيه وقد انتفخ خده وظهر عليه نتوء بارز .

غرقت ماما في قهقهة مرحة لهذا المارش وهي تلملم اذيال فستانها كيلا تتبلل بالندى . وخلفها سار اركادى ايفانوفيتش حاملا مجذافين وكلا ًبا على كتفه .

وعلى ضفة البركـــة الهائلـــة المتعرجة ، قرب المسبح ، غرزت صارية العلم وفي اعلاها رمانـــة حديدية . وفي الماء ربض قارب انعكست صورته على السطح بشكل خطوط خضراء وحمراء . وفي ظل القارب تسبح مخلوقات البركة – خنافس المـاء واليرقات وافراخ الضفادع المذنبة ، وتتراكض على صفحة الماء عناكب بارجل ذات وسائد كالكلاكل . ومن الاعشاش على اشجار الصفصاف المعمرة تتطلع اثاث الغربان الى اسفل .

على علم الاميرال صورة ضفدعة حمراء تقف على قائمتيها الخلفيتين في حقـل اخضر . ربط فاسيلي نيكيتيفيتش العلم بالطرف الاسفل من الحبل وعزف بخده المنتفخ وسحب الحبل فتسلق العلم الصارية بسرعة وانفتح عندما بلغ رمانتها . وتطايرت غربان

القيظ من اعشاشهـــا ومن اغصان الصفصاف وهي تنعب مذعورة .

ركب نيكيتا القارب وجلس وراء مقوده ، بينما شرع اركـادى ايفانوفيتش يجذف . غطس القارب وتمايل وابتعد عن الضفة وانساب على صفحة البركة الصقيلة كالمرآة حيث انعكست اشجـــار الصفصاف والظلال الخضراء تحتهـــا والاطيار والغيوم . انزلق القارب بين السمـاء والارض . وظهرت فوق راس نيكيتـــا سحابة متراصة من البعوض واخذت تلاحق القارب . وصاح فاسيلي نيكيتيفيتش من الضفة :

– باقصى السرعة !

ولوحت مامـــا بيدها ضاحكـــة . واخذ اركادى ايفانوفيتش يجذف بكل مـــا اوتى من قوة . ومن البردى الاخضر الذى لا يزال واطئـا انطلقت بطتان تقوقئان مرتعبتين في تحليق منخفض دون ان تنفصلا عن سطح الماء .

– هيا ، الى المصادمة ! عاش اميرال الضفادع ، عاش . . ش ! – هتف فاسيلي نيكيتيفيتش .

جيلتوخين

جثم جيلتوخين في الشمس على بقعـة معشوشبة في الركن بين مدخل المنزل وجداره ، وراح يبص مرتعبا في نيكيتا السائر نحوه .

كان راس جيلتوخين مائـلا الى الوراء ومنقاره الموشى بالاصفر عن آخـره يستقر على حوصلتـــه

الناتئة . انتفض نافشا ريشه وسحب رجليه الى ما تحت بطنه . وعندما انحنى نيكيتا عليه فتح منقاره ليخيفه . اخذه نيكيتا بين راحتيه . زرزور لا يزال رمادى اللون ، حاول ، على ما يبدو ، ان يطير من عشه الا ان جناحيه غير المتمرنين لم يقويا على حمله ، فوقع وانزوى في الركن على اوراق الهندباء الملاصقة للارض .

انتفض قلب جيلتوخين من الهلع ، وفكر : «ما ان تخرج راسك حتى يلتهموك» . فهو نفسه يعرف جيدا كيف يلتهم الديدان والذباب واليرقات .

قربه الصبي من فمه ، فاسدل جيلتوخين الغشاوة على عينيه السوداوين وانتفض قلبه بشدة تحت الريش . الا ان نيكيتا اكتفى بان نفخ على رأسه وحمله الى المنزل . يبدو انه شبعان فلم يأكله الآن .

عندما رات الكسندرا ليونتيفنا الزرزور اخذته بين راحتيها ، مثلما اخذه نيكيتا ، ونفخت على رأسه وقالت :

— مسكين ، لا يزال صغيرا جدا . انظر الى منقاره ، كله اصفر . سنسميه جيلتوخين ، ابو المنقار الاصفر .

وضعوا الزرزور على رف النافذة المفتوحة المغطاة بالشاش عن آخرها من جهة البستان ولحد النصف من داخل الغرفة . قبع جيلتوخين في الركن فورا معلنا انه لن يسترخص حياته .

من وراء غلالة الشاش البيضاء في الخارج ، ينبعث

حفيف الاوراق وتتشاجر على الاغصان العصافير الوضيعة التي تتلصص عادة وتؤذى الاخرين . ومن الجهة الاخرى ، من وراء الغلالة ايضا ، تطلع نيكيتا الى جيلتوخين بعينين واسعتين متحركتين غامضتين ساحرتين . وفكر جيلتوخين : «هلكت ، والله ، هلكت» .

الا ان نيكيتا لم يأكله حتى المساء واكتفى بان القى له بين الغلالتين ذبابا وديدانا . وفكر جيلتوخين : «يسمنني» — والقى نظرة شزراء على دودة حمراء بلا عينين تتلوى كالافعى امام منقاره . — «لن آكلها ، فهي دودة اصطناعية . كل هذا خداع وتضليل» .

هبطت الشمس وراء الاشجار . والضوء الرمادى الناعس يشد الاجفان . غرز جيلتوخين مخالبه برف النافذة وتشبث به بشدة . لم تعد عيناه تريان شيئا . صمتت الاطيار في البستان . وفاح شذى ناعس لذيذ من الاعشاب الرطبة . وغاص الراس في اعماق الريش . انتفض جيلتوخين غاضبا وانتصب ريشه تحوطا للطوارىء ، وترنح قليلا الى الامام ثم الى الخلف وغفا .

ايقظته العصافير المشاكسة . كانت تتشاجر على غصن الليلاك . الاوراق البليلة معلقة في الضوء الرمادى . والزرازير تزقزق من بعيد باصوات رنانة مرحة لذيذة . «اكاد أموت جوعا . اشعر بالغثيان من شدة الجوع» — فكر جيلتوخين ولمح الدودة التي انغرزت حتى النصف في شرخ رف النافذة ، وقفز

نحوها ونقرها من ذنبها وسحبها ثم ابتلعها : «لا بأس بها ، دودة لذيذة» .

غدا الضوء اكثر زرقة . وغردت الاطيار . شعاع الشمس الدافئ الساطع ينساب على جيلتوخين من خلال الاوراق . وفكر : «سأعيش فترة اخرى» . وقفز والتقط ذبابة وابتلعها .

دوى وقع اقدام . جاء نيكيتا . دس يده الهائلة من فوق الغلالة . فتح اصابعه ونثر على رف النافذة ذبابا وديدانا . انزوى جيلتوخين في الركن ورفع جناحيه وحملق في اليد بهلع شديد ، الا انها ظلت معلقة فوق رأسه ثم انسحبت الى ما وراء الغلالة . وتطلعت اليه من جديد عينان ساحرتان جذابتان لامعتان .

عندما انصرف نيكيتا استعاد جيلتوخين انفاسه واخذ يفكر : «لم يأكلني وكان بوسعه ان يفعل . يعني انه ليس من اكلة لحوم الطير . لا داعي للخوف منه اذن» .

اكل جيلتوخين حتى شبع ونظف ريشه بمنقاره واخذ يقفز على امتداد الرف ويتطلع الى العصافير .

استقرت نظرته على عصفور عجوز بريش منتوف على القفا وراح يتحرش به ويدير رأسه ذات اليمين وذات الشمال ويصفر : فيويوت ، شيليك ، شيليك فيويوت . اشتاط العصفور غضبا وانتصب ريشه وهجم على جيلتوخين بمنقار مفتوح ، لكن غلالة الشاش اعاقته . «ماذا ؟ هل بلغتني ؟ تلك هي

القضية اذن» — فكر جيلتوخين وراح يتمشى على الرف متبخترا .

ثم جاء نيكيتا من جديد . دس يده فارغة هذه المرة ، وقربها كثيرا من جيلتوخين ، فقفز هذا ونقره في اصبعه بكل قواه ، ونط مبتعدا واستعد للعراك ، الا ان نيكيتا فغر فاه وصاح : هاـهاـها .

مر النهار على هذا المنوال . لم يكن هناك ما يثير الخوف ، ثم ان الطعام جيد ، ولكن . . . قاتل الله الملل . لم ينتظر جيلتوخين حلول الظلام فغفا ونام ليلته بارتياح .

وفي الصباح تناول طعامه واخذ يتفحص الغلالة وفي نيته ان يفر منها . جاب النافذة كلها فلم يجد شقوقا في اى مكان . وعند ذاك نط الى الصحن واخذ يشرب الماء . ارتشف قطرات بمنقاره ومال رأسه الى الاعلى وراح يبتلع كرية مائية تدحرجت في حنجرته .

كان النهار طويلا . جلب نيكيتا ديدانا ونظف رف النافذة بريشة اوزة . وبعد ذلك خطر ببال العصفور الاصلع ان يتهارش مع الزاغ فدفعه هذا الاخير دفعة جعلته يغوص كالحصاة بين الاوراق ويبص من هناك متحفزا منتصب الريش .

وحط عقعق لسبب ما قرب النافذة ونعق مضطربا وهز ذيله دون ان يفعل شيئا يستحق الذكر .

وغرد ابو الحناء بصوت رقيق وتغنى امدا طويلا بضوء الشمس الساخن والبرسيم العسلي ، حتى شعر جيلتوخين بالحزن وبحشرجة في حنجرته . كان

يريد ان يغرد ايضا ، ولكن اين ؟ هـل يعقل ان
يغرد في محبسه على النافذة ؟ !

جاب الرف من جديد ورای حیوانا مرعبا يتسلل
خلسة على قوائم قصيرة ناعمـة وكأنه يزحف على
بطنه فوق الارضية . رأسه مستدير بشوارب شحيحة
منتصبة ، وعيناه الخضروان ببؤبؤيهما الضيقين
تتقدان بحقد شيطاني . اقعى جيلتوخين بلا حراك .

قفز القط فاسيا وانشب مخالبه الطويلة في رف
النافذة وحدق عبر الغلالة في جيلتوخين وفتح
فمه . . . يا الهي . . . في فمه انياب اطول من منقار
جيلتوخين . . .ضرب القط الغلالة بقائمته القصيرة
فمزقها . . . هبط قلب جيلتوخين وتهدل
جناحاه . . . الا ان نيكيتا ظهر في تلك اللحظة ، في
الوقت المناسب ، وامسك بالقط من جلده المرتخي
وقذف به الى الباب . ولول فاسيا مغتاظا وفر يجرجر
ذيله .

وفكر جيلتوخين بعد هذه الحادثة : «نيكيتا اقوى
الوحوش» ، وعندما اقترب منه نيكيتا ثانية سمح له
بان يمسد رأسه ، مع انه اقعى على ذيله من شدة
هلعه .

وانتهى هذا النهار ايضا . وفي الصباح التالي
راح جيلتوخين يتفقد المكان في غاية الابتهاج ولمح
في الحال الثغرة التي خلفتها مخالب القط في الغلالة .
دس جيلتوخين رأسه فيها وتطلع ذات اليمين وذات
الشمال وخرج قافزا الى الهواء الشفاف الجارى

ورفرف بجناحيه الصغيرين بفرفطة خفيفة فطار فوق
الارضية مباشرة .

عند الباب حلق الى اعلى فرأى في الغرفة الاخرى ،
حول المائدة المستديرة ، اربعة اشخاص يأكلون ،
كانوا يأخذون قطعا كبيرة بايديهم ويدسونها في
افواههم . ادار الاربعة رؤوسهم وتطلعوا الى
جيلتوخين بلا حراك . ففهم ضرورة التوقف في الهواء
والعودة من حيث جاء ، لكنه لم يتمكن من القيام
بهذا الدوران الصعب في تحليقه السريع فوقع على
جناحه وانقلب وجثم على المائدة بين صحن المربى
والسكرية . . . وفي تلك اللحظة رأى نيكيتا امامه .
فقفز على حافة الصحن دون تردد ، ومنها الى كتف
نيكيتا وربض عليه منتفشا ، بل واسدل الغشاوة
على عينيه حتى النصف .

وبعد ان استراح على كتف نيكيتا حلق وراح
يفرفر تحت السقف واصطاد ذبابة ، وحط على اصيص
الفيكوس في الركن وحلق حول الثريا ثم شعر بالجوع
فعاد الى نافذته وكانت تنتظره عليها ديدان طازجة .

قبيل المساء وضع نيكيتا على رف النافذة بيتا
خشبيا له كوتان وباب بدكة . اعجب جيلتوخين
بالعتمة داخل البيت فقفز اليه وخشخش فيه ثم غفا .

في تلك الليلة كان القط فاسيا ، المحبوس في
المستودع عقابا له على محاولته الغادرة ، يزعق
بمواء اجش وقد رفض حتى صيد الفئران . ربض
وراء الباب وراح يموء بشكل اثار امتعاضه هو نفسه .

هكذا صار جيلتوخين ثالث كائن حي — مع القط

والقنفذ – يعيش في المنزل بين اهله . كان يتحلى بقدر كبير من الاعتماد على النفس ، وكان فطينا واسع الحيلة . اعجبه كلام البشر ، وعندما كانوا يجلسون الى المائدة تراه ينصت اليهم مطأطأ الرأس ويرتل مكررا : «ساشا» وكانت الكسندرا ليونتيفنا تؤكد بانه يحني رأسه لها بالذات وينطق بمقطع من اسمها . وحالما تراه تخاطبه دوما : «مرحبا ، مرحبا يا جيلتوخين الهمام» . وعند ذاك يقفز جيلتوخين في الحال الى ذيل فستانها الطويل ويتنقل عليه وراءها بمنتهى الارتياح .

عاش على هذا المنوال حتى الخريف ، فترعرع واكتسى بريش اسود لامع كاجنحة الغربان وتعلم النطق بالروسية جيدا . كان يقضي النهار كله تقريبا في البستان ويعود مع الغسق حتما الى بيته في النافذة .

وفي اغسطس اغوته الزرازير البرية فاخذ يتردد على سربها وعلمته الطيران ، وعندما بدأت اوراق البستان تتساقط انطلق جيلتوخين عند بزوغ الفجر مع الطيور المهاجرة الى ماوراء البحار ، الى افريقيا .

كلوبيك

انجزت الاعمال الربيعية في الحقول وحرثت التربة حول اشجار الفاكهة في البستان وسقيت ، فحل وقت فراغ حتى موسم حش الاعشاب حتى عيد القديس بطرس . اقتادوا خيول العمل الى القطيع فراحت ترعى

العشب في المروج الريانة وراء البركة ، حيث يخيم كل صباح ضباب مائل الى الزرقة ، فتبدو اشجار الصفصاف المتباعدة الضخمة وكأنما نبتت في الهواء القاتم وظلت معلقة فوق الارض .

كان ميشكا كورياشونوك ، مساعد سائس قطيع الخيل ، يجلس على سرج قوزاقي مرتفع ويدس قدميه الحافيتين في الركاب ويفرفط بمرفقيه منحنيا .

انطلق في المرج الاخضر يلاحق فرسا انفصلت عن القطيع وهو يصيح : «عودى» ! ويلوح بالسوط فتنبعث منه طقطقة كطلقات المسدس ، وبعد ذلك ينزل من حصانه المفكوك اللجام فيتركه يقضم الاعشاب مجلجلا بلجامه ، ويجلس على حافة الساقية ليبرى عودا ، او يرفع اطراف سرواله ويلفها في اعلى ركبتيه ويخوض في البركة ويجتث من تحت الماء الدافىء بصيلات البردى وجذوره الطويلة السوداء كالافاعي : البصيلات حامضة الطعم بعض الشيء وهي تصر في الفم ، لكن الجذور حلوة ولينة كالعجين . واذا التهم الشخص كثيرا منها يشعر بمغص في البطن .

كان نيكيتا يقضي الايام كلها مع ميشكا كورياشونوك وراء البركة ويتعلم الفروسية على يده .

لم يكن الصعود الى السرج صعبا ، فالحصان العجوز الرمادى المرقط ببقع حنطاوية يقف وادعا وينش ذبابة كبيرة عن بطنه بقائمته الخلفية ، لكن نيكيتا عندما يجلس على السرج ويمسك بالعنان وينطلق بالحصان خببا لا يتمكن من الاستقرار على

ظهره ويميل بشدة تارة الى الجنب الايمن وتارة الى الجنب الايسر . وعندما يتوقف الحصان فجأة بعد ان يخطو زهاء ثلاثين خطوة ويدلي بوزه بشفته الغليظة ليقضم العشب ، يتشبث نيكيتـــا متشنجا بمقدمة السرج ، بل وينزلق احيانا من فوق رقبة الحصان ويقع امامه ، الا ان هذا الاخير ما كان يعبأ بذلك .

ويقول له ميشكا :

– لا تخف ، فالسقوط لا يؤلم ، ولكن لا تمد رقبتك ولا تسقط على يديك ، تدحرج كالشليلة او الخنروف . ساريك كيف اركب الفرس بلا سرج ولا لجام وانطلق بها .

جرى ميشكا نحو افراس فتية غير مروضة بعد ومد لها يده مناديا :

– تعالي ، تعالي ، هاك قمحا . . .

اقتربت منه «نجمة» ، وهي فرس مدللة نحيفة القوائم كميت مرقطة كالتفاح ، شنفت اذنيها ومدت شفتيها المخمليتين بحثا عن القمح الذى تحبه كثيرا . اخذ ميشكا يحك رقبتها . هزت رأسها الرصين دلالة الارتياح ، ولكي تبعث مثـل هذا الارتياح في نفس ميشكا داعبت كتفه باسنانها .

مسدها ميشكا ومرر راحته على امتداد ظهرهـا الحريرى فخطت الى الامام مرتعبة ، وعند ذاك تشبث بعرفتها ونط وامتطاها . جفلت «نجمة» مذهولـة غاضبة ، نفضت رأسهــا بشدة وترافست واقعت ورفعت قائمتيها الاماميتين الى اعلى ثم انطلقت باقصى سرعتها على امتداد القطيع .

التصق ميشكا بظهرها كالقرادة وعند ذاك توقفت فجأة عن العدو السريع ورفعت قائمتيها الخلفيتين . فسقط ميشكا على العشب وتدحرج كالكرة . عاد الى نيكيتا وهو يعرج قليلا ويمسح الدم من خدش على خده وقال :

– رمتنى هذه الفرس اللعينــــة على الحطب ، ولكنك لا تستطيع ان تركب مثلى ، فانت سمين .

صمت نيكيتا وفكر : «ساتعلم الركوب افضل من ميشكا حتى لو تحطم رأسي» .

اثناء الغداء حكى قصة «نجمة» فقلقت مامـــا ، وقالت له :

– ارجوك ، لا تقترب من الخيول غير المروضة ، هل انت سامع ؟ – والقت نظرة متوسلة على بابا – فاسيلي ، الا تؤيدني انت على الاقل ؟ . . بالنتيجة ستنكسر يده او رجله . . .

– عظيـــم ! – اجاب فاسيلي نيكيتيفيتش – امنعيه من ركوب الخيل ومن المشي ايضا – فخلاله يمكن ان يهشم انفه – ضعيه في علبه وغلفيه بالقطن وارسليه الى المتحف . . .

– كنت اتوقـــع منك هذا الجواب – قالت مامـــا – واعرف اني لن ارى الهـدوء ساعة ، هذا الصيف . . .

– افهمى يا الكسندرا ، الصبي في العاشرة من العمر .

– اوه ، لا فرق . . .

– اعذريني ، ارجوك ، فانا لا اريد له ان ينمو عبيطا تعيسا .

– ولكن ذلك لا يستوجب ان نهديه كلوبيك فورا .

– حتى الطفل الرضيع يستطيع ان يركب كلوبيك . هذا اولا .

– انه منعل .

– كلا ، امرتهم ان ينزعوا حدواته .

– اوه ، افعلوا اذن كل ما تريدون ، اركبوا الخيول الجامحة ، كسروا جماجمكم – ترقرقت الدموع في عيني ماما ، فنهضت من وراء المائدة ومضت مسرعة الى غرفة النوم .

مسد فاسيلي نيكيتيفيتش جانبي لحيته على عجل والقى بالفوطة نترا ولحق بماما . اما اركادى ايفانوفيتش الذى جلس طول الوقت وكأن هذا الحديث لا يعنيه فقد القى نظرة على نيكيتا وعدل نظارته وهمس :

– انت امام مشكلة ، ياخي .

– ارجوك ، يا اركادى ايفانوفيتش ، قل لماما انني لن اقع . . . والله سـ . . . .

– الصبر والتحمل وقوة الشكيمة – اصطاد اركادى ايفانوفيتش بمهارة ذبابة بذلت جهدا عنيدا لتحط على انفه – هذه الخصال الثلاث ضرورية كذلك لاجادة ركوب الخيل . . .

آنذاك جرى في غرفة النوم حوار يقرب من الشجار . فقد دوى صوت الاب : «الصبيان في عمره

يعتمدون على انفسهم كليا . . .» – «اين ؟ اين يعتمدون على انفسهم ؟» سألت الام بصوت يائس . . . «في امريكا . . .» – «غير صحيح . . .» – «لكنني اقول لك ان الصبي في العاشرة من العمر يعتمد على نفسه في امريكا مثلي انا» – «يالهي ، لكننا لسنا في امريكا . . .» .

استمر الكلام عن الاعتماد على النفس اسبوعا كاملا . وكانت ماما على وشك الاستسلام . صارت تلقى نظرات حزينة على نيكيتا وكأنه شخص هالك ، ولا امل لها الا بان يصون رأسه على الاقل .

اما نيكيتا فكان طول الاسبوع يتعلم ركوب الخيل بجد واجتهاد وراء البركة . وراح ميشكا يشجعه ويستحسن جهوده ، وعرض امامه قفزة باسلة حقا ، هي ركوب الفرس من الخلف اثناء عدوها ، كما ينط الاولاد في لعبة القفزة وقال له :

– لن ترفسك ابدا . الوقت لا يكفيها ، فعندما ترفسك تكون انت قد قفزت على ظهرها .

واخيرا ، اثناء شاى الصباح في الشرفة حيث يلقى اللبلاب ظلالا متحركة على السفرة والصحون والوجوه استدعت ماما نيكيتا واجلسته قبالتها وقالت بصوت حزين :

– انت تعرف بانك في العاشرة الان ويجب ان تعتمد على نفسك ، فالصبيان في مثل عمرك يعتمدون ، يعتمدون . . . – وارتعش صوتها وكادت تلقى على بابا نظرة شزراء – باختصار ، بابا محق ، فانت لم تعد طفلا – غض الاب بصره واخذ ينقر باصابعه

على طرف المائدة . غدا سنزور شيمبولاتوفا ، واذا تريد يمكنك ان تذهب معنا على ظهر كلوبيك . . . لكني ارجوك ، ارجوك . . .

— ماما ، حبيبتي ، كلام شرف ، والله لن يحدث لي شيء — وقبل نيكيتا عيني امه وخدها وذقنها ويديها اللتين تفوح منهما رائحة الثمار .

وبعد غداء مبكر في اليوم التالي اشار فاسيلي نيكيتيفيتش على نيكيتا ان يأخذ السرج — وهو سرج انجليزى من الشمواه الرمادية اهداه له بمناسبة اعياد الميلاد وقال له وهو يسير على العشب باتجاه الاسطبلات :

— عليك ان تتعلم كيف تغسل الحصان وتلجمه وتسرجه وكيف تقوده من لجامه بعد العدو حتى يستعيد انفاسه . فالحصان يجب ان يكون نظيفا تحت رعاية دائمة ، وعند ذاك تعتبر فارسا جيدا .

بوابة مستودع العربات مفتوحة على مصراعيها . الحوذى سرغي ايفانوفيتش منهمك في ربط ثلاثة جياد الى العربة . كان يرتدى جاكيتا بلا ردنين وقميصا احمر قانيا وعمرة بسيطة ، فهو لا يرتدى قبعته المزينة بالريش الا عندما يجلس على مقعد القيادة . عدل طوق مؤخرة الفرس الجانبية وانهال باللوم على مساعدة ارتيوم .

— لماذا تدس السير تحت صدرها يا جلف ؟ فهذا الطقم لرحلة بعيدة . اترك حبل السمط ولا تمسه . الافضل لو فرشت للقطة في السلة .

— انا لا املك فرسا .

— البنات لا يتزوجن منك لانك جلف . ناولني الاعنة الجديدة .

كان الحصان الاوسط «اللورد بايرون» المربوط بالسير في البوابة العريضة يقضم اللجام ويضرب الارضية الخشبية بقائمته ويعض كتف سرغي ايفانوفيتش دون ان يؤلمه . فهو يعدل له شعر ناصيته من تحت سيور اللجام . وفاحت في مستودع العربات رائحة الجلود وعرق الخيل الصحى ونفح الحمام . وعندما اعدت العربة سأل سرغي ايفانوفيتش نيكيتا مبتسما :

— هل تريد ان تسرج الحصان بنفسك ؟

اخرجوا كلوبيك من الاسطبل ، وتطلع اليه نيكيتا منفعلا .

كلوبيك حصان اشقر مخصي مكتنز متين ، ونظيف جدا ، بقوائم ليست طويلة وكواحل بيضاء وذيل كثيف قاتم وعفرة قاتمة ايضا . شعر ناصيته يتدلى على عينيه ، فيهز رأسه وينظر بمرح من بين ذلك الشعر . وعلى طول ظهره يمتد سير اسود .

— حصان جيد — قال سرغي ايفانوفيتش وقدم له دلوا من الماء . شرب كلوبيك ورفع رأسه فانساب الماء من شفتيه الرماديتين .

اخذ نيكيتا اللجام وادخل حديده في فم الحصان من الجانب وشده كما علموه . امسك كلوبيك الحديد باسنانه . ثم وضع نيكيتا الحلس والجل الرمادى المطرز بطغراء على ظهره وفوقهما السرج واخذ يشد سيوره . ولم يكن ذلك عملا يسيرا .

– ينفخ بطنه – قال سرغي ايفانوفيتش – يحتال علينا – وطرق براحة كفه على بطن كلوبيك فزفر الحصان الهواء ، وشد نيكيتا السيور .

جاء فاسيلي نيكيتيفيتش وبدأ يصدر اوامره :

– خذ العنان باليد اليسرى وتقدم امام الحصان من الجنب الايسر . اركب . امسكه بباطن ساقيك . لا تدس قدميك عميقا في الركاب ، لا تلو اطراف الاصابع .

ركب نيكيتا الحصان وتحسس بقدمه المرتجفة الركاب الايمن المنفلت ودسها فيه ونغز الحصان فانطلق هذا خببا في خط مستقيم نحو الاسطبل .

وصاح فاسيلي نيكيتيفيتش :

– قف ، قف ! استعمل السير الايمن يا مغفل ! . .

توقف الحصان في ظل الاسطبل . قفز نيكيتا محموما من شدة الخجل وامسك بسير الحصان الخداع وقاده نحو البوابة وهمس له :

– خنزير ابله ، ملعون ! . .

هز كلوبيك ناصيته مرحا . اقترب سرغي ايفانوفيتش وقال :

– اركب وساقوده . انا . فهو خداع لا يحب الخدمة . يريد ان يقف في الظل البارد .

واخيرا الجموا الحصان كما يجب وراح نيكيتا يتخطر على ظهره برماحة كعدو الكلاب على امتداد حظائر الماشية .

ارتدى سرغي ايفانوفيتش قبعته المزينة بالريش

وقفازه الذى نثر عليه الطحين وصعد الى مقعد القيادة وصاح على ارتيوم بلهجة صارمة :

– اطلقه !

افلت ارتيوم لجام «اللورد بايرون» وقفز الى جانب ، فانطلقت الجياد الثلاثة من مستودع العربات وهي تطقطق على خشب الارضية ، ووراءها العربة الصقيلة التي يلمع طلاؤها ونحاسها ، وتتطاير نتف طرية من تحت سنابك حصانيها الجانبيين وينساب رنين متناسق من اجراسها . رسمت الجياد نصف دائرة في الحوش المعشوشب وتوقفت امام المنزل .

نزلت الكسندرا ليونتيفنا من مدرج المدخل في فستان ابيض وفتحت مظلتها البيضاء والقت نظرة قلقة على نيكيتا الذى يتخطر ليس بعيدا من هناك . ساعد بابا ماما على ركوب العربة ثم صعد اليها .

– هيا !

رفع سرغي ايفانوفيتش الاعنة قليلا . واشرأبت اعناق الجياد الكميت الرائعة بفارغ الصبر ثم انطلقت ساحبة العربة بخفة ، وتهادى وقع سنابكها على القنطرة . تحول الحصانان الجانبيان الى رماحة متسارعة ، اما «اللورد بايرون» الذى يعرف بان ذلك كله مجرد دعابة فقد راح يهز اذنيه . كانت ماما تتلفت طول الوقت ، لان نيكيتا انحنى والقى العنان على الغارب ليقترب من العربة باقصى السرعة .

كان يريد ان يتجاوزها بهمة وبسالة ، الا ان كلوبيك لم يكن موافقا على رأيه . وعندما بلغ العربة

ووازاما عاد الى الطريق وجرى بخبب رتيب في اثر العجلات ، وسط عاصفة من الغبار . وما من قوة تستطيع ان توقفه او تحيد به الى جانب . فهو يعتبر ذلك كله امرا لا داعي له واذا كان لا بد من الجرى فليكن على الطريق ، ولا مبرر لجهد يهدر عبثا .

تلفتت ماما فرات نيكيتا يهتز بشفتين مضغوطتين ويتطلع متوترا الى ما بين اذني الحصان . شعر بالغثيان من الغبار ، وبارتجاج في البطن من عدو الحصان .

– الا تجلس في العربة ؟

هز نيكيتا راسه بعناد . فضحك الاب وقال للحوذى :

– اسرع قليلا !

شنف «اللورد بايرون» اذنيه واخذ يقذف قوائمة الحديدية . وحلق الحصانان الجانبيان منحنيين فوق العشب . تحول كلوبيك الى الجرى رماحة ، الا ان العربة كانت تبتعد ، فاشتاط غضبا وجرى بكل ما اوتى من قوة .

تلاشى الغثيان الناجم عن الخبب الرتيب وكان نيكيتا مستقرا بيسر وثبات والريح تصفر في اذنيه . وعلى جانب الطريق تنداح الى الوراء امواج السنابل الخضراء ، والقبرات تتناغى باصوات بسيطة ولا ترى في ضوء الشمس . . كان ذلك يبعث الارتياح كما في كتب فينيمور كوبر تقريبا .

تباطا سير العربة فلحق بها نيكيتا لاهثا والقى على ابيه نظرة فرحة .

– هل انت مسرور يا نيكيتا ؟

– جدا . . . كلوبيك حصان رائع . . .

الاستحمام

في الصباح الباكر توجه فاسيلي نيكيتيفيتش واركادى ايفانوفيتش ونيكيتا ، سائرين الواحد اثر الاخر على ممشى في العشب الذى غدا رماديا من كثرة الندى . وقد عزموا على الاستحمام في البركة .

ضباب الصباح لا يزال يلفع خمائل البستان الكثيفة . وفي الفسحة فوق الازاهير الطويلة العسلية الصفراء وفوق ازهار البرسيم البيضاء تزاحمت الفراشات كاوراق خفيفة وحومت نحلة مهمومة مشغولة البال . وتناهى من احدى خمائل البستان هديل يمامة اغمضت عينيها ونفخت صدرها وراحت تنوح بحزن لذيذ مؤكدة ان كل شيء سيبقى على حاله دوما ، يمر ويعود من جديد بتلك الحال .

سار فاسيلي نيكيتيفيتش على القنطرة الطويلة التي تطبطب فوق الماء ودخل الحمام الخشبي المكشوف . خلع ملابسه على المصطبة في الظل وربت على صدره الابيض المكسو بالشعر وعلى جنبيه الاملسين وضيق جفونه في لمع الماء الذى يغشى الابصار وقال :

– رائع ! رائع جدا !

بدا وجهه الملوح بلحيته اللماعة وكانما ركب تركيبا على بدنه الابيض ، فهو يتمتع بصحة موفورة

تكاد تفوح كعطر طيب للغاية . وعندما تحط ذبابة على ساقه او كتفه ينهال عليها بضربة مدوية من باطن يده تخلف على جسمه بقعة وردية . برد بدنه بعض الشيء فأخذ قطعة من الصابون الفواح الذى يعوم في الماء لخفته ، وسار بحذر ، على السلم الزلق لما علق به من اشنات خضراء ، الى الحمام الذى لا يتجاوز عمق مائه صدره ، واخذ يصوبن رأسه ولحيته برغو غزير وهو يبشبش ويقول :

— رائع ! رائع جدا !

فوق الحمام ، في ضوء الشمس الازرق ، حوم البرغش ، وجاء يعسوب يرفرف بجناحيه ويتطلع بعينين زمرديتين جاحظتين الى رأس فاسيلي نيكيتيفيتش الملفع برغو الصابون ثم انطلق بتحليق مائل . وفي تلك الاثناء كان اركادى ايفانوفيتش يخلع ثيابه على عجل وبشيء من الاستحياء ، وقد ضغط الاصابع الطويلة لرجليه المعقوفتين قليلا ، ثم فتح الباب الخارجي للحمام وتطلع ذات اليمين وذات الشمال ليتأكد مما اذا كان هناك من ينظر اليه من الضفة ، وقال بصوت اجش : «طيب ، رائع» وارتمى على بطنه في البركة .

انفرج الماء وطرطش وفرت غربان القيظ من الصفصاف مذعورة ، بينما راح اركادى ايفانوفيتش يسبح كالفراشة وبدنه النحيل الاشقر يتلوى تحت الماء المائل الى الزرقة .

عندما بلغ المعلم وسط البركة اخذ يتشقلب

ويغوص وينفث الرذاذ مبقبقا كعفريت الماء : «بررر» . . .

جلس نيكيتا مقرفصا على المصطبة اللزجة ينتظر حتى ينتهى بابا من الاستحمام . وضع فاسيلي نيكيتيفيتش الصابونة والليفة على درجة السلم وسد اذنيه باصبعيه وغاص في الماء ثلاث مرات . تلاصق شعره المبلل وتدلت لحيته كاسفين مدبب ، وغدا مظهره تعيسا .

— فلنسبح الآن — قال وصعد الى القنطرة خارج الحمام ثم ارتمى ثقيلا في البركة واخذ يسبح على طريقة الضفادع فيحرك يديه وقدميه ببطء في الماء الصافي .

قفز نيكيتا بشقلبة الى البركة ولحق بابيه واخذ يسبح جنبه منتظرا ان يثنى عليه . فقد تعلم نيكيتا خلال هذا الصيف السباحة بمهارة عندما كان يستحم مع الصبيان في نهر تشاغرا . وصار يجيد العوم على الجنب وعلى الظهر وبهيئة الوقوف والانحناء تحت الماء . وقال الاب هامسا :

— تعال نغرق اركادى .

كانا يفترقان عادة ويسبحان من الجهتين نحو اركادى ايفانوفيتش الذى لا يلاحظ هذا التطويق لقصر نظره . وحالما يقتربان منه يهرعان اليه بطبطبة سريعة . فيزمجر ويحار في امره وينط من الماء حتى الخصر ثم يغوص ويحاولان الامساك برجليه ، فالدغدغة هي اكثر ما يخشاه ، الا ان الامساك به ليس سهلا . فهو يتملص في الغالب .

وعندما يعود فاسيلي نيكيتيفيتش ونيكيتا الى الحمام يجدان اركادى ايفانوفيتش جالسا على المصطبة مرتديا لباسه الداخلي ونظارته ويقول بقهقهة مهينة :

– يجب تعلم السباحة يا سادة .

حينما يعودون من البركة تستقبلهم الكسندرا ليونتيفنا عادة في قلنسوة خفيفة بيضاء ورداء وبرى وتقول باسمة بجفون مطبقة من الشمس :

– الشاى جاهز في البستان ، تحت الزيزفون . اشربوا ولا تنتظروني ، والا ستبرد الفطائر .

عقرب البارومتر

منذ عدة ايام ينقر فاسيلي نيكيتيفيتش باظافره على البارومتر ويلعن الشيطان همسا ، فان عقرب البارومتر يشير الى : «جفاف ، جفاف شديد» . طوال اسبوعين لم تسقط قطرة مطر ، في حين اقترب وقت نضوج القمح . تشققت التربة وبهتت السماء من شدة القيظ ، وعلى الافق البعيد خيمت غلالة كغبار اثارته القطعان . المروج احرقتها الشمس ، والتوت اوراق الاشجار وغدت قاتمة وظل عقرب البارومتر يقول بعناد : «جفاف ، جفاف شديد» مهما نقر فاسيلي نيكيتيفيتش على زجاجه .

لم يعد اهل البيت يمزحون كالسابق عندما يلتئمون حول المائدة . مسحة من القلق وانشغال البال تعلو وجه الاب ووجه الام . اركادى ايفانوفيتش

صامت هو الاخر ، يحدق في الصحن ويعدل نظارته بين الفينة والفينة محاولا الا يخفي تأوهة يحبسها بصعوبة . لكن لديه سببا آخر . فان المعلمة فاسيا نيلوفنا التي وعدته بالمجيء من المدينة لزيارته في سوسنوفكا كتبت له : «انا مقيدة بسرير امي المريضة» وقالت بانها تأمل في رؤية اركادى ايفانوفيتش في سامارا ليس قبل حلول الخريف .

تصور نيكيتا هذه المعلمة امرأة كئيبة طويلة القامة في بلوزة رمادية يتدلى منها سير ساعة وقد ربطت احدى قدميها بقيود الى قائمة السرير . في تلك الايام الخانقة الكالحة الملفعة بغلالة الجفاف تشتد الكآبة خصوصا فتطغى حتى على صورة معلمة المدينة الجالسة قرب السرير الحديدى عند الجدار العارى .

اثناء الغداء قال فاسيلي نيكيتيفيتش وهو ينقر باصابعه لحنا مرحا على حافة الصحن :

– سيهلك المحصول اذا لم يسقط المطر غدا .

اطرقت ماما برأسها في الحال . وتناهى من النافذة الضخمة طنين ذبابة تهذى في الاعلى عند الزجاج المزدوج شبه الدائرى الذى لم تمسه يد التنظيف ابدا ، فغطاه نسيج العنكبوت . باب الشرفة الزجاجي مغلق منعا لتسرب قيظ البستان . وتمتمت ماما :

– هل سيحل القحط هذا العام ايضا ؟ يا الهي ، يا للفظاعة !

– ذلك اشبه بانتظار الاعدام . – اقترب بابا

من النافذة ورفع بصره الى السماء ودس يديه في جيبي بنطاله السميك – يوم آخر من هذا الحر اللعين وتعم المجاعة في الشتاء القادم ويتفشى التيفوئيد وتهلك الماشية ويموت الاطفال . . شيء مهول .

انتهى الغداء في صمت . مضى بابا لينام . واستدعيت ماما الى المطبخ لتحسب البياضات ، اما اركادى ايفانوفيتش فقد ذهب للتنزه وحيدا في السهب الساخن ، ليثقل على نفسه فوق كل المصائب والاحزان .

في هدوء الظهيرة المشؤوم الذى لا يعكره سوى طنين الذباب بدا كل شيء في الغرف كانه ملفع بالغبار . ولا يدرى نيكيتا ماذا يفعل والى اين يتوجه . مضى الى مدخل المنزل . الحوش الواسع خال هادىء . كل شيء فيه غفا وسكن في ضوء الشمس الناصع الذى يغشى الابصار رغم غلالة القيظ الكالحة . ويدوى طنين في الرأس من السكون المطبق والحر الشديد .

دلف نيكيتا الى البستان ، لكنه لم يجد هناك حركة او حياة . طنطنت نحلة ناعسة . الاوراق المتربة معلقة بلا حراك كما لو صنعت من الصفيح . وفي البركة انغرز القارب في الماء الكابي تعلوه بقع بيضاء من ذرق الغربان .

عاد نيكيتا يجرجر قدميه الى المنزل واستلقى على اريكة تفوح منها رائحة الفئران . في وسط الغرفة تنتصب مائدة الطعام ، عارية ، على عدد كبير

من القوائم النحيفة المنفرة . ما من شيء في العالم اكثر اثارة للملل من هذه المائدة . وفي المطبخ البعيد كانت الطباخة تغني بصوت واطىء – لعلها تنظف السكاكين بمسحوق الطابوق وتعوى ، تعوى بصوت خافت من الملل القاتل .

وفجأة ظهر جيلتوخين على رف النافذة المواربة . فغر منقاره من شدة الحر . عب من الهواء ثم حلق فوق المائدة وحط على كتف نيكيتا . ادار رأسه وتطلع في عيني الصبي ونقر شامة قاتمة كالحبة على صدغه ، نقرها ثم تطلع في عيني نيكيتا من جديد .

– اتركني ، ارجوك اغرب عني – قال له نيكيتا ونهض متكاسلا وصب للزرزور ماء في صحن .

شرب جيلتوخين ونط الى داخل الصحن واستحم وطرطش فسكب كل مائه وشعر بالمرح وحلق يبحث عن مكان ينفض فيه ريشه وينظفه فحط على افريز الهيكل الخشبي للبارومتر .

–فيوت ، عاصفة – قال جيلتوخين .

– ماذا تقول ؟ – سأله نيكيتا واقترب من البارومتر .

كان جيلتوخين يهز رأسه الى الاسفل والاعلى جاثما على الافريز وقد دلى جناحيه وراح يتمتم شيئا بلغة الطيور وباللغة الروسية . وفي تلك اللحظة راى نيكيتا العقرب الازرق على رقعة البارومتر وقد ابتعد كثيرا عن العقرب الذهبي ، وصار يرتعش بين مؤشرى «طقس متقلب» و«عاصفة» .

طرق نيكيتا باصابعه على الزجاج فتحرك العقرب

باتجاه مؤشر «عاصفة» . وهرع نيكيتا الى المكتبة حيث ينام ابوه . طرق الباب فتناهى صوت الاب ناعسا مدعوكا وهو يتساءل على عجل :

– ماذا ؟ ماذا حدث ؟

– بابا ، تعال ، انظر الى البارومتر . .

– نيكيتا ، لا تزعجني اريد ان انام .

– انظر ما حدث للبارومتر يا بابا . . .

ظلت المكتبة هادئة . يبدو ان بابا لا يستطيع ان يطرد النعاس . واخيرا تناهب خطوات قدميه الحافيتين ، وادار المفتاح وانفرج الباب ولاحت اللحية المعقوفة :

– لماذا ايقظتني ؟ ماذا حدث ؟

– البارومتر يشير الى العاصفة .

– كذب – تمتم بابا بهمس ورعب وركض الى الصالة وصاح منها في الحال باعلى صوته : – الكسندرا ، عاصفة ! يعيش ! جاءنا الخلاص !

اشتدت الحرارة الخانقة ، وصمتت الاطيار وتكاسل الذباب على النوافذ . وعند المساء اختفت الشمس الواطئة في غلالة ضبابية ساخنة . وحل الغسق بسرعة . كان الظلام حالكا ولا ترى نجمة في السماء . واشار عقرب البارومتر الى «عاصفة» بكل تاكيد . اجتمع الاهل حول المائدة المستديرة ذات القوائم الكثيرة كارجل ام اربع واربعين . وكانوا يتحدثون همسا ويتلفتون الى باب الشرفة المفتوح على البستان المظلم .

وفي ذلك السكون الموات كانت صفصافات

البركة اول ما تحرك بحفيف مكتوم ملفع بالهيبة والوقار . وتناهى نعيب الغربان المرتعبة . خرج بابا الى الشرفة المظلمة . اخذ الحفيف يشتد ويزداد هيبة ، واخيرا انهصرت الاقاصيا عند الشرفة بهبة شديدة ، واقتحمت الباب روائح عطرة مع عدة اوراق يابسة ، وغمز اللهب في كرة المصباح الزجاجية الحليبية وصفرت الريح وعوت في مداخن المنزل واركانه . وفي مكان ما اصطفقت نافذة بدوى شديد وجلجل زجاجها المحطم . ضج البستان كله وصرت جذوع الاشجار وتمايلت قممها في الظلمة . وظهر من الشرفة فاسيلي نيكيتيفيتش مشعث الشعر فاغر الفم متسع العينين . واخيرا شق صفحة الليل وميض ابيض ازرق يغشي الابصار ، وللحظة بانت الاشجار المحنية جدا وكانها مرسومة بالاسود . واطبق الظلام من جديد . وهدرت السماء وزمجرت وانهالت على الارض . لم يسمع احد وسط الصخب العاصف كيف سقطت زخات المطر وانسابت على زجاج النوافذ . ثم انهمر المطر غزيرا . وقفت ماما في باب الشرفة ، واغرورقت عيناها بالدموع . وامتلات الصالة برائحة الرطوبة والعفونة والمطر والاعشاب .

الرسالة

قفز نيكيتا من السرج وربط كلوبيك بمسمار على العمود المخطط ودخل دائرة البريد في ساحة السوق بقرية اوتيوفكا .

وراء الحاجز المكشوف جلس مأمور البريد الاشعث بوجهه المنتفخ وراح يحرق شمع الاختام . منضدته ملوثة عن آخرها بقطرات الشمع الاحمر والحبر ورماد التبغ . صب على الظرف سيلا من الشمع الملتهب واختطف الختم بيده المكسوة بالشعر وطرقه بشدة وكأنما يريد تحطيم جمجمة مرسل الرسالة ثم دس يده في جرار المنضدة واخرج طابعا ومد لسانه الطويل ولعق الطابع والصقه وبصق باشمئزاز ، وبعد ذلك القى على نيكيتا نظرة شزراء من عينين متورمتين .

اعتاد مأمور البريد ايفان لانديشيف على مطالعة جميع الصحف والمجلات ، يقرأها من الفها الى يائها ، ولا يسلمها الى اصحابها باية حال الا بعد ان يفرغ من مطالعتها . اشتكى الناس عليه مرارا عند الجهات المسؤولة في سامارا ، ولكنه كان يزداد غيظا دون ان يكف عن المطالعة . كان يدمن على المسكرات ست مرات في العام ، وعند ذاك يخشى الناس حتى الدخول الى دائرة البريد . وفي تلك الايام يخرج مأمور البريد رأسه من النافذة ويصرخ في الساحة كلها : «نهشتم روحي يا ملاعين» .

قال له نيكيتا :

– بابا ارسلني لاستلام البريد .

لم يرد عليه مأمور البريد ، واحرق الشمع من جديد ، لكن قطرة سقطت على يده فقفز وزعق وجلس ثانية .

– من اين لي ان اعرف من هذا «البابا» ؟ –

غمغم بلهجة لا تنم عن حسن نية اطلاقا . – كل شخص هنا بابا ، الكل آباء . . .

– ماذا تقول ؟

– اقول عندكم آلاف الاباء – بصق مأمور البريد تحت الطاولة – ما اسمه ؟ اسألك ما اسم ابيك ؟ – القى بالشمع جانبا ولم يخرج حزمة الرسائل من الجرار الا بعد ان اجابه نيكيتا .

وضع نيكيتا الرسائل في الحقيبة وسأل بوجل :

– والمجلات والجرائد ؟ الم تصلنا ؟

بدأت اوداج مأمور البريد تنتفخ ، فاسرع نيكيتا خارجا دون ان ينتظر الجواب .

كان كلوبيك يضرب الارض بقائمته قرب عمود البريد ويصفع نفسه بذيله لينش الذباب الذى انهال عليه . وكان صبيان صغيران بشعر فاتح كالكتان ووجهين ملطخين بالعصير يتطلعان الى الحصان .

– ابتعدا ! – صاح بهما نيكيتا وهو يصعد الى السرج .

هوى احد الصبيين على التراب ، بينما استدار الاخر ومضى راكضا . وفي النافذة التهب شمع الاختام من جديد في يد مأمور البريد .

خرج نيكيتا من القرية الى السهب الذهبي الاسفر الذى سخنته السنابل الناضجة ، وهناك ترك الحصان يمشي الهوينى وفتح حزمة الرسائل .

كانت احدى الرسائل في ظرف صغير بنفسجي فاتح كتب عليه باحرف كبيرة : «ليد نيكيتا» .

وهي مكتوبة على ورق مخرم . طرفت رموش نيكيتا من الانفعال وهو يقرأ :

«عزيزى نيكيتا . لم انسك ابدا . احبك ، احبك بشدة . نقيم الان في الفيلا . وهي مريحة تماما ، مع ان فكتور يضايقني كثيرا ويعكر علي حياتي . لـم يعد يطيع ماما . حلقوا له شعره بالماكنة للمرة الثالثة ، وكلـه خدوش الان . انا اتنزه لوحدى في بستاننا . عندنا ارجوحة ، وتفـاح لم ينضج بعد . هل تتذكر الغابة السحرية ؟ تعـال الينا ، الى سامارا ، في الخريف . لم اضيع خاتمك . الى اللقاء . ليليا» .

قرأ نيكيتا هذه الرسالـة المدهشة مرارا . وفاحت منها فجاة روعة اعياد الميلاد التي مرت سراعا آنذاك . غدت الشموع اكثر دفئـا وظهر الشريط الكبير المطل على عيني البنت الزرقاوين الثاقبتين وتحرك ظله على الجدار ، وخشخشت السلاسـل الورقية على شجرة الميلاد . وومضى ضوء القمر في النوافذ المتجلدة . وانسابت اضواء الطيف عـلى السطوح الملفعة بالثلج وعـلى الاشجار البيضاء والحقول الناصعة . . . وجلست ليليا من جديـد تحت المصباح عند المائدة المستديرة مسندة ذقنها بقبضة يدها . . . يا له من سحر عجيب ! . .

نهض نيكيتا على الركاب ولوح بالسوط ، فجفل كلوبيك من شدة المفاجاة وجـرى برماحة كعدو الكلاب . وصفرت الريح المتواصلة في الاذنين . وعلى السهب الواسع ، فوق السنابل الناضجة ، المحصودة

في بعض الاماكن ، وفوق ضفة النهر الطينية الشديدة الانحدار حلق نسر على ارتفاع شاهق . وفي السبخة المنخفضة ، عند البحيرة المالحة ، ناحـت الزقازق باصوات خاوية خالية الا مـن الكآبة . وفكر نيكيتا فرحا وقلبه ينتفض بشـدة : «اركض يا حصان ، اصفرى يا ريح ! حلـق يا نسر ، غرد يا زقزاق ، فانا اسعد منك . انا والريح ، انا والريح . . .»

سوق بيوسترافكا

بابا وماما يتشاجران منذ ثلاثـة ايام . فاسيلي نيكيتيفيتش راغب اشد الرغبة في الذهاب الى السوق في بيوسترافكا ، لكن ماما تعارض هذه الرحلة كـل المعارضة :

— الامور في سوق بيوسترافكا جيدة للغايـة بدونك يا عزيزى .

— عجيب — اجاب بابا وهو يمسك لحيته كلها في يده ويعض طرفها ويهز كتفيه — عجيب غريب .

— هل يثير ذلـك استغرابك يا عزيزى ؟ فليكن .

— حقا ، غريب جدا !

— لكنني اكرر مرة اخرى — اكدت ماما — لسنا بحاجة الى خيول جديـدة ، فالاسطبل غاص بخيول السفر والحمد لله .

— افهميني ، انا ذاهب الى هناك لبيع زاريمكا اللعينة .

– لا داعي لذلك . زاريمكا فرس رائعة .

– ماذا تقولين ؟ ! – باعد بابا ما بين قدميه وجحظت عيناه . – زاريمكا تعض وترفس .

– كلا . – اجابت ماما باصرار – زاريمكا لا تعض ولا ترفس .

– اذن فانا اعلن صراحة . . . – انحنى بابا بتأدب وطرق كعب احدى قدميه بكعب الاخرى – اما هذه الفرس اللعينة في البيت واما انا !

واخيرا فضلت ماما ، كما حزر نيكيتا ، ان يبقى بابا في البيت . وانتهى الشجار بصلح وتنازلات من الطرفين : تقرر بيع الفرس ، بينما تعهد بابا «بألا ينفق اموالا طائلة في السوق» .

ولكي يعوض فاسيلي نيكيتيفيتش عما سينفقه من نقود فكر بارسال عربتين من سقيط التفاح الى بيوسترافكا وبيعه هناك بالوزن .

طلب نيكيتا ان يسمحوا له بالرحيل على احدى العربتين مع ميشكا كورياشونوك .

بدأت العراقيل منذ الصباح . فقد اتضح ان الخيول لم تكن جاهزة ، واسرع ميشكا كورياشونوك على ظهر حصان الى القطيع الذي يرى بالكاد في المنخفض الملفع بضباب الصباح وراء البرك . وعندما اخرجوا زاريمكا الشقراء ذات الكواحل البيضاء من الاسطبل واخذوا ينظفون شعرها بالمحكة عضت سرغي ايفانوفيتش وكادت تنهشه . رأى بابا هذا المشهد من النافذة فهرع الى الاسطبل بقميص النوم :

– اهـا . . . تعض ! الم اقل لكم يا ملاعين ؟ ! . .

اخذت زاريمكا تتراجع وتقعى وتسحب سرغي ايفانوفيتش من سير اللجام وتحمحم وتتملص ، ثم طاطات بوزها وترافست بشدة ، حتى تطايرت النتف من تحت سنابكها الى اعلى من مستودع العربات ، وانطلقت الى القطيع . ثم اختفى ارتيوم ، وكان يجب ان يرتحل مع العربتين . راحوا يبحثون عنه ، فاتضح انه موقوف من مساء امس في محبس الناحية . فقد حان موعد تسديد الضريبة المستحقة وقد تكدس منها على ارتيوم دين خمس سنوات ، لذا يلقى العمدة القبض عليه اينما كان ويزجه في المحبس حتى ياتي من يسدد دينه .

بعث فاسيلي نيكيتيفيتش رسولا الى العمدة . فاطلقوا سراح ارتيوم بكفالة ، وجاء ليشد خيول العربتين ، وكان في مرح شديد . شد زاريمكا بوثوق الى العربة الخلفية ، وصعد نيكيتا وميشكا كورياشونوك الى العربة الامامية ، ولوح ارتيوم باطراف الاعنة فتحركت العربتان . . . وصاح سرغي ايفانوفيتش مازحا وهو يشير الى العجلة عمدا : «مكسورة ، مكسورة» فقفز ارتيوم وتفقد العجلة . كانت سالمة . حك شعره وهز رأسه . . . وانطلقت العربتان اخيرا .

كانت رحلة رائعة . النسيم يهب مشبعا برائحة الشيح ودريس القمح ، ويتلاعب باعشاب راعي الحمام العالية على اطراف الحقل . ومن بين اكوام

القش المنتشرة على مدى البصر في السهب المستوى حلق باشق وابتعد ببطء الى عنان السماء . ومن بعيد تصاعد دخان ازرق . فقرب محطة المحاريث يطبخون عصيدة .

وعندما وصلوا الى المحطة ، وهي عبارة عن قمرة على عجلات ، اوقف ارتيوم فرسه . وتوجه مع الصبيين الى البرميل ليشربوا من ماء آسن مليء بالاشنات تفوح منه رائحة خشب البرميل . اقترب من العربتين عجوز طاعن في السن ، كان يطبخ العصيدة للحارثين ، ووضع يده على عارضة احداهما وقال وهو يهز رأسه الحاسر :

– تحملون التفاح للبيع ؟ – مد له نيكيتا يده بتفاحة – كلا ، يا فتى ، لن اتمكن من مضغها .

وما ان غادروا المحطة حتى صادفوا اربعة اشخاص يستحثون ثيرانا تتأرجح في انيارها ، وتجر محاريث مقلوبة السكاكين الى اعلى . وتوجه الحارثون مشعثي الشعر في قمصان مخشوشنة لتناول العصيدة . توقف ارتيوم من جديد واستفسر منهم عن موقع المنعطف الى بيوسترافكا .

عند الظهيرة سكنت الريح ، وانداحت موجات الحر بعيدا على طرف السهب . حملق نيكيتا فصار يرى في هذه الزرقة المثيرة للانفعالات منزلا عائما تارة او شجرة معلقة فوق الارض تارة اخرى او سفينة بلا صوار ، في حين تواصل العربتان سيرهما ، وتبعث الجنادب صريرها . وفجأة تناهى من السهب رنين متناغم رتيب . ومالت زاريمكا على جنبها راقصة

في عريشها واطلقت صهيلا رنانا . فالتفت ارتيوم وقال غامزا :

– «اللورد بايرون» يثير الغبار !

وسرعان ما مرقت ازاء العربتين مركبة بثلاثة جياد يتوسطها «اللورد بايرون» رافعا بوزه باستعلاء وهو يعدو في خبب كاسح ، والى جنبيه فرسان قميئتان تتلظيان شررا من شدة الغضب . وفي المركبة جلس بابا منتصب القامة في سترة طويلة خشنة وقد اسند جبينه بيديه ، وتطايرت لحيته بشطرين في الريح ، وصاح على نيكيتا وعيناه المرحتان تتراقصان :

– اتريد ان تركب معي ؟ – وانطلقت المركبة تنهب الدرب .

واخيرا اخذت ترتفع من وراء طرف السهب قبتا الكنيسة البيضاء وشواديف الابار وقمم الصفصف المتناثرة واعمدة الدخان وسطوح المنازل ، وخلف النهر السهبي الغريني الاصفر ، البراق في ضوء الشمس ، تكشفت قرية بيوسترافكا بكاملها ، ووراءها ، في المرعى ، سرادقات مظللة بالقماش وبقع قاتمة من قطعان الخيل .

مرت العربتان مسرعتين فوق الجسر المترجرج الرابض على سطح الماء تقريبا ، واجتازتا ساحة الكنيسة حيث كان قس بدين يعزف على الكمان في آخر نافذة بالمنزل الوردي . واستدارت العربتان في المرعى نحو السرادقات وتوقفتا قرب صف الفخارين .

وقف نيكيتا في العربة ورأى غجريا بلحية كثة

سوداء نبتت من تحت عينيه مباشرة وقفطان ازرق ، بازرار فضية ، مكشوف عن صدر عار ، وهو يحدق في اسنان فرس مريضة ، بينما يتطلع الفلاح النحيل ، صاحب الفرس ، في وجه الغجرى مندهشا . وها هو شيخ ماكر يقنع فلاحة مذعورة بان تشترى منه وعاء فخاريا مزينا بنقوش مشجرة وهو ينقر بظفره . قالت له الفلاحة : «اريد وعاء من نوع آخر يا ابتي .» — «لن تجدى ، يا حلوة ، احسن من هذا الوعاء في العالم كله» . وها هو فلاح ثمل يصيح غاضبا قرب سلة بيض : «اهذه بيضة ؟ اى بيضة هذه ؟ بيضة حمام . البيض عندنا في كولديبان بيض حقيقي ، والدجاج عندنا يغوص في الحب حتى الرقبة» . ورأى نيكيتا بنات في بلوزات وردية وصفراء ومناديل مزركشة يتجهن صوب السرادقات التي انحنى الباعة من وراء رفوفها وهم يجتذبون المارة ويتصايحون : «تعالوا ، تعالوا ، اشتروا منا . . .» . السوق غاص بالغبار والصياح وصهيل الخيل ، وصفير الصفارات الفخارية . وفي كل مكان برزت عرائش العربات المرفوعة . وها هو فتى في قميص ازرق ممزق عند الكتف يسير مترنحا متدافعا ويمطط الاكورديون بكل قوته : «عيني ، عيني يا عيني . . .»

حل ارتيوم وثاق الفرسين وبدأ يرفع غطاء العربة . وفي تلك الاثناء اقترب منه رجل مشورب في سترة عسكرية وحزام جلدى يتدلى منه سيف . تطلع الى ارتيوم وهز راسه . وتطلع اليه ارتيوم بدوره وخلع قبعته . فقال ابو الشوارب :

— وقعت في يدى اخيرا يا هارب . ساحبسك هذه المرة طبعا .

— الامر لك — اجابه ارتيوم .

امسك ابو الشوارب بمرفقه وسحبه . فشيعهما بائع الخزفيات العجوز الماكر بضحكة . وهمس ميشكا كورياشوونك الى نيكيتا مهموما :

— اسرع وابحث عن ابيك ، قل له ان الشرطي اخذ ارتيوم الى المحبس ، اما انا فساحرس العربتين .

تخلص نيكيتا من الزحام وركض في ممشى عبر الحقل المعشوشب باتجاه زرائب الخيل حيث لمح من بعيد مركبة ابيه . كان بابا واقفا في غاية المرح قرب احدى الزرائب ويداه في جيبي سترته . بدأ نيكيتا يحدثه عما جرى لارتيوم ، لكن اباه قاطعه في الحال :

— انظر الى ذاك الحصان الكميت ، ما اشد دهاءه ! . .

بين الخيول في الزريبة راح ثلاثة من البشكيريين في اردية مضربة فاقعة الالوان وقبعات فرائية يجهدون الالقاء الوهق على رقبة حصان اشقر جموح . ولكنه ينشر اذنيه ويكشر عن اسنانه ويجفل متملصا من حبل الوهق فيدس نفسه في خضم القطيع تارة ويهرع الى الخلاء تارة اخرى . وفجأة ثنى ركبتيه ودس راسه تحت عارضة السياج ورفعها وقفز الى خارج الزريبة وانطلق في رماحة مرحة الى السهب المعشوشب وعفرته وذيله يتطايران في الهواء . وضرب بابا الارض بقدمه من شدة الارتياح .

ركض البشكيريون متمايلين على اقدام معقوفة الى افراس الركوب القميئة الشعثاء وصعدوا بخفة الى السروج العالية وانطلق اثنان منهم لملاحقة الحصان الكميت ، بينما توجه الثالث وبيده الحبل ليقطع الطريق عليه . اخذ الحصان يحوم في الحقل ، وكان البشكيرى يقطع عليه الطريق كل مرة وهو يزعق كالوحش . ارتبك الحصان ، وفي تلك اللحظة اطبق الحبل على رقبته . فاهتاج وجمح ، الا ان السياط انهالت عليه من الجانبين والحبل يخنقه . تمايل الحصان وسقط ثم اقتادوه الى الزريبة وهو يرتعش والزبد يغطي جسمه . هبط البشكيرى العجوز المتغضن من السرج بصورة خرقاء واقترب من فاسيلي نيكيتيفيتش :

– اشتر هذا الحصان يا سيدى .

ضحك بابا ومضى الى زريبة اخرى . وبدأ نيكيتا من جديد يحدثه عما جرى لارتيوم .

– يا للاسف – هتف بابا – حقا ، ماذا استطيع ان افعل لهذا الاحمق ؟ اسمع . خذ عشرين كوبيكا وآشتر رغيفا وسمكا وانتظرني قرب العربتين . . . هل تعلم ؟ بعت زاريمكا الى ميدفيديف ، بسعر بخس ، ولكن بدون مشاكل . اذهب ، سأتى الآن .

واستغرقت تلك «الآن» وقتا طويلا جدا . قرص الشمس البرتقالي الشاحب الكبير تعلق فوق طرف السهب وخيم غبار ذهبي على السوق . ودقت نواقيس صلاة المغرب . وعند ذاك جاء بابا تعلو وجهه مسحة من الارتباك . وقال دون ان ينظر في عيني نيكيتا :

– بالصدفة اشتريت مجموعة من الجمال بثمن بخس جدا . . . الم يبعثوا احدا ليأخذ الفرس ؟ عجيب . ماذا ؟ هل بعتم كثيرا من التفاح ؟ بخمسة وستين كوبيكا فقط ؟ عجيب . فليذهب التفاح في داهية . اخبرت ميدفيديف باني سابيعه التفاح علاوة على الفرس . . . فلنذهب لنخلص ارتيوم . . .

طوق فاسيلي نيكيتيفيتش كتفي نيكيتا وسار به في السوق الذى هدا ، بين عربات تفوح منها في الغسق رائحة القش والقطران والقمح . ومن مكان ما تهادت اغنية بصدى رفيع يذوب في السهب . وصهل حصان .

– هل تعلم ؟ – توقف الاب ولمعت عيناه بمكر – ستقوم القيامة علي في البيت . . . ولكن ، لا يهم . غدا نذهب لرؤية ثلاثة جياد رمادية مبقعة . . . لا يهم ، تعددت الاسباب والموت واحد .

في العربة

في المساء عاد نيكيتا من البيدر في عربة محملة بقش القمح الطرى . كان خط ضيق من المغيب الكابي الارجواني ، كعادته في الخريف ، يتلاشى بالتدريج فوق السهب ، وفوق الاطلال التي خلفها البدو الرحل بعد ما جابوا هذه الانحاء في غابر الزمان .

وفي الغسق لاحت اخاديد التربة المحروثة في الحقول الخالية بعد الحصاد . وفي مكان ما يومض موقد محطة الحارثين احمر لا يكاد يرتفع عن الارض

وتفوح رائحة دخان تزكم الانف . العربة تصر وتترنح ونيكيتا مستلـــق على ظهره مغمض العينين . دب التعب اللذيذ في جسده . وراح يتذكر احداث هذا اليوم في شبه غفوة . . .

. . . اربعة ازواج من الافراس القويــة تدور وتسحب ذراع الدراس . وعلى مقعـــد دائرى في الوسط يدوم ميشكا كورياشونوك ببطء ويزعق بين حين واخر ويطقطق بالسوط .

ومن الدولاب الخشبي يتراكض مطبطبا سير لا نهاية له فيدخل الدارسة الحمراء الضخمة كبنايـة بيت ، وفيها تهتز المناخل والمقشات بشكل مسعور ، وتهدر الاسطوانة الدوارة وتعوى وتزأر كوحش هائج ويتداح هديرها في السهب الى مسافات بعيدة ، وهي تلتهم حزم السنابل المنفوشة وتدفع القش والحب الى احشاء الدارسة المغبرة . ويطعم الاسطوانـــة فاسيلي نيكيتيفيتش نفسه وهو يرتدى نظارة محكمة منغرزة في وجهــه وردنين يمتدان حتى المرفقين وقميصا بظهره العرق ، وقد تلوث بالغبار وعلقت العصافة بلحيته واسود فمه . العربات المحملة بحزم السنابل تقترب بصرير . ويركض صبي متباعـد الساقين وراء الناقلة وياخذ كومة ضخمة من القش ويقف على اللوح ويسحب القش بسرعة الى الاكداس . ويعمل فلاحون كهول في تكويم تلك الاكداس بمذار خشبية طويلة . وتشرف على الانتهاء مشاغل واعمال عام كامل وينتهي معها قلق ذلك العام . وتنشد الاغاني وتطلق النكات طول النهار . كان ارتيوم يلقى

حزم السنابل من العربات على رف الدارسة ، فقبضت عليه البنات بين العربات وطرحنـــه ارضا واخذن يدغدغنه ، ثم حشون مابين ثيابه وبدنه بالعصافة . وتعالت عاصفة من القهقهة والضحك . . .

. . . فتح نيكيتا عينيه ، والعربة تتمايل وتصر . خيم الظلام على السهب ، والسماء مرصعـة بنجوم اغسطس . سماء لا قعر لها ولا قرار ، تتموج فيها الاضواء وكان النسيم يداعب مجراتها وكواكبهـا . وامتد درب التبانة كشريط ضبابي لامع . العربـة تهتز ، ويسبح نيكيتا ، مستلقيا عليها كما في المهد ، تحت النجوم وينظر بهدوء واطمئنان الى العوالم البعيدة .

ويفكر في نفسه : «كل هذا لي ، ساركب يوما سفينة جوية واطير . . .» وراح يتصور السفينـة الطائرة بجناحين مثل الخفاش ، والسماء الخاليـة السوداء ، وشاطئا لازورديا لكوكب مجهول يقترب منه بجبال فضية وبحيرات رائعة وقلاع وهياكـل وغيوم محلقة فوق الماء كالتي يراها عند الغروب .

انحدرت العربة من التلـة ونبحت الكلاب من بعيد . وهب نسيم رطب من البرك . ودخلت العربة الحوش . كانت اضواء دافئة مريحـة تنسكب من نوافذ المنزل ، من غرفة الطعام .

الرحيل

حل الخريف . واكتنف النعاس الارض . صارت الشمس تشرق متأخرة ، عجوزا لا تدفئ ، ولا يعنيها

من امر الارض شيء . هاجرت الطيور وخلا البستان وتساقطت الاوراق . رفعوا القارب من البركة ووضعوه مقلوبا في المستودع .

وفي الصباح تغدو الأعشاب في الاماكن التي تقع عليها ظلال السطوح فضية اللون تحت الندى المتجلد . وعلى ندى الاعشاب المصفرة تتهادى الوزات صوب البركة سمينة متمايلة مثل كرات الثلج . انهمكت اثنتا عشرة فتاة من القرية بفرم الملفوف في طست ضخم قرب جناح الخدم . كن ينشدن الاغاني وتتعالى اصوات بلطاتهن في الحوش كله . ومن مبنى السرداب حيث يجرى مخض اللبن جاءت دونياشا واخذت تقضم ساق ملفوف . لقد صارت اثناء الخريف اكثر نضارة وتوردا ، والجميع يعرفون بانها تتردد على جناح الخدم لا لتقضم سيقان الملفوف وتتضاحك مع البنات ، بل لكي يراها من النافذة الخادم الشاب فاسيلي الذى يشبهها في وسامته ونضارته . تعكر مزاج ارتيوم نهائيا وهو يصلح اطواق الخيل في جناح الخدم .

انتقلت ماما الى القسم الشتوى من المنزل . واشعلوا المدافئ والافران . جمع القنفذ اخيلكا خرقا واوراقا كدسها تحت الخوان واستعد للسبات الشتوى . وكان اركادى ايفانوفيتش يصفر في غرفته . راى نيكيتا في شق الباب معلمه واقفا امام المرآة وقد امسك بطرف لحيته وراح يصفر متأملا . كان واضحا انه ينوى الزواج .

بعث فاسيلي نيكيتيفيتش قافلة من العربات

المحملة بالقمح الى سامارا ، وسافر الى هناك في اليوم التالي . وقبيل سفره جرت مباحثات طويلة بينه وبين ماما وهي الآن تنتظر وصول رسالة منه .

بعد اسبوع كتب فاسيلي نيكيتيفيتش يقول : «تصورى ، بعت القمح بسعر موفق ، اغلى من سعر ميدفيديف . قضية الميراث ، كما هو المتوقع ، لم تتحرك قيد شعرة . ولذا يتعين ، بديهيا ، القيام بالاجراء الثاني الذى اعترضت عليه بشدة يا عزيزتي الكسندرا . فهل يجوز ان نقضي هذا الشتاء ايضا مفترقين ؟ انصحك بالتعجيل في السفر ، لا سيما وان الدروس في المدرسة قد بدأت . ولن يسمحوا لنيكيتا باداء امتحانات القبول في الصف الثانى الا بصورة استثنائية . وبالمناسبة عرضوا على مزهريتين رائعتين من الفورفورى الصيني لاجل شقتنا في المدينة ، ولا يمنعني من شرائهما الآن الا خوفي من زعلك» .

لم يطل تردد ماما . فان قلقها على المبالغ الكبيرة الموجودة عند فاسيلي نيكيتيفيتش ، وخصوصا احتمال شرائه للمزهريتين الصينيتين اللتين لا حاجة باى بشرى اليهما ، قد جعلاها تستعد للسفر في ثلاثة ايام . ارسلت ماما في قافلة العربات كل ما هو ضرورى للاقامة في المدينة من اثاث وصناديق كبيرة وبراميل الملفوف المتبل بالاضافة الى بعض الدواجن ، بينما استقلت هي ونيكيتا واركادى ايفانوفيتش والطباخة فاسيليسا عربتين بعفش زهيد وتوجهوا الى

المدينة قبل القافلة . كان النهار كالحا عاصفا والارض المحروثة والحقول في كل مكان خالية الا من اصول السنابل . ماما ترأف بحال الجياد ولا تسمح لهـــا بالعدو السريع . باتوا الليل في خان في كولديبان ، وفي ظهيرة اليــــوم التالي لاحت قباب الكنائس ومداخن المطاحن البخارية من خلال الغلالة الرمادية التي تلفع طرف السهب المنبسط . كانت ماما صامتة ، فهي لا تحب المدينة ولا تهوى العيش فيها . اما اركادي ايفانوفيتش فقد كان على احر من الجمر وهو يعلك جانبا من لحيته . سارت المركبتان امدا طويلا ازاء معامل السمن الحيواني النتنة ومستودعات الاخشاب ، واجتازتا حارة قذرة تكثر فيهــا الخمارات وحوانيت البقالين ، وعبرتا جسرا عريضــا يمارس فيه شبان الحارة الشقاوات في الليل ، وها هي العنابر الخشبية المعتمة على ضفة نهر ساماركا العاليـــة . والجياد المتعبة ترتقي الشارع الصاعد ، والعجلات تهدر على قارعته . تلفت المارة بثيابهم النظيفـــة وتطلعوا مدهوشين الى المركبتين الملوثتين . وخيل لنيكيتا ان منظر العربتين اخرق يثير الضحك وان الجياد ريفية متباينـــة الالوان ، فحبذا لو استداروا الى شارع جانبي ! ومرق قربهم حصان ادهم يجر عربة انيقة ويتعالى وقع سنابكه . فقال نيكيتا :

— يا سرغي ايفانوفيتش لماذا نسير ببطء ؟ الا يمكن ان نسرع ؟ .

— سنصل حتى بهذه السرعة .

كان سرغي ايفانوفيتش جالسا بوقار وحزم على

مقعد القيادة وهو يمسك باعنة الجياد الثلاثـــة كي تسير على مهل . واخيرا استداروا الى شارع جانبي ومروا ببرج اطفاء وقف عند بوابة سياجه شاب ناتئ الوجنتين في خوذة اغريقية ، ثم توقفوا امام منزل ابيض من طابق واحد ومدخل حديدي يحتل الرصيف كله عرضا . ولاح في النافـــذة محيـــا فاسيلي نيكيتيفيتش فرحا . لوح بيديه واختفى ، وبعد لحظة فتح بنفسه الباب الرئيسي .

دخل نيكيتا الدار راكضا قبل الاخرين . فاحتوته صالة غير فسيحة وخالية تماما لكنها مضيئة بجدرانها المغلفة بورق ابيض ، وتفوح منها رائحة الدهان ، وعلى الارضية المطلية اللامعة انتصبت عند الجدار مزهريتان صينيتان اشبه بأباريق الغسيل . وفي آخر الصالة ، تحت طاق باعمدة نحيفة بيضاء منعكسة على الارضية ظهرت بنت ترتدي فستانا بنيا وقد دست يديها تحت مئزر ابيض ، وانعكس حذاؤها القصير الاصفر على الارضية ايضـــا . شعرهـــا مصفف في ضفيرة ، وعلى قفاها ، خلف الاذنين ، شريط اسود . عيناها الزرقاوان توزعان نظرات صارمة من بين جفون مطبقة قليلا . تلك هي ليليا . وقف نيكيتا وسط الصالة مسمرا . لعلها كانت تنظر اليه نظرة المارة في الشـــارع الرئيسي الى المركبتين القادمتين من سوسنوفكا . وسألته :

— استلمت رسالتي ؟ — هز نيكيتا رأســـه بالايجاب . — اين هي ؟ اعطنيها في الحال .

دس نيكيتا يده في جيبه يبحث عن الرسالة رغم

علمه بانها ليست معه . تطلعت ليليا في عينيه بنظرة متفحصة غاضبة . . . وغمغم نيكيتا :

– اردت ان اجيب . ولكن . . .

– اين هي ؟

– في الحقيبة .

– اذا لم تعدها لي اليوم سينتهى كل ما كان بيننا . . . انا متأسفة جدا لاني كتبت لك . . . دخلت هذا العام الصف الاول .

زمت شفتيها ووقفت على اطراف اصابعها . وعند ذاك ادرك نيكيتا انها زعلانة لانه لم يرد على الرسالة البنفسجية . . . ابتلع لعابه وتزحزح من الارضية الصقيلة . . . خبأت ليليا يديها تحت المئزر في الحال وارتفعت ارنبة انفها . واطبقت جفونها الطويلة دليلا على الاحتقار .

– اعذريني – تمتم نيكيتا – انا آسف جدا . . . شغلتني الخيول والحصاد والدراس وميشكا كورياشونوك . . .

احتقن وجهه واطرق براسه . وظلت ليليا صامتة . واحس بانها متقززة منه تقزز الانسان من السرقين . وفي تلك اللحظة دوى في الدهليز صوت آنا ابولوسوفنا وتعالت التحياة والقبلات وطبطبت خطوات الحوذيين الثقيلة وهما ينقلان الحقائب . . .

وهمست ليليا بلهجة سريعة غاضبة :

– سيروننا . . . عجيب امرك . . . تظاهر بالمرح . . قد اعذرك هذه المرة . . .

وهرعت الى الدهليز . ومن هناك تهادى صوتها الرفيع عبر الغرف الخالية المدوية :

– مرحبا يا خالتي الكسندرا ، الحمد لله على السلامة !

هكذا بدأ اليوم الاول من الحياة الجديدة . سبع غرف ضيقة موحشة بدلا من رحاب الريف الهادئة البهيجة ، ووراء النوافذ تهدر عربات الاحمال على احجار الشارع ، والمارة المهمومون المستعجلون ببزاتهم التي تشبه بزة فيرينوسوف ، طبيب الناحية في قرية بيوسترافكا ، يتراكضون حاجبين افواههم بالياقات اتقاء لريح تحمل قصاصات الورق والغبار . الهرج والمرج والصخب واللغط المنفعل في كل مكان . حتى الوقت يمضي هنا على غير عادته . فهو يطير . انشغل اركادى ايفانوفيتش ونيكيتا في ترتيب غرفة الصبي ، فرصفا الاثاث والكتب وعلقا الستائر . قبيل المساء جاء فكتور ، من المدرسة رأسا ، وافاد بان تلاميذ الصف الخامس يدخنون في المرحاض وان سروال معلم الحساب في صفهم التصق بالكرسي الذى طلاه احدهم بالصمغ . كان فكتور شارد البال ، ولكن بمظهر من يعتمد على نفسه . طلب من نيكيتا ان يعطيه السكين الصغيرة مع اثنتى عشرة شفرة وقال بانه ذاهب ليلعب بالريشات مع احد الزملاء و«انت لا تعرفه» .

حل الغسق فجلس نيكيتا قرب النافذة . الغروب وراء المدينة مثل ما هو عليه في القرية . الا ان نيكيتا ، كالزرزور جيلتوخين خلف شاش النافذة ،

يشعر بانه اسير ، غريب ، رهين ، مثل جيلتوخين تماما . دخل اركادى ايفانوفيتش الغرفة مرتديا معطفه وقبعته وبيده منديل نظيف تفوح منه رائحة الكولونيا :

– انا ذاهب ، ساعود في حوالي التاسعة .

– الى اين ؟

– الى مكان لست موجودا فيه الان . – اجاب واطلق قهقهة مبتورة – ماذا يا اخي ؟ كيف استقبلتك ليليا ؟ على اسنة الحراب ؟ لا تهتم ، ستتعود وتتهذب . وقد يفيدك ذلك بعض الشيء ، فيخفف من سمنة الريف . . . – استدار على كعبه وانصرف . فخلال يوم واحد تغير كليا وغدا انسانا آخر تماما .

في تلك الليلة راى نيكيتا نفسه في المنام في بزة زرقاء بازرار فضية وقد وقف امام ليليا وقال لها بخشونة :

– خذى رسالتك .

لكنه استيقظ عندما تلفظ هاتين الكلمتين ، ثم غفا وراى نفسه من جديد وهو يشير الى الارضية اللماعة ويقول لليليا :

– خذى رسالتك .

كانت اهداب ليليا الطويلة ترتفع وتنخفض ، وانفها الصغير الاشم ينم عن الكبرياء والاغتراب ، ولكن هذا الانف يكاد يتخلص من الاغتراب والوجه كله يكاد يبتسم . . .

واستيقظ نيكيتا وتلفت حواليه . ضوء غريب من

فانوس الشارع يستقر على الجدار . . . وراى في المنام ثانية نفس ذلك الحلم . لم يكن في اليقظة ابدا يحب بهذا القدر تلك البنت الاحجية . . .

وفي الصباح مضت ماما واركادى ايفانوفيتش ونيكيتا الى المدرسة وقابلوا مديرها الكهل النحيل المتجهم الذى تفوح منه رائحة النحاس . وبعد اسبوع ادى نيكيتا امتحان القبول والتحق بالصف الثاني . . .

١٩١٩–١٩٢٢

المحتويات

24*

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته ، وشكل عرضه وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو – الاتحاد السوفييتي